

المكتبة العربية

صفحات من الذكريات من الكتب والبشر

تأليف

كراتشكوفسكى

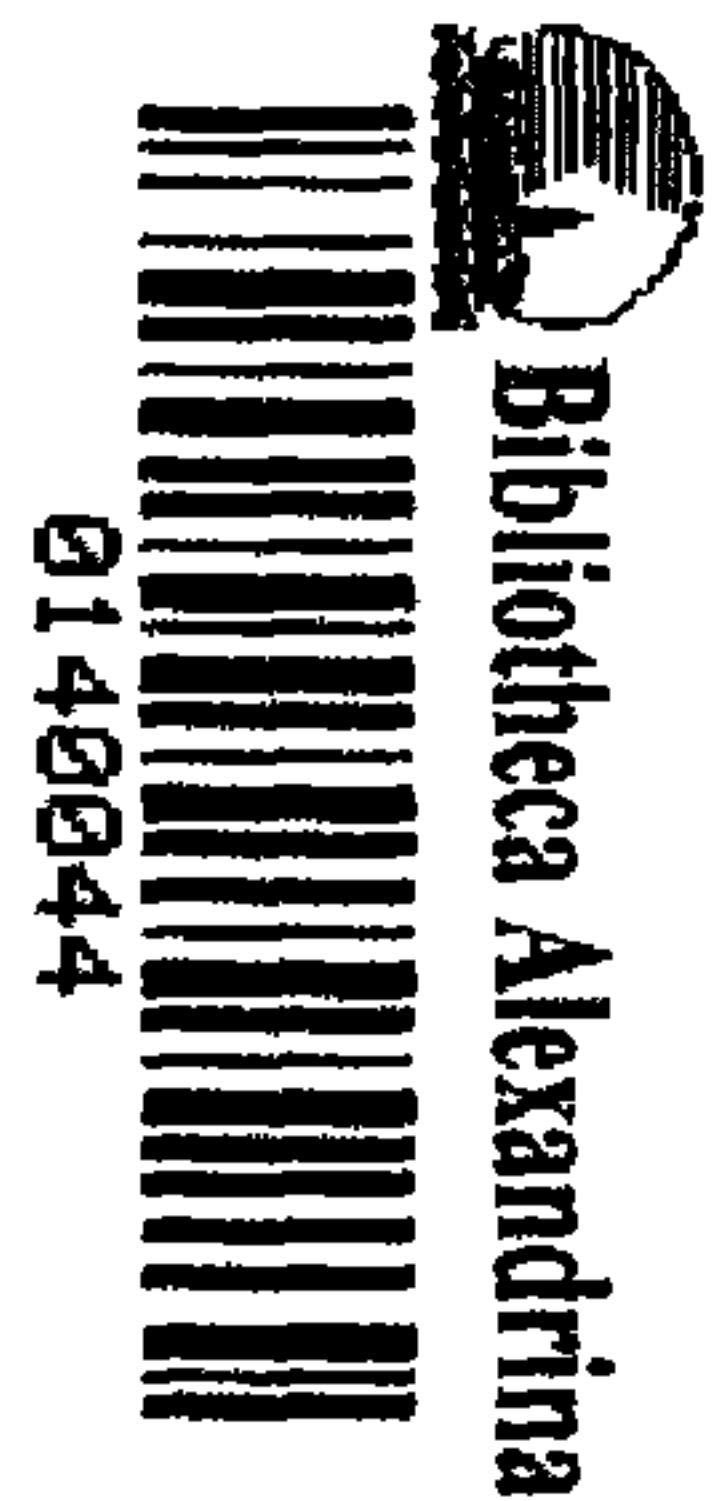
تعرىب

الدكتور محمد صفيح مرسى

المدرس بكلية التربية - جامعة عين شمس

طبعة منقحة ١٩٦٩

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ عبد الخالق تويك - القاهرة



مع المخطوطات العربية

صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر

تأليف

كراشكوفسكى

تعريب

الدكتور محمد منير مرسى

المدرس بكلية التربية - جامعة عين شمس

طبعة منقحة ١٩٦٩

الناشر

دار النهضة العربية

٣٤ عيد الخالدين - القاهرة



مقدمة المترجم

بدأت قصتي مع هذا الكتاب منذ ما يقرب من ثمانى سنوات عندما كنت أقوم بتدريس اللغة العربية بجامعة تاجيكستان بالاتحاد السوفيتى. وكان من الطبيعى أن أتعرف بطريقة مباشرة على الدراسات العربية هناك وما بذل من جهود فيها . وقد هالنى ذلك التراث الضخم الذى خلفه شيخ المستعربين الروس كراتشكوفسكى (١٨٨٣ — ١٩٥١) الذى وهب كل حياته لخدمة اللغة العربية وآدابها . وقدم جهودا عظيمة وأعمالا جليلة لا يتسنى القيام بها إلا لرجل مثله بما أوتى من ذوق أدبى رقيق ومعرفة واسعة عميقة وإجادته لعدد كثير من اللغات. وكراتشكوفسكى فضل السبق فى الكشف عن كثير من تراثنا المظهور : فهو أول من اكتشف مخطوط « المنازل والديار » الذى كتبه الأديب السورى أسامة بن منقذ . بخط يده إبان الحملات الصليبية . وما يبرز أهمية هذا الاكتشاف أن المستشرق الفرنسى « ديرانبور » قضى ما يقرب من نصف حياته فى دراسة أسامة ابن منقذ ومع هذا لم يكن يعرف شيئاً عن هذا المخطوط . وإلى جانب هذا قام كراتشكوفسكى بنشر « رسالة الملائكة » لأبى العلاء وكتاب « البديع » لابن المعتز ولوحتين يروزيين من لوحات الاستغفار من مملكة سبأ ، وأقدم رسالة عربية من بلاد الصغد اكتشفت فى وسط آسيا ، و الأراجيز الثلاثة لوصف الطرق البحرية لأحمد بن ماجد ملاح فاسكودى جاما فى رحلته الأولى ١٤٩٨ من مالندى إلى الهند . وإلى جانب هذا أيضاً كتب فصلاً جديداً تمتعاً يتعلق بأحد الفروع المجهولة فى تاريخ الأدب العربى ونعنى به « الأدب العربى فى شمال القوقاز » . وكانت له صلات ومراسلات واسعة مع كثير من مشاهير الأدب العربى الحديث مثل أحمد تيبور وابنه محمود وأهين الريحانى وميخائيل نعيمة . وهو يتحدث عن كل هذا وغيره فى هذا الكتاب . هذا إلى جانب ما كتبه من مئات المقالات والأبحاث عن الأدب العربى قديمه وحديثه .

وقد سبق أن أشرت إلى هذا فى مقالة لى بمجلة « المجلة » (عدد ٨١ سبتمبر ١٩٦٣) وذكرت أن كتاب « مع المخطوطات العربية » بالذات هو فى رأى أجهل ما كتب كراتشكوفسكى . وأشرت هناك أيضاً إلى قصة ترجمتى للكتاب .

فعندما قاربت الانتهاء من ترجمته بعثت برسالة إلى الدكتور ف كراتشكوفسكايا زوجة المؤلف الأستاذة بجامعة لينينجراد وردت علي في ١٣ مايو سنة ١٩٦٢ برسالة جاء فيها ما ترجمته :

« إنني سعيدة جداً بأنكم تقومون بترجمة كتاب مع المخطوطات العربية وإنني أتمنى أن تواتني القوة حتى أرى الترجمة مطبوعة باللغة العربية . »

وعندما انتهيت من الترجمة كلها رحبت دار الطبع والنشر باللغات الأجنبية في موسكو بطبعها . وجاء في خطابها لي في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٦٢ أنها قبلت نشر الكتاب وأن نشره سيكون في عام ١٩٦٤ . ونشر الكتاب بعد أن غادرت الاتحاد السوفيتي . وبعدها سافرت إلى إنجلترا وهناك في لندن في ٢٨ يناير ١٩٦٦ ، تسلمت رسالة رقيقة بالعربية من الأستاذ بافوف رئيس التحرير المسئول بدار الطبع بموسكو وفيها يقول :

« نشكركم جزيل الشكر على ترجمةكم الموفقة لكتاب « مع المخطوطات العربية » ونستطيع عذراً لتأخرنا في إرسال نسخة منه لكم . وهكذا بادرنا على الفور أرسلنا لكم نسخة نأمل أن تستلوهوا في أقرب وقت ومرة أخرى نشكركم على مساهمةكم الحيرة في تنمية أواصر الصداقة والعلاقات الثقافية بين بلدكم وبلدنا . ونتمنى لكم شخصياً ولعائلتكم أو العافيه والنشاط الخلاق والنجاح . »

وبعدها بأيام وصلتني ثلاث نسخ من الترجمة . وكان فرحى زائداً لأن الترجمة خرجت إلى النور في حياة زوجة المؤلف وبذلك تحققت أمنية التي عبرت عنها في خطابها لي . بل وكانت فرحتي أشد عندما تصفحت الكتاب فوجدت أنها هي نفسها التي قدمت له . إلا أنني من ناحية أخرى تألمت عندما وجدت أنه ليس هناك أى ذكر لترجم الكتاب وأن هناك أخطاء فنية وأسلوبية في الترجمة ربما قلت كثيراً من قيمة العمل نفسه . ومن ثم فإنني الآن بعد عدة سنوات من صدور الطبعة الأولى في موسكو أقدم الطبعة الثانية في صورة منقحة تتلافى ما في الأولى من ماخذ . ويسعدني أن أتقدم بالشكر إلى الأستاذة ف . كراتشكوفسكايا زوجة المؤلف على تلافها بالإجابة على الاستفسار الخاص ببیت شعر لسلامة بن جندل . كما يسعدني أن أسجل شكري أيضاً للأستاذ فلاديمير ديمتشك زميلي السابق بجامعة

تاجيكستان على المساعدة القيمة التي قدمها لي سواء عند إعداد الترجمة أو في تسهيل الاتصالات بدار النشر والطبع بموسكو . وإني أنتهز هذه الفرصة لأتقدم بالشكر والتحية لأصدقائي وزدلائى وطبقي السابقين بالاتحاد السوفيتى متمنيا لهم جميعاً الصحة والسعادة والتوفيق .

وأخيراً فإننى إذ أقدم هذا الكتاب فى طبعته الثانية المنقحة إلى قراء العربية فإننى أشعر بثقة كبيرة فى تقديرهم لهذا الجهد المتواضع .

مصر الجديدة فى ٢٨/٨/١٩٦٩

محمد منير مرسى

مقدمة الطبعة العربية الأولى

إن كتاب اغتاني كراتشكوفسكى (١٨٨٣ — ١٩٥١) د مع المخطوطات العربية ، يتحدث عن نتاج هذا العالم السوفييتى المستعرب البارز ، وعن إقامته فى البلدان العربية ، وعن المخطوطات النادرة التى وجدها وقرأها ، وعن الناس ذوى الصلة بالأدب العربى ؛ وهو يلقى ضوءاً ساطعاً على مختلف مراحل نشاطه العلمى ، والإكتشافات السعيدة ، وعن خيالات الأمل أحياناً .

ولد اغتاني كراتشكوفسكى فى مدينة فيلنوس (فيلنيوس الآن ، فى جمهورية ليتوانيا الإشتراكية السوفيتية) . وبعد ذلك بقليل انتقل الأب وأسرته فى وظيفة إلى طشقند . وكان الأب يصطحبه أحياناً فى أسفاره ؛ فكانت الأوزبكيات فى قراهن يداعبن الصغير ذا العينين الزرقاوين ، وتعلم هو الكلام باللغة الأوزبكية . وهكذا ، وعلى نحو غير ملحوظ ، اتصل كراتشكوفسكى ، منذ نعومة أظفاره ، بالحياة فى آسيا الوسطى . منذ أن كان تلميذاً ثانوياً راح يدرس النحو العربى بنفسه . أما حين انتسب ، عام ١٩٠١ ، إلى كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبورغ (لينينغراد اليوم) ، فلم تعد تقتصر دراسته على اللغة العربية والأدب العربى ، بل راح يدرس لغات شرقية أخرى ؛ فهو يهتم المئات من الكتب والمجلات فى العلوم الشرقية ، والمخطوطات العربية . وحين أنهى الجامعة سنة ١٩٠٥ ، استبقى هناك للاستعداد للعمل التعليمى ، وفى عام ١٩٠٨ أرسل إلى الشرق العربى لاستكمال دراسته

ولإن البرنامج الذى وضعه كراتشكوفسكى بنفسه للدراسة فى الجامعة والرحلات إلى الشرق فى مذكراته بتاريخ الأول من كانون الثانى (يناير) ١٩٠٦ ، لبرنامج يبعث على الدهشة بسعة نطاقه وعمق تفكيره . فالمكان الأول تحتله ، طبعا ، الآداب العربية ، وبخاصة الشعر ، واللغة ، واللهجة السورية فى اللغة العربية ، ثم الكتابات الأثرية العربية الشمالية ، ولهجات الجنوب العربى ، التى اصطدم بها بعد وقت طويل (الفصل « لوحات برونية صغيرة من بلاد ملكة سبأ ») ، ويرتسم وموضوع الأطروحة — إصدار ديوان الشاعر الأوأ . ومنذ ذلك

نالحين لم يغب أبداً عن ناظر كراتشكوفسكى الشعراء العرب وعلم المعاني والبديع .
وقد كان أول تقرير على ، سنة ١٩٠٧ ، مكرسا لإبداع أبي العتاهية ،
وكان قسما من المؤلف التاريخي غير المطبوع « الخليفة المهدي » ، الذي نال عليه
الطالب اغناقي كراتشكوفسكى ميدالية ذهبية لدى تخرجه من الجامعة . وأن سعة
الإطلاع الكبرى لدى كراتشكوفسكى كمؤرخ وخبير بالمراجع العربية لظاهرة ،
مثلا ، في دراسة « رسالة من بلاد الصغد » النادرة المكتوبة على الجلد التي عثر
عليها بين أنقاض قصر على جبل موغ . وعلى أثر المقالة الباكورة ، سنة ١٩١٠ ،
المتنبي وأبو العلاء ، صدرت أبحاث مكرسة لدرهين المحبسين ، أبي العلاء ، والشنفرى ،
وغيرهما من الشعراء ، كسلامة بن جندل (الفصل ، رسالة ماجستير غير مكتوبة) .

كان اللقاء الأول مع العرب على الباخرة ، في طريق كراتشكوفسكى إلى بيروت ،
في تموز (يوليو) ١٩٠٨ . ولقد كان الحديث يومذاك سقيا . ولكن ما أن مضى
أسبوع حتى كان كراتشكوفسكى قد سجل ثمانية الغاز من كلمات تليد في إحدى
القرى . وعلى نحو سريع نسبيا « شرع يتكلم » ، وتعلم لا « الشراء » فقط بل
و « البيع » . أيضا . ومع ذلك فقد كتب لشقيقته ، في كانون الثاني (يناير)
١٩٠٩ ، يقول لها أن اللغة العربية « تزداد صعوبة كلما ازداد المرء دراسة لها » .

وفي سنوات ١٩٠٨ — ١٩١٠ ، التقى كراتشكوفسكى في لبنان ، وسورية ،
وفلسطين ، ومصر بممثلي مختلف الأهلين العرب . ولقد كان يهتم بالجميع : بربابنة
الزوارق ، ونواطير الكروم ، بسواق الدواب ، ومساحي الأحذية في ضواحي
القاهرة (الفصل ، ارستقراطي القاهرة — الفلاح) ، بالتلامذة والمعلمين ،
بمشيوخ الريف ومشايخ الأزهر ، رجال الصحافة والخطباء السياسيين والواعظين
من مختلف العقائد ، وبالشعراء والكتاب . ولقد استمرت علاقات الصداقة قائمة
حتى النهاية بين كراتشكوفسكى وأمين الريحاني ، وجرجي زيدان ، وأحمد تيمور ،
ومينخائيل نعيمة ، ومحمود تيمور ، ومحمد كرد علي وغيرهم .

لقد كان المراس في مطالعة النصوص والمخطوطات العربية ، المكتسب منذ
أيام الجلوس على مقعد الطلبة ، من الرسوخ بحيث كان كراتشكوفسكى يفهم بسهولة
المخطوطات العربية التي كان يتصفحها في المكتبات الشرقية والوطنية (الفصلان :

د معاصر أول غزوة صليبية ، و د من القاهرة حتى مقبرة فولسكو فوفى بطرسبورغ) .
وقد تعرف كراتشكوفسكى على المكتبة الشرقية فى بيروت تعرفا سريعا منذ تموز
(يوليو) ١٩٠٨ . ومنذ أيلول (سبتمبر) أصبح هناك زبونا دائما . وهنا ،
فى الطابق الأعلى من مبنى جامعة القديس يوسف ، كان كراتشكوفسكى يقضى
الساعات وراء طاولة صغيرة . واضعا قدميه على مقعد خشبي ، بفضل عناية
البروفسور ل . شينخو ، إذ أن الأرض كان بلاطها من الحجر . وقد قضى هناك
شتاءين ، وهو يطالع المخطوطات . باستثناء شهرين من ربيع ١٩٠٩ وشتاء ١٩١٠ .
إذ كان يدرس مخطوطات القاهرة . ولقد كان كراتشكوفسكى يفرز بصورة صائبة
المخطوطات الفريدة ، كما حدث ، مثلا ، فى الأزهر حيث وجد مقالة أبى العلام
قبل سفره من القاهرة .

وقد استمرت البحوث عن نسخ لمخطوطات بطرسبورغ (لينينغراد) للشاعرين
الوأواء وابن المعتز فى القاهرة ، وبيروت ، ودمشق ، والقدس ، ولكن العثور
بصورة غير متوقعة على مخطوطة قصائد سلامة بن جندل فى مكتبة الإسكندرية
قد أثار تأثرا عميقا فى نفس كراتشكوفسكى . ولقد ظل بعد ذلك وحتى أيامه
الآخيرة أسفا لكونه لم يكرس أطروحة لنتاج بن جندل (الفصل رسالة ماجستير
غير مكتوبة) .

وقد انتخب كراتشكوفسكى عضوا فى أكاديمية العلوم السوفيتية ، سنة ١٩٢١ ،
ونود العرب أنفسهم بما له من فضل على العلم العربى . فقد انتخب ، سنة ١٩٢٣ ،
عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق . كما كان كراتشكوفسكى عضوا فى
الأكاديميات ومختلف الجمعيات العلمية فى جملة من البلدان الأخرى .

وبلغ مجموع ما كتبه كراتشكوفسكى ستمائة دراسة علمية . ولكن الميادين
الأساسية لنشاطه العلمى إنما كانت تاريخ ونظرية الآداب العربية ، سواء فى القرون
الوسطى أم فى العصر الحاضر . وكان أهم مؤلفات كراتشكوفسكى فى أدب القرون
الوسطى بحوثه عن الشعراء العرب الوأواء والدمشق ، وابن المعتز ، وأبى العلام
المعري . وتحت إشراف كراتشكوفسكى صدرت الطبعة الكاملة الروسية الأولى
لترجمة د ألف ليله وليلة ، . وقد ترجم إلى اللغة الروسية الأثر الأدبى العربى

الشهير « كلية ودهنة » ، وقصة « الأيام » ، للكاتبة المصرية المعاصرة طه حسين .
واهتم كراتشكوفسكى اهتماماً كبيراً بإصدار كتب مدرسية للغة العربية . أذكر
على سبيل المثال أن القادوس العربى — الروسى الأول للغة العربية المعاصرة .
للبروفسور بارانوف قد تم تأليفه بمشاركة كراتشكوفسكى وتحت إشرافه . وفى
عام ١٩٦٣ ، صدرت فى الإتحاد السوفيتى ترجمته لـ « القرآن » .

وفى أيام الحرب الوطنية الكبرى التى خاضها الشعب السوفيتى ضد الفاشية ،
فى شتاء ١٩٤١ — ١٩٤٢ القامى ، حيث كانت مدينة لينينغراد محاصرة ومعرضة
بدون انقطاع لنيران المدفعية والقصف الجوى ، قام كراتشكوفسكى بعمل عظيم
متفان فى صيانة القيم العلمية والثقافية ، وبخاصة المخطوطات العربية الثمينة ، المحفوظة
فى معاهد لينينغراد ومتاحفها ومكتباتها . ولقد قدرث الحكومة السوفيتية نشاط
كراتشكوفسكى فى ظروف حصار لينينغراد تقديراً عالياً ، فمنحته أعلى وسام
سوفيتى ، إلا وهو وسام لينين . وفى عام ١٩٤٥ نال وسام لينين الثانى تقديراً
لمآثره العلمية الفذة .

إن كتاب « مع المخطوطات العربية » قد ألفه كراتشكوفسكى أيام الحرب ،
بصورة رئيسية ، فى موسكو وضواحيها ، حيث كان المؤلف قد أجلى أثر مرض
عضال أصيب به وقت حصار لينينغراد . فمكتبته الخاصة كلها ، وجميع المواد
والمخطوطات اللينينغرافية ، لم تسكن تحت متناول المؤلف . وكانت الذاكرة
الرائعة هى العون له . وما كان كراتشكوفسكى يقتصر فى الكتاب على الإشارة
إلى المخطوطات والمكتبات . إنما كان يتذكر باقتضاب ، وليسكن بجلاء « بما يمتاز
به من حرارة العاطفة ، العلماء من رجال الساف ، ومعلمية ، وتلاهذته ، وأمناء
المكتبات ومستخدميه .

حين كان المؤلف يقرأ مقطوعات من كتاب « مع المخطوطات العربية » كان
يجتذب المستمعين اجتذاباً مراً . وقد نفذت الطبعات الخمس باللغة الروسية بسرعة
خاطفة . وترجم الكتاب إلى اللغات التشيكية ، والبولونية . والألمانية ، والانكليزية ،
والفرنسية . وكان القراء من جميع أرجاء الإتحاد السوفيتى ومن الخارج يبعثون
لكراتشكوفسكى بانطباعاتهم . بل لقد ظل ورود الرسائل مستمراً والمؤلف

لم يعد بعد في عداد الأحياء . وإن رسائل القراء لتؤلف اليوم أرشيفا كاملا .
إن الطبعة الحاضرة هي أول ترجمة كاملة لكتاب « مع المخطوطات العربية »
من الأصل الروسى إلى اللغة العربية . وهذه الطبعة تحتوى أيضاً على عدد كبير
من المواد المصورة التى لم يسبق نشرها ، وقد أخذت من أرشيف العالم المرحوم
ومن المخطوطات العربية ، المحفوظة فى لينينغراد .

فيرا كراتشكوفسكايا

١٩٦٣

مقدمة الطبعة الروسية الثالثة

إن صدور الطبعة الثالثة لكتابي هذا يؤكد أنه قد وجد لنفسه مكاناً في ثقافتنا . وعن هذا يتحدث أيضاً سيل الرسائل الذي لم ينقطع حتى الأوقات الأخيرة . كما يتحدث عن هذا أيضاً الاستجابات الآتية من مختلف أطراف بلادنا ومن ممثلي مختلف الاختصاصات ومن أناس متباينين في الأعمار والأوضاع . وتؤكد هذا أيضاً إعادة طبع بعض أجزاء الكتاب في سلسلة « مكتبة أوغونيوك » ، « الشعلة » التي تتمتع بشعبية واسعة . وشمل الاهتمام بالكتاب البلاد العربية وبلاد الغرب على السواء ويجب على القول بصراحة أنني لم أكن أتوقع مثل هذا الصدى الواسع . ولعلّ لو كنت تنبأت بذلك لكتبت بعض أجزاء الكتاب بطريقة أخرى أكثر وضوحاً وتفصيلاً . ولكن لما كان الكتاب قد « تألف » هكذا « تاريخياً » فلندعه إذن على الشكل الذي ظهر به لأول مرة وإن كانت هناك أشياء كثيرة قد تغيرت منذ تلك الفترة .

وهذه الفكرة جعلتني أخرج الكتاب في طبعته الثالثة بدون إضافات أو تغييرات جوهرية ، اللهم إلا بعض التعديلات البسيطة المتعلقة أساساً بالأسلوب . واضفت في فصل الملاحظات قائمة بأهم التقارير لكتابي وقائمة بترجماته المعروفة لي . ومع أن المواد التي في يدي غير كاملة بالطبع إلا أن هذه القائمة تبين بوضوح كاف — كما يبدو لي — أن الكتاب وجد صدى في أوساط جـد واسعة سواء عندنا أم في الخارج .

ولمّا لارى ، حين أتوجه إلى ذاكرتي مرة أخرى بعد مضي عامين على الطبعة الثانية ، أن الكتاب قد استنفذ أوضح الأمثلة عن تلك الأدوار التي لعبتها المخطوطات في حياتي . ولذلك لم تتحقق في هذه المرة أيضاً رغبة من رغبات العديد من المراسلين .

وكثيراً ما وجه إلى سؤال وعتاب عن السبب في أنني لم أتذكر (في هذا الكتاب) ذلك العالم أو غيره ممن عرفت أو تحدثت عنهم في أماكن أخرى .

ولماذا لم أكتب أى شيء عن بعض الوقائع فى تاريخ حياتى العلمية ! وكانت لإجابتى من قبل والآن إجابة واحدة هى أن الكتاب لا يستنفد إلى حد بعيد كل ذكرياتى سواء أكانت عن الناس أم عن أعمالى ، وأننى لم أتعرض فيه إلا لأولئك الذين قادتنى إليهم المخطوطات أو الذين كانوا متصلين بها عن قرب . وليس من الممكن إطلاقا اعتبار الكتاب انعكاسا لكل حياتى وكل ذكرياتى . ولذلك فإننى عدلت فى هذه الطبعة الجديدة عن الرغبة فى إضافة فصول عن أناس آخرين ووقائع أخرى فى حياتى ، حتى لا أخل بالمحور الرئيسى والشكل المحدد للكتاب .

ولقد كان أمثال هؤلاء الناس وهذه الوقائع عديدة وأن كثيرا من الأشياء التى لا توجد عنها فى هذا الكتاب أية كلمة لعزيزة على نفسى بمقدار تلك الأشياء التى تحدثت عنها فيه . ولقد شعرت طيلة السنوات الأخيرة كيف أن وجوه الراحلين من « المعلمين والتلاميذ » ترسم أمام ناظرى بوضوح واصرار تطلب بسلطان مطرد تجسيبها فى كلمات وهى تسيطر على إرادتى كما سيطرت عليها المخطوطات فى الفترة القريبة . وقد لقي وضع كتاب عن المخطوطات الاعتراف به وأظهر أن فى وسع الحديث عن الأمزجة والانفعالات الشخصية دخول تيار الثقافة العريض . ولقد بدا لى أنه لا بد من الاستجابة لأصوات أخرى تعلن بقوة عن حقها فى ذاكرتى .

ولعل كتاب الذكريات القادم سيكون — إذا سمحت قوتى — اهداء إلى « المعلمين والتلاميذ » .

لينينغراد

نيسان (أبريل) ١٩٤٨

مقدمة الطبعة الروسية الثانية

لقد واثى الحظ هذا الكتاب : فقد كتبت في سنوات الحرب القاسية ، إلا أنه صدر في الأيام المشهودة من آيار (مايو) ١٩٤٥ ، حين استقبلت البلاد كلها باحتفال ، النهاية المظفرة لبطولات أعوام الحرب . وكان الشعور جد قوى بالرغبة في الجهد السلمى ومواصلة العمل الذى انقطع في مجال البناء الجليل لثقافتنا . وقد رحب بهذا الكتاب ترحيبا وديا حتى من كان في حياته بعيداً عن المخطوطات العربية ، ومن لم يفكر من قبل مطلقاً في علم اللغات والآداب الشرقية . وأظهرت الرسائل والتقريظات طيلة نصف عام أن الطبعة الثانية ضرورية وأن الكتاب قد وجد لنفسه مكاناً في ثقافتنا المتسعة . وكان إعداد الطبعة الثانية لا في المكان الذى نزلت إليه (زمن الحرب) بل في مكتبتى بين الأصدقاء القدامى ، أعنى المخطوطات والكتب التى تحملت ويلات حصار لينينغراد . وعندها استطعت أن أتأكد من صحة التراخي وأن أصبح ما ليس مضبوطاً في الاقتباسات إذا كانت قد خانتني الذاكرة ، وأن أوضح بعض التفاصيل الجزئية .

ولقد أضفت إلى الكتاب فصلين هما الثالث والسابع اللذين كتبتهم في ظروف أخرى بالنسبة للطبعة الأولى . وأنى أشعر بأن أسلوبها لا يشبه أحياناً أسلوب الفصول السابقة . فقد يكون في أحدهما كثير جداً من الاقتباسات والوثائق التى أمكننى بلسانها التحدث عن نفسى بطريقة أسهل من كلماتي الخاصة . ولقد أردت أن يرى في كتاب عن المخطوطات العربية صوت أصدقائنا الكثيرين في البلاد العربية سواء في الماضى أم في الحاضر .

وما خشيت من عدم محافظتى على الترتيب الزمنى في الفصول التى ألفت في أوقات مختلفة ومن عدم توفر الوحدة الكاملة في طريقة العرض أو وجود التكرار أحياناً . فالحياة بين المخطوطات لها أيضاً أشكالها المتنوعة الوجوه كالحياة بين الناس . ولهذا فن غير اللازم أعطاء ترتيب دقيق أو شكل خارجي منظم للذكريات عن هذه الحياة بين المخطوطات . وقد كتب كل فصل على حدة . وكل فصل يحمل

طابعا مستقلا بذاته . وإذا كان أحد هذه الفصول يضيف شيئا ما إلى الفصل الآخر أو يتداخل معه مرارا في التفصيلات فلا يلومنى على هذا من سيقرا الكتاب مجزءا .

ولانى لجد شاكر لكل من استجاب بكلمات خيرة وبتمنيات طيبة للأفكار العزيزة على فى هذا الكتاب . فقد ظهر الفصلان الجديدان إلى حد ما كاستجابة لبعض الرغبات ، وما أنا بملوم على أننى قد حافظت على المحور الرئيسى للكتاب : ففى كل مكان فيه انطلقت من الذكريات عن المخطوطات والكتب ، وفى كل مكان لم أتحدث إلا عن أولئك الناس الذين قادتنى إلهم على طريق حياتى المخطوطات والكتب ، قديمها وجديدها ، عربها وروسها .

لينينغراد

كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥

افتتاحية

أرجو أن لا ينظر إلى هذا الكتاب على أنه مذكرات شخصية لل المؤلف . فإننى لم أكتب هذه المذكرات عن نفسى ، وإنما عن المخطوطات العربية التى لعبت دورا كبيرا فى حياتى ، والتى شاء لى الحظ أن أصادفها ، أو التى شقت طريقها إلى دنيا العلم بى يدي .

وكثيرا ما استدعت تلك المخطوطات من ذكريات عن المكتبات المختلفة التى اختزنتها ، وذكريات عن أولئك الناس الذين ارتبطت بهم ، وبالطبع فإنه كثيرا ما استدعت من ذكريات عن نفسى . ولكن ما كان هذا كله بالأمر الرئيسى . فلقد أردت قبل كل شيء أن أظهر ما يشعر به العالم فى دراسته للمخطوطات ، وأن أكشف قليلا عن تلك المشاعر التى تثيره ، والتى لا يتحدث عنها مطلقا فى أبحاثه الخاصة ، بل يقتصر على بسط النتائج العلمية التى استخلصها . لقد أردت أن أتحدث عن عملى المكتبى بأفراحه واتراحه التى لا يعرفها الكثيرون البتة إذ يعدون هذا العمل مملا وجافا وانعزالا عن دنيا الحياة .

وقد يرى الناس فى حديثى فيضا من العاطفة والرومانتيكية ، إلا أنى لا أخاف هذا اللوم : فهكذا عشت فى عملى وهكذا كانت ذكرياتى عنه .

إننى لم أتعمد فى هذا الكتاب السعى إلى تبسيط العلم ؛ فلا يهمنى ألا يتذكر القارئ جميع ما ورد فيه من الوقائع المنفردة ؛ أو أسماء الأعلام . ولكنى اقتصرت فى تحديد مادة الكتاب على المواد القريبة من محيط عالمى الذى أعيش فيه ، وإننى لا أكتب الآن للمرة الأولى عن أشياء كثيرة وأخرى متعددة بطريقة تختلف عن ذى قبل . ولهذا قد يجد القارئ من حين لآخر فى هذا الكتاب أشياء جديدة ومفيدة للعلم . على أن هذا ليس ما يهمنى من الأمر . وإنما الذى يهمنى هو شيء آخر . إننى لا أخفى أنسى أردت أن أقوم بشيء من الدعاية لميدان عملى ؛ وأن أتحدث بملء صوتى عن علم اللغات والآداب الشرقية . لقد أردت أن أبين قدر طاقتى كيف أن ثمة أناسا يعملون فى هذا الميدان لا مجرد أن لديهم ذوقا ذاتيا ؛ غريبا على حد ظن بعضهم ؛ يجتذبهم إلى هذا العمل ، وأن هؤلاء الناس

يطوفون بهذا الميدان لا بدافع الروع بالغرائب وأنهم ليسوا بزهاد ينزلون عن الحياة . إن ذكريات مشاعري نحو المخاطرات تحتم على أن أتكلم عن كل نقطة تفصيلية فيها لأنها تتكامل فيما بينها وترتبط بمسائل ضخمة تتعلق بتاريخ الثقافة وجميعها تصب ، آخراً المطاف ، في تيار قوى نحو مثل الإنسانية الرفيعة .

هذا هو ما كان يستحوذ على فكري دائماً وأتني أود أن تجد هذه الأفكار الطريق إلى عقول وقلوب من سيقروون هذا الكتاب .

أول آب (أغسطس) ١٩٤٣
مصحح د اوزكويه ،



الأكاديمية ١. يو كراتشكوفسكى (١٨٨٣ - ١٩٥١) فى صيف ١٩٤٩ .

١ - فى قسم المخطوطات

(إهداء إلى آ. آ. بيتشكوف)

تمهيد

(١٩٠١)

فى بداية هذا القرن ، سنة ١٩٠١ ، عبرت برعشة وإجلال عتبة المكتبة العامة فى بطرسبورغ المرة الأولى . وكنت آنذاك طالبا فى الصف الأول مازالت تستحوذ عليه الانطباعات الحية التى تركتها فى القصة التحريرية القديمة لموردوفتسيف «معالم العصر» ، حيث تضمنت إشارات كثيرة إلى تلك المكتبة العامة ومديرها بيتشكوف . ولو أننا جمعنا كل ما كتب عن مكتبتنا فى مؤلفات أدبية فقط لأصبح لدينا كتاب ممتع مفيد يصور بوضوح حياتنا الاجتماعية ، قصة كفاحنا من أجل حرية الفكر فى صور ملوثة أحيانا بروح حماسية عالية وأحيانا أخرى بتراجيديا عميقة .

والآن وبعد أربعين سنة من زيارتي الأولى لتلك المكتبة العامة أدخل إلى اللقاعات المهيبة بقسم المخطوطات وأرى خازنها العجيب واسمه لا يزال بيتشكوف ذلك الإسم الذى كان يعرفه جيدا جيل آبائنا وأجدادنا ، وأحسن فى صدرى حماسة رائعة وأشعر عظم الأعمال التى تحقق فيها .

ولنا نحن المستشرقين ، كان قسم المخطوطات دائما ومازال مدرسة نادرة . دخلناه ونحن طلبه شبان خجلون وفيه قمنا بأبحاثنا الأولى . ومازلنا نزوره شيئا بعد مرور عشرات الأعوام ، للدراسة مع تلامذتنا ونوجد إليه تلاميذ تلامذتنا .

وبين هذه الجدران المرتفعة الصارمة إلى حد ما ، ولدت مؤلفات ورسائل لا يمكن أن تحصى أو تعد وتحقيق كثير من الاكتشافات العلمية البارزة حين دقق بعضهم النظر فى إحدى تلك المخطوطات المبعثرة ثم تراءى إلى الوراء على كرسية ليتأمل ما عرضه من الأفكار ، قد يحس بفكرة جديدة غير متوقعة . وعندئذ

يشعر بانفعال يغمره بهجة العالم العظيمة . ذلك أن عملية الإبداع العلمي عززت وحيية إلى نفس كل عالم سواء في ذلك من يقف في المختبر ، أو من يدقق النظر في المخطوطات الملقاة على تلك المنضدة .

كان كل شيء هناك يحفز على العمل ويجعل الإنسان في الحال منغمساً في جوهه .. فكان يصعب علينا أحياناً أن نصدق أن ثمة خارج جدران المكتبة حياة تضطرم في الشارع بجلبتها وضوضائها . فهنا في المكتبة صمت وهدوء كما في أى مختبر جيد . وإذا كان « نيستور المؤرخ »* في تمثاله الأبيض دائم العكوف على منضدته يكتب ويسطر دون تعب فإن لهذا التمثال مكاناً مناسباً هنا في هذه المكتبة .. وهنا في هذه المكتبة يسير بهدوء ذلك الأمين المخلص على تلك الكنوز من المخطوطات وإنك لتجده مستعداً دائماً لتقديم المعونة والنصح والإرشاد لكل من يطلبه . وهنا تسمع في هدوء خفيف أوراق الكتب والمخطوطات على المناضد .. وهنا أيضاً ، رويداً رويداً وخطوة خطوة ، وسطراً سطرأ ، يخلق العمل العلمي الذى تخرج نتائجه من بين هذه الجدران العالية إلى تلك الشوارع المضطربة خارج جدران هذه المكتبة لتشرها صفحات الجرائد والمجلات في كل البقاع ، ولتستقر هذه النتائج أيضاً في بطون الكتب على رفوف هذه المكتبة العامة .

ولقد مرت أعوام وأعوام وتوالت أجيال العلماء ، ولكن العمل هنا يسير بلا انقطاع . وكما هي العادة دائماً تجد الأمين الظريف على قسم المخطوطات يسير بهدوء كأنما هو ملاك طيب ؛ لقد دخل عالم التاريخ والأساطير وهو ما يزال حياً . فإن ما قدده إيفان بيتشكوف من خدمات لبلاده وللعلم والعلماء كافة ليرتفع فجأة بوضوح في احتفال دن احتفالاتنا اليوبيلية ، تلك الإحتفالات التى تضيء كل الطريق الذى قطعناه كأنما هي مصباح كبير يلقى بضوئه على صفحات حياتنا وعلى أوراق تلك المخطوطات التى تركت في حياتنا أثراً لا يمحي .

* يقصد هنا تمثال مؤرخ وكاتب روسى قديم (عاش في القرن الحادى عشر — بداية القرن الثانى عشر) من نحت أنتوكولسكى . وهذا التمثال موجود في قاعة القراءة بقسم المخطوطات للمكتبة العامة ببلينينغراد .

١ - كتاب قديم

(١٩٠٦)

كنت أجلس في قسم المخطوطات وأنا بعد طالب ماجيستر حديث العهد تماماً فقد انتهيت حديثاً من دراستي بالجامعة ، وكان أمامي على المنضدة خمس ورقات من الرق هي كل ما بقي من مخطوط كان كبيراً فيما مضى من الزمن . غير أن هذه الورقات لا تقدر بضمن حتى على حالها الحاضرة أيضاً . « لأنها من مجموعة تيشيندورف ! » — هكذا كان يهمس القيم إيفان آفانا سييفيتش بيتشكوف همسا يدل على اهتمام كبير بعد إحصاء هذه المخطوطات من خزائنها الخفية في ذلك القسم . وبشعور خاص رحت أنظر إلى هذه الورقات فوجدت في نهايتها عبارة : « وكتب سنة اثنين وسبعين ومائتين بالتقويم العربي » . فقلت في نفسي : « مخطوط أكبر من عمري بألف عام » . وقرأت بانتباه عظيم في ذلك الكتاب حيث يتحاور حوار الشيطان مع الموت وأدركت لماذا لم تدرجه الكنيسة في قانونها ففي هذه المخطوطة تنعكس بوضوح قوى المشاعر الإنسانية بطريقة تخالف دستور الرهبان . ووقع بصري على توقيع كبير . « وكتب هذا المخطوط ابنا أنطونه البغدادي في دير القديس سابا واستكتبه ابنا إسحق لطور سيناء » . ومن خلال قراءتي لتلك السطور التي كتبها البغدادي ، رأيت كثيراً من الزاهدين كأنهم خرجوا من صفحات قصص ليسكوف* . ولئن كانت الصحراء قد فرقت بين البغدادي وبين أولئك الرهبان فإنها لم تستطع أن تقطع صداقة التبادل الأدبي بينهم وبينه ، ولم تستطع القبائل البدوية الجاهلية أن تقطع سبيل هذه المخطوطة ولا أن تحول دون انتقالها من فلسطين إلى سيناء .

بعد عام من ذلك التاريخ تجولت على ضفة البحر الميت وقضيت ليلة في دير القديس سابا وتبادرت إلى ذهني صور مختلفة التقت واجتمعت حولي وتذكرت قصيدة كان قد كتبها الكسي تولاستوي بعنوان « يوحنا الدمشقي » . وكان الدمشقي قد غرس هناك نخلة تقوم الآن إحدى أخلافها وحيدة في ذلك المكان لتلقي ظلاً خفيفاً على ساحة صغيرة . ولربما كتب أنطون البغدادي في ٨٨٥ تحتها هذا المخطوط الذي انتهى به الأمر في القرن العشرين إلى أن يخزن بعناية في قسم المخطوطات بمكتبتنا .

* هو كاتب روسي صور في قصصه حياة الزاهدين .

٢ - مترجم كريلوف

(١٩٢٢)

اليوم أحضر بيتشكوف مخطوطا عجيبا . وإني لشديد الرغبة في أن أفهم
بعمق موضوع علاقات العرب مع الشعوب المغلوبة في البلاد التي استولوا عليها
وأريد أن أفهم الروابط بين المسلمين والمسيحيين . وأن استوضح مسألة انتشار
اللغة العربية في سوريا . ونظرت في فهرس المكتبة فوجدت إشارة إلى إنجيل غير
معروف مكتوب باللغة العربية . وسألت بيتشكوف أن يحضره فأحضر بدلا من
ذلك ورقة واحدة كبيرة تزيد على سطح المنضدة التي كنت أجلس عليها . وفتحها
فرايت بدهشة كبيرة كلمتين مكتوبتين بحروف عربية كبيرة بحوكة تماثل الورقة
كلها . وفي تحوير حروف هاتين الكلمتين حروف وسطور كثيرة . هاتان
الكلمتان هما : الكسندر نيقولايفيتش . فاعتراني بآديء الأمر جمود العجب
والدهشة . وحين أمعنت النظر إلى هذه السطور رأيت أنها من حروف عربية
صغيرة . وفي هذه لسطور في تحوير تلك الكلمتين كتب كل الإنجيل بلغة عربية .
وسألت نفسي : وما علاقة هذا بالكسندر نيقولايفيتش بالذات ؟ . ولكن عندما
عرفت بعد ذلك من تقرير المكتبة أن هذا المخطوط جاء إلى المكتبة سنة ١٨٦٨ من
رزق الله حسون ، فهمت كل شيء . وبسرعة تجمعت في ذهني خطوط حول هذا
الرجل العجيب الذي كان خطاطا وسياسيا وشاعرا ومغامرا . . وقد كان قوميا
عربيا يخاف على حياته وهرب من تركيا إلى روسيا عبر بلاد القوقاز ولم
يكن ذلك على ما يبدو بدون مساعدة ديبلوماسي روسي في القسطنطينية هو الجنرال
بوغوسلافسكي الذي كان من قبل مراقبا على الزعيم الأوارى شامل عندما
نفي إلى مدينة كالوغا . وكان حسون قد قضى عدة أعوام في بطرسبورغ حاول
لأثناءها في بساطة أو سذاجة أن يحصل على مساعدة القيصر الكسندر الثاني في
تأسيس دولة عربية مستقلة . وفي سبيل ذلك ، على ما يبدو ، أهدى له هذا المخطوط
الذي هو عبارة عن تحفة فنية خطية .

وعندما دب إليه اليأس والقنوط في محاولته تلك ، رحل حسون إلى إنجلترا .
وهناك استخدم الهجاء اللاذع وكتابه الملتببة في الكفاح ضد السلطان التركي

وحزب تركيا الفتاة . وكان لحسون صديق كبير ، هو المستشرق بالمر الذي قتله بعض البدو في ظروف غامضة عند سيناء في ١٨٨٢ . وقبل قتل بالمر بعامين توفي حسون في انجلترا في ظروف غامضة ويقال أنه مات مسموما عن طريق جاسوس للسلطان التركي .

وقد كان حسون محباً للأدب وعالماً به . وقد زينت الكتب التي كتبها بخطه الجليل خزائن المخطوطات المختلفة ببيروت وحلب ولندن . وقد لقي حسون في بلاد الروس كثيراً من كرم الضيافة مما هز شاعريته فنظم في مدحهم بضعة قصائد كانت في الواقع شعراً ساذجاً إلا أنها صادرة من قلبه . وكذلك قام حسون بترجمة أصيلة جداً لبعض أشعار الحكمة التي نظمها كريلوف الشاعر الروسي ونقلها من الروسية إلى العربية .

٣ — معاصر هولاء

(١٩١١)

ظننت اليوم أن يتشكوف قد أخطأ وأحضر مخطوطاً آخر غير المخطوط الذي كنت قد طلبته منه .

وبالأمس عندما التقيت مع كتاب بروكلمان «تاريخ الأدب العربي» ، رجعت مصادفة أنه يشير إلى أن في المكتبة العامة ببيترسبورغ خزنت نماذج خطية لمؤرخ حلب المشهور كمال الدين . وعندئذ شعرت بالحياء والحجل وقلت في نفسي: أيعرف الأجنبي ما يوجد عندنا بصورة أحسن منا . ونحن لم يسبق لنا حتى الكلام عن هذا الموضوع . وكال الدين هذا لم يشتهر كمؤرخ أو ديبلوماسي فحسب بل كخطاط أيضاً . ويقص التاريخ أن هولاءكو الرهيب انقض على مدينة حلب موطن كمال الدين سنة ١٢٦٠ م ، وطلب من الأخير أن يرجع من القاهرة — حيث هرب — ليشغل وظيفة كبيرة هي وظيفة قاضي القضاة في سوريا .

وفي الصباح أسرع إلى المكتبة ونفسي منفعلة، وأنا لأأصدق أنه سيقع في يدي خط لرجل مشهور من عصر فتوحات المغول الكبرى . وأحضر ليتشكوف

مخطوطا حاملا إياه بما عهد فيه من سرعة وما عرف به من مسحة مكر تشوب همساته . فأخذت أتصفح أوراقه باستغراب ودهشة . إن ما بين يدي ليس إلا مجلدا لطيفا يحتوي على نماذج خطية من فترة أقرب إلينا بكثير من العصور المتأخرة . إنها من القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وقد أعجبت كثيرا ونظرت باهتمام زائد في هذا المخطوط إلى التمرينات الخطية الرائعة التي كتبت في مدينة هرات وبخارى وسمرقند . ولقد فهمت بوضوح أن ما أشاهده إنما هو أحد آثار فن الخطوط لمدرسة مشهورة في هرات بحيث لا يمكن أن نتصور وجود أى مكان في هذا المخطوط لمؤرخ حلبي من القرن الثالث عشر . إلا أنه لا تبدو فيما أشار إليه بروكلمان أية أخطاء . وأبتدأ بيتشكوف في الاضطراب والثوران وأخذ يدلل على أن هذا المخطوط يحمل الرقم المكتبي المشار إليه . عندئذ أخذت أدقق النظر باهتمام في نماذج التوقيعات التي في المخطوط وتبينت بسرعة أن بينها يتردد بضع مرات اسم كمال الدين . لكن أى كمال الدين؟ ألا يمكن أن يكون الواقع أنه من قبيل مجرد التشابه في الأسماء بين اسم كمال الدين هذا وبين كمال الدين المؤرخ الحلبي المشهور؟ وكما يحدث مرارا، أسرعت إلى اللظن في أن هذا الخطأ قد يكون خطأ العجوز «دورن» . ولكنني فتحت فهرس «دورن» وبسرعة فهمت منه أنه لم يخطئ . لأنه لم يلتبس عليه الأمر بين هذا الخطأ وبين المؤرخ الحلبي المشهور . والآن أصبح الأمر واضحا . إن بروكلمان نفسه هو الذى أخطأ وأن بيتشكوف كعادته دائما لم يقل إلا صدقا . ورجعت إلى المنزل وفي نفسى بعض من خيبة الأمل لأننى لم أحظ بمشاهدة خط ذلك الرجل المشهور ولكن ما لبثت أن هدأت عندما تذكرت أننى وبيتشكوف لم نغفل عن ذلك المخطوط النادر لكمال الدين .

على أن الظروف أسعدتني بعد ذلك . فهناك في مكتبة ليدن وجدت كتابا بخط كمال الدين نفسه كتب ببغداد في شباط (فبراير) ١٢٥٧ م أى قبل عام فقط من تدمير هولاكو لمدينة السلام .

٤ — « رهين المحبسين »

(١٩١٢)

ومع ذلك فإن العجز دورن قد وقع — والحق يقال — في الكثير من الأخطاء ، وأن كثيراً من الأشياء غير الحقيقية التي سجلتها يده الخفيفة عن مخطوطاتنا قد انتقلت من فهرسه وأخذت تسوح في كل بقاع الأرض . ولكن عندما نلوم دورن على هذا فإننا كثيراً ما ننسى أنه عمل في وقت لم يكن موجوداً فيه كتاب بروكلمان بل ولم يكن الحاج خليفة قد أكمل بعد إصدار كتابه . ومن يدرى هل أخطأونا نحن أقل من أخطاء دورن ؟ ... ونحن الذين سبقنا هؤلاء العلماء المشهورون ... ومع هذا فإن أخطاء دورن تضيف علينا السلوى أحياناً من ناحية أنها قد تيسر لنا امكانية اكتشافات صغيرة .

منذ ثلاثين عاماً رأيت في قسم المخطوطات مخطوط يضم من مجموعة من المقالات الصغيرة . ومع أن هذا المخطوط كان متأخراً لا يرجع إلا إلى بداية القرن ١٦ إلا أنه كان جميلاً في الحقيقة . فقد كان عبارة عن كتاب صغير الحجم مستطيل لكنه ليس عريضاً ، وهو يشبه في شكله مجلداً العصور . وكان مذكوراً في مصر وبشكل جميل وخط واضح نظيف . ويبدو أن ناسخ هذا المخطوط كان يعرف علم اللغة . وفي نهاية المجموعة من المخطوطات — كما يقول دورن — توجد مقتطفات استخلصت من مقالات ورسالات التبريزي النحوية . وقد قمت بقراءة هذه المقالات بسرعة وبدون اهتمام كبير . فأنا أعرف مؤلفها كرجل يحب للعمل جداً لكنه عادي نسبياً في شرحه وتعليقه . وقد ذكرت بابتسامة حياة التبريزي التي قضاها في بغداد كأستاذ في المدرسة النظامية الجديدة ، وكيف أنه بعد موته كان الناس يشيرون إلى معجم كبير قد كان حمله أيام شبابه على ظهره من تبريز إلى بلاد الشام لكي يدرسه عند شاعر وعالم مشهور أعشى هو أبو العلاء في المعرة بالقرب من حلب . ويبدو مظهر المعجم كأنما قد أصابه البلب بالماء ، والسبب في هذا يرجع إلى طيلة الفترة التي قضاها المعجم محملاً على ظهر التبريزي فاصابه العرق الذي نتجه ظهره .

ونجاة عندما كنت أنظر في الرسالة الأخيرة من تلك المجموعة شعرت أنه طريقة الكاتب لا تشبه الطريقة المدرسية الجافة للتبزيى . وشعرت وأنا أقرأها بأنها تحمل سخرية وتهكما من رجل عظيم كتبت من أجله ، لكنها سخرية مبطننة . بكلمات بلاغية ومغلقة بعبارات الاستصغار الذاتي الخارجى . وعندما دقت النظر والاهتمام في الرسالة وجدت فيها بعض الدلائل الكافية لأن أومن بأن ما أسمى ليست نبذة من رسالة التبزيى كما يقول دورن بل رسالة لأسمى مشهور من المعرة بالذات ، تلك الرسالة التى عني بحفظها تليذه التبزيى كما عني بحفظ المعجم الذى حمله على ظهره . والحقيقة أن هذه الرسالة تفيض بألوان شتى من نتاج عقل ساخر هجاء . وعلت وجهى ابتسامة من جراء ذلك الوزير المصرى مطلق السلطان الذى سمع أشياء ممتعة عن ذلك الشاعر والعالم اللغوى وأراد أن يكرمه ويدعوه إلى قصره وهو شرف طمح إليه الكثيرون ممن أرادوا الدعوة إلى قصره ، ولكن جهودهم ذهبت سدى . ولقد أرسل الوزير المصرى إلى أمير حلب رسولا خاصا يحمل أمرا يتعلق بنقل الشيخ الأسمى لكن هذا الرسول رجع إلى مصر وليس معه إلا رسالة تأسف واعتذار من أبى العلاء والحق أن هذه الرسالة قد امتعتنى . فقد كتب فيها أبو العلاء — كما هي عادته — بنغمته اللطيفة الجميلة وسخريته التى تكاد لاتبين يبلغ الوزير أنه — أبو العلاء — لا يستحق كل هذه المكانة الكبيرة وخير له وهو رهين المحبس ، (العمى والوحدة) أن يبقى فى السجن الذى دخله عن رغبة وطواعية . وإنه يصعب الآن أن نقول ما إذا كان الوزير صاحب النفوذ قد فهم كل ألوان السخرية الرقيقة التى تنتشر فى ثنايا الرسالة أم لا ؟ فقد أمر الخليفة الفاطمى فى مصر بقتل هذا الوزير فى تلك السنة نفسها .

وهكذا وجهنى الخطأ فى فهرس دورن مرة أخرى إلى أبى العلاء صاحبى القديم الذى منحتنى مخطوطاته سرورا ومرتعة فى طريق الحياة ، والذى صاحبتنى مؤلفاته فى القاهرة وفى ليدن وعلى شاطئ البحر الأسود بل وفى الاوقات المختلفة التى لم تصاحبنى فيها كتب أخرى سواها .

٥ - من صقلية إلى بطرسبورغ عبر إيران
(١٩٢٩)

في المخطوط الذي أنامى ورقة ماصقة — كما هي العادة الطيبة — تحتوى على وصف أولى لمضمون المخطوط كتبه المدير السابق لقسم الاستشراق في مكتبة بطرسبورغ. والواقع أن هذا الوصف تنقصه القوة والجمال معا. فهو لا يذكر عن المخطوط سوى أنه كتاب في الجغرافيا يحتوى على خرائط شكلها غريب يرد فيه، فيما يرد، ذكر الروس. وفي أسفل هذه الورقة الوصفية وبخط شخصي مثنى ومائل وبقلم فيكتور رومانوفيتش روزن الذي كانت دائما تلك عادته في الكتابة — كتب: « هذا مخطوط الأدريسى ! ». ومن هذه الإشارة القصيرة يبدو انصباب غضب روزن على كاتب ذلك الوصف الضعيف، الذي لم يعرف هذا الأثر المشهور. وهذا المخطوط تمتع بجد ذاته: ففي تسعينيات القرن التاسع عشر اشتراه من طهران السكولونيل كوساغوفسكى الذي كان رئيس لواء « قوزاق » وهو لواء لم يترك وراءه إلا كل ذكرى سيئة. وحدث أن وقع هذا المخطوط في يد رئيس الأركان العامة الذي رأى أن المكان المناسب له هو المكتبة العامة ببطرسبورغ حيث خزنه بيتشكوف باهتمام شديد.

ولقد كان الطريق الذي قطعه المخطوط طويلا، أما كيف وجد في إيران، فهذا ما لن نعرفه في أغلب الظن. وقد كتب المخطوط بخط مغربي جميل وبه خرائط رسمت بطريقة أصيلة جميلة، وهي في الواقع أثر رائع جداً لطريقة رسم الخرائط في أوروبا في القرن الثاني عشر. ويجب ألا يخطر بالذهن عندما أشير إلى أنها طريقة أوروبية أنها زلة لسان، فثوائف المخطوط وهو الأدريسى ينتسب إلى الأمراء المغاربة وقد عمل في قصر ملك صقلية النورمانى « روجير » وكان الأدريسى قد جمع قصصا من التجار العرب والاسكندريين والسلافيين. فهو لم يعرف بطليموس. فحسب بل وأوروسى أيضاً.

وبالطبع فإن مخطوطنا هذا ليس بخط المؤلف ولكنه، بحسب الوقت الذي كتب فيه، يمكن أن يكون نسخة من المخطوط الأصيل للأدريسى. وعبر الأيادى الكثيرة في إفريقيا آسيا وأوروبا. تنقل هذا المخطوط قبل عهده بالاطمئنان الذي.

لقيه على رفوف قسم المخطوطات، ولما كنا لا نعرف مكان النصف الأول من هذا المخطوط ولا أين بقي طول الطريق الذي قطعه؟ وهل بقي هذا النصف سالماً أم لا؟ والمخطوطات أحياناً تعيش أكثر من الإنسان، فتدوم العصور على النصف الضائع في مكان ما على نحو غير متوقع. وعندئذ سيسجله بروكلمان المستقبل في فهرسه بكل عناية لكنه ربما لن يعرف في البداية أين يحفظ نصفه الآخر...

خلاصة

(١٩٤١)

المخطوطات تحيطني . وفي ليالي السهاد ووقت المرض حين تصيب الحمى رأسي ، وحين لا يستطيع عقلي أن يتحكم في افكاري في كل هذه الاوقات تحتشد المخطوطات حولي بتواضع كأنما هي خائفة فتقترب مني على استحياء . فأسمع في رفرقتها أصراتاً هادئة تناديني : « ألم تدنسنا ؟ ألن تباعد عنا ؟ أتذكر كيف أعدتنا إلى الحياة ؟ وكيف أنك دقت النظر باهتمام في سطورنا البالية المظموسة ؟ وكيف أنك فتحت معاني تلك السطور رويداً رويداً ؟ وكيف دقت النظر أيضاً في تلك المخطوط التي كتبت بسرعة أو بصورة غير جذابة . وكيف أنك عرفت منها قصة حياتنا فجأة ، في الوقت الذي كان يلفح ظهرك فيه برد خفيف يثير الانفصال ؟ وعندما كان يلعب أحد الأسماء في عينيك ، فإن ذلك كان يعطينا مكاناً في الحياة الماضية، وها نحن من جديد قد استعدنا الحياة إلى الأبد وقد كنا من قبل مطروحين تحت الأرض أو في الصناديق المدسية مئات الأعوام . »

المخطوطات تحتشد حولي من كل طرف وجانب . بعضها أوراق رقية صفراء تحمل حروفاً كوفية واضحة وبعضها ، يحتوى على كتابة بطيئة لرهبان سيناء . بعض نسخها فاخرة ذات صفحات لامعة من الورق الشمعي جلبت من مكتبات سلاطين المماليك ، ونسخ أخرى فقيرة متواضعة ، لكنها آثار علماء لا تقدر بـشئ . بعض هذه المخطوطات تسجيلات لتلاميذ هؤلاء العلماء ، وبعضها الآخر صفحات مكتوبة بخط يد جميلة ولكنها باردة لا روح فيها ، خطها يد النساخين المحترفين . بعض أوراقها نظيفة كأنما هي قد خرجت لتوها من يد أول صاحب لها ، وأخرى أصابها الهيب الحريق والفرق في الماء دليل الكوارث والمصائب

التي لم ترحم لا المخطوطات ولا البشر . من هذه المخطوطات ما ضاعت صفحاته الأولى وبعضها ما ضاعت صفحاته الأخيرة فهي أشبه بذوى العاهات تماما . وكأنما هذه المخطوطات تنظر إلى الناس تشكو كربها وتعرض آلامها لتشهد الناس على تلك الجرائم التي راتكبت في حقها . وإنه ليؤلمني أن أنظر إلى جراحها المعزقة .

المخطوطات حولي تحيطني وتهمس بي : ألم تنسنا ؟ هل ستأتي إلينا ؟ إنك حقا أعدتنا للحياة ولكننا أعطيناك ثمن ذلك مضاعفا مائة مرة . أتذكر كيف كنت تقبل علينا سواء في ساعات الملل أو ساعات همك وتعبك ؟ لقد لمست في صفحاتنا الأصدقاء المخلصين الذين يتلقونك دائما بسعادة وسرور . أولئك الأصدقاء الذين لا يستطيع أحد أن ينزعهم منك ، حتى الموت نفسه لا يملك سلطانا عليهم . إن فصولا بأكملها من التاريخ كانت مجهولة ثم انفتحت لك وإن كثيرا من الشخصيات قد خرجت من صفحاتنا وكأنها حية وتجسدت أمامك فرأيتها رؤية العين . . .

المخطوطات تهمس ، وأنا أدقق النظر فيها باهتمام . أتعرف عليها فتعلو شفقي ابتسامة ويكتسى وجهي سرورا . إن هذه الصفحات هي صفحات حياتي أنا ، وهي صفحات حياة الآخرين . إنها صور واضحة للماضي ، ولن يخفيها بعد الآن ضباب العصور .

٢ - جولات في الشرق

١ - الكتب والناس

(بديل المقدمة)

(١٩٠٨ - ١٩١٠)

كانت بداية عام ١٩٠٨ بداية كثيفة محزنة بالنسبة لى . ففي شهر كانون الثاني (يناير) توفي أستاذى ف . ر . روزن ، وفى إبان حياته لم أع كيف أنه عملى معه مدة سنتين قد ربطتني به . والآن يستحوذ على مشاعرى كلها التفكير فى أمر وفاته . وخيل إلى أنى ملق لوحيدى فى غمار العلم والحياة . ولست المفجوع الوحيد بهذه الرزية: فقد ظل يقاسمها تليذه الأقدم المتخصص بالفارسية جوكوفسكى. طوال حياته . وكذلك سلفى شميدت غرق فى يأس شديد لعدة أعوام كان من العسير إخراجه منه . ولقد تعكر مزاجى بسبب مرض غريب يشبه السعال ، لم يستطع الأطباء أن يحدوه ، وكان المرض يصيبني عدة مرات كل يوم بهزة تكاد تفقدنى شعورى . وكنت فى شبانى لا أحب التحرك أو الانتقال ، ولكنى رأيت الآن أنه يجب على أن أغير هذا النظام فى حياتى . وظللت منتظراً بفارغ صبر رحلة إلى الشرق كان المرحوم روزن أبان حياته قد اقترح على القيام بها .

أما كيف ستكون هذه الرحلة إلى الشرق فهو أمر غير واضح لى . وأما إستعدادى للرحلة فقد تبلى بدراسة اللغة الفرنسية فحسب . وهى لغة لم يكن لى من قبل أية ممارسة لها . وقد حاولت أن أتروذ بمعلومات قد تكون مفيدة لى فى هذه الرحلة . فسألت وراجعت معلم اللغة العربية فى جامعتنا وهو من أبناء طرابلس فى الشام ، لكننى لم أحصل على فائدة. ذلك أنه أخذ يقص على كيف يقوم الرجال أثناء توقفهم فى مراحل الطريق بطبخ نوع من الطعام يشبه « العصيدة » وهى تصنع من القمح . وكان أكثر حديثه كعاداته بطريقة تهكية على مواطنيه . وأخذ يعجب منى ومن رغبتى فى السفر إليهم وهناك الحشرات التى تأكلى . وبعد تجارب فاشلة فى مجال إستعدادى للرحلة تحاشيت الناس وتجنبتهم أكثر فأكثر ، ولجأت.

من جديد إلى وحدتي واستقراري في مكتبة الجامعة حيث كنت أجلس لافي الصباح فحسب بل وفي المساء أيضا في تلك الأيام التي كانت المكتبة فيها مفتوحة . وهنا في المكتبة كنت انسى كل شيء ، فقد كنت في حالة تشبه التخدير لكثرة ما تناولته من الكتب الاستعرائية، تلك الكتب التي أردت — بسبب حدائتي — أن أحتضن منها ما كتب طوال ثلاثة قرون .

ومر نصف عام وأنا على هذه الحال من الفتور الكئيب ، وكان لابد لي من السفر . أما كيف سأسافر فهذا أمر غير واضح لي كما هو الحال من قبل . فقد كنت في ذلك الوقت لا أعرف إلا خطا حديديا واحدا هو الذي يربط بين سانت بطرسبورغ وفرصوفيا . ولم يسبق لي من قبل أن زرت المدن الكبرى اللهم إلا فيلنوس وبطرسبورغ . بيد أن ضيق صدري قد ولد في نفسي عدم اكتراث بما هو آت .

ولقد شاهدت أممي أوديسا والقسطنطينية وأزمير تتلألا في الظلام . وفي شهر تموز (يوليو) وصلت إلى بيروت . وهناك واجهتني خيبات أمل كثيرة وفي مقدمتها ما يتعلق بنفسى . فمع أنني أعرف اللغة العربية الفصحى إلى درجة لا بأس بها نسبيا إلا أن ذلك كان قليل المنفعة بالنسبة للغة العامية التي كانت كل فكرتي عنها هي من بعض التسجيلات عن الأدب الشعبي . وكان الناس في الشوارع لا يكادون يفهمونني . وكنت أنا أيضا أفهم لغة التخاطب السريعة بصعوبة كبيرة . ولكن لابد لي من التكلم ، فقد كان هذا أحد أهدافي من الرحلة . وكان من الضروري أن أحقق هذا الهدف بأي ثمن كان . فقررت أن أسافر لمدة شهرين إلى بلدة صغيرة في لبنان حيث لا يمكن أن أسمع هناك أية لغة أخرى سوى العربية .

وهناك وجدت طبيعة جديدة وبشرا جددا . وهناك أعجبتني الناس وعشت في دنياهم ، وتباعدت عني الكتب على ما بدا لي . وهناك سعيت لقضاء كل وقتي بين الناس رغبة في ممارسة لغة التخاطب . ووجدت بين اللبنانيين اناسا اجتماعيين كانوا ينظرون إلى وحب الاستطلاع يملأ نفوسهم . وفي كل مكان كانوا يستضيفون ذلك الموسكوبي الغريب بنفوس راضية مبتهجة . ولكنني انطوائت ولا أميل إلى الاختلاط بالناس . لذلك كانت مسألة المعاشرة أمرا صعبا بالنسبة لي .

« انك تشتري ولا تباع . انك تسمع فقط ولستك لا تتحدث ، — هكذا كان يقول لي الأصدقاء الجدد بنبرات عنائية . لكنني لم استطع تغيير طبيعتي . الأنطوائية . ومن جديد ابتدأت اشعر بالتعطش إلى الكتب . انني أشعر بحرية مع الكتب أكثر مما مع الناس . ولستك الكتب كانت قليلة . وقضيت اوقاتا . أكثر من اللازم مع الكتب الباقية في مكتبة ذلك الدير الذي اسست فيه مطبعة ، هي من أوائل المطابع في البلاد العربية . وصرت اتصيد بعطش كل كلمة مطبوعة واقراء الجرائد الصغيرة من اول كلمة إلى آخرها وكانت تلك الجرائد تتكاثر انذاك لا كل يوم وإنما كل ساعة وذلك بسبب الثورة التي حدثت في ذلك الوقت والتي قام بها حزب تركيا الفتاة . ان هذه البلدة هي كغيرها من بلدان لبنان يربطها بأمریکا من هاجروا اليها من ابناءها . وهنا وبمناذج مازالت قليلة في ذلك الوقت ، اطلعت للمرة الأولى على الأدب السوري الأمريكي « ادب المهجر » الذي كتب لي ان اكشف عن وجوده لاوروبا فيما بعد . وبسرعه اسرني كل ذلك . وراح يتناوبني من جديد صراع نفسي بين حبّي للكتب وبين ضرورة اختلاطي بالناس لتعلم لغة الحديث . والمهم في نتيجة ذلك الصراع هو انني تعلمت اللغة العامية ولكنني بقيت كما كنت من قبل لا احب « ان اباع ، وافضل » ان اشترى ، .

انقضى على شتاء ان في بيروت وأنا في جامعة القديس يوسف وهي نصف فرنسية ونصف عربية . وكأنا هنا في الجامعة قد تساوت كفتا الميزان بين الكتب وبين البشر . ومن قابلتهم من الناس هنا لا يعرفون من أمر حياتهم إلا الكتب والعلم فتقاربت معهم بمزيد من السهولة . يا لهم من علماء مشهورين سواء الأوروبيون منهم أم العرب ! فمنهم المؤرخ اللامع والمحاضر الماهر لامنس وهو بلجيكي المولد . والفرنسي رونزال باحث اللهجات العربية الدقيق الذي يخزن في نفسه كثيرا من الوان الفكاهة . وحقيقة أمره يملؤها من الداخل تألم مجهول السبب . وإلى جانب رونزال يوجد آخر بدين الجسم لكنه سريع الحركة تعلو وجهه دائما البشاشة والترحيب . وتجده دائما يحمل في يده تجارب الطبع من مجلته (المشرق) — ذلك هو شيخو الذي ولد في مدينة ماردين في أعالي ما بين النهرين بالعراق . وأحسن ما يوصف به أنه يمتص الأدب العربي كما يمتص الأسفنج الماء . وإذا ما سئل أجاب بمقال كامل معدّ عنده على الدوام . ومنهم صديقه الدمشقي الصالحاني وهو رجل

نحيف تعلو وجهه الجدية والرزانة. وهو عالم ماهر في الشعر وفي ألف ليلة وليلة..
وقد استمر في الأعوام التسعين من عمره وما بعدها في دراسة شاعره المحبوب
الأخطل الذي كان صديق يوحنا الدمشقي في الشباب .

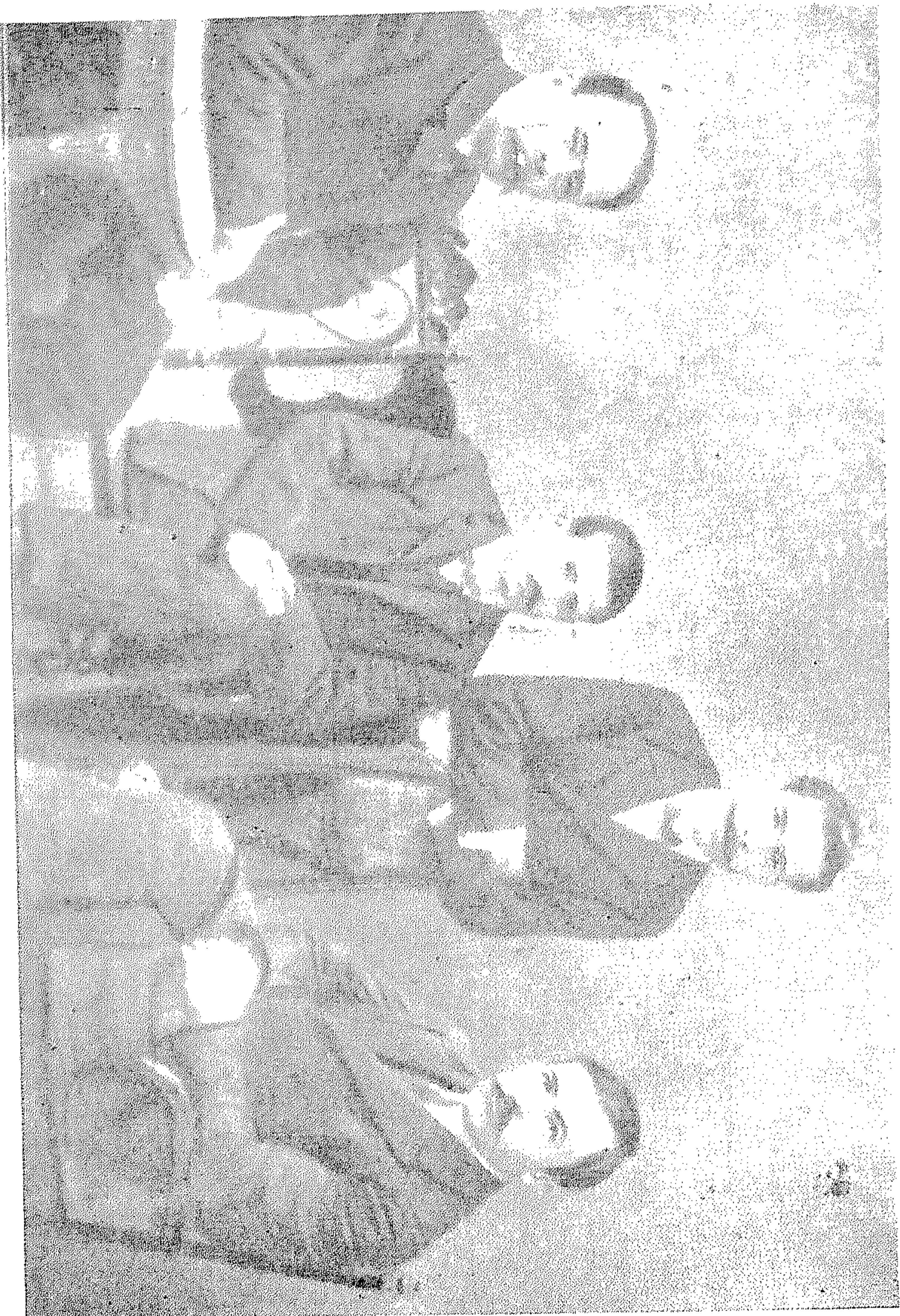
وأحيانا كان يسافر إلى بيروت بدخ المستشرقين من الغرب لكن زيارتهم
لها كانت خاطفة تشبه مرور الشباب بالنسبة لزدلائهم في بيروت . وها هو مارك
ليدزبارسكي عالم الخطوط الأثرية. ذلك الرجل الغريب نوعا الذي توجه إلى مدينة
تدمر ليدرس الخطوط الأثرية هناك، لكنه خاف من ركوب الخيل والجمال ورجع
لتوه من بيروت إلى أوروبا . وهذا عالم آخر في اللغات السامية يدعى غوثهيل
الذي كان بطبعه متأمرا كاملا ويميل بدخ الشيء إلى الإعلان والدعاية عن نفسه.
والعالم البلجيكي بيترس الذي كان أول شخص في أوروبا اكتشف موهبة مارو الذي
أحب دوستويفسكي كثيرا وقرأ مؤلفاته في صورتها الأصلية. وقد تعرفت بيترس
وكذلك بالإيطالي نالينو الذي عشت معه فيما بعد مدة شهر في القاهرة وكنا نساكن
في فندقين متقابلين على جانبي أحد شوارعها. وصرت اتراسل معهما وحدهما طوال
سنتين . كنت من قبل أحسب نالينو متخصصا في علم الفلك العربي فقط ، لكنني
دهشت عندما لمست معرفته الواسعة بفروع الأدب العربي المختلفة ومهارته الفائقة
في محاضراته التي كان قد القاها باللغة العربية في الجامعة المصرية .

لقد ظل هؤلاء الناس محبو الكتب كعادتهم شأنهم شأن العرب الذين جمعني
بهم الصدق والمقادير . وهذا هو زيدان الكاتب الروائي والمؤرخ والصحفي .
كان في ذلك الوقت قد وصل إلى أوج شهرته لكنه مع هذا كان لا ينسى أنه قد
أغلق في وجهه طريق العودة إلى وطنه . وكانت الدموع تترقق في عينيه عندما
سمعتني أتحدث باللهجة السورية لهجة وطنه . ولقد دفعني الصدفة إلى اكتشاف أحد
نجوم الأدب العربي الصاعدة هو الريحاني الذي كان شرفه ومجده — كأحد رواد
مدرسة الأدب الحديث : المدرسة السورية الأميركية (المهجر) — ما يزال
طى المستقبل آنذاك. لكن ظهره غير العادي كان يوحى الوهلة الأولى بموهبته.
الضخمة . ولقد كان من الصعب أن نتنبأ بما يعد القدر للكثيرين من أولئك الذين
التقيت معهم . وهذا المعلم المتواضع قسطنطين يني الذي أعجبت بدوره المسرحي
الماهر الذي لعبه على مسرح إحدى المدارس في حمص ، ثم شاء القدر بعد ذلك أن

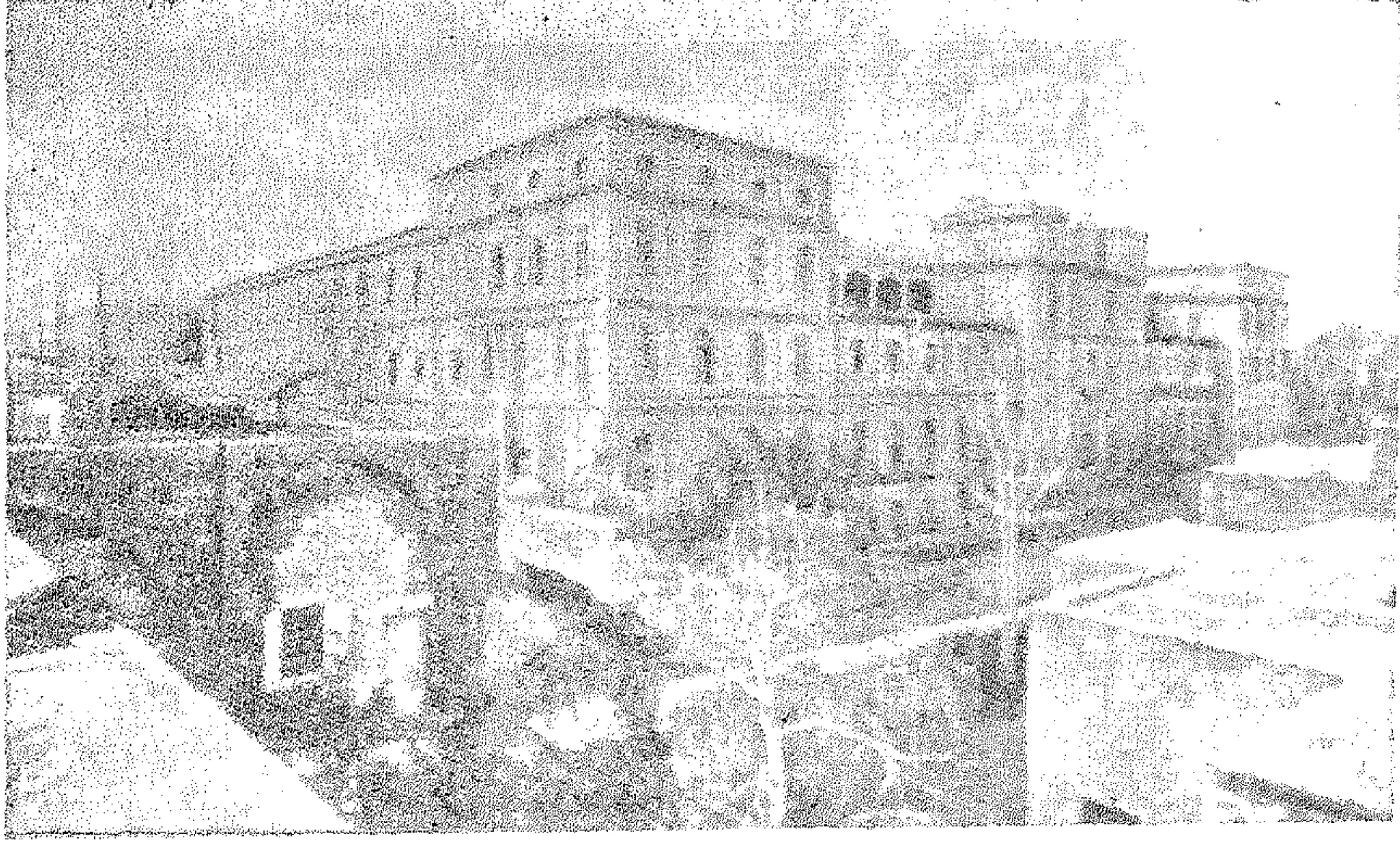
يكون المسؤول عن تنظيم سلاح الطيران الخاص بالشريف حسين الذي صار فيما بعد ملك الحجاز . وهذا محمد كرد علي محرر إحدى الصحف الدمشقية الصغيرة قد صار بعد الحرب العالمية الأولى رئيساً للجمع العلمي العربي . وفي الصيف عندما غادرت بيروت ورحلت إلى أما كن أخرى سواء في لبنان أم جبال اليهودية المقبضة أم في وديان الجليل المستوية السهلة كنت أشاهد بعيني عدداً أكثر أيضاً من أناس يثيرون الاهتمام بهم . فهناك كان معلو القرى وصحفيو المدن الصغيرة ومراسلو الجرائد . وأطباء القرى كل هؤلاء قابلوني هناك بود وترحاب وكنت منذ زمن بعيد قد تخلصت من الصعوبات التي كانت تواجهني في الكلام . وكان الحوار بيننا يستغرق عدة ساعات بعد أول لقائي بهم . وكانوا جميعهم يتأججون والثورة تتقد في نفوسهم ، وفي خيالهم حلم بالتححرر الوطني . وفي الوقت نفسه كان الأدب الوطني يستقطب جميع ميولهم . وكانوا ينظرون بحب وإجلال إلى آثار الماضي من ذلك الأدب ، تلك الآثار التي ماتزال حية بالنسبة لهم .

وهناك أصبح بيننا لغة مشتركة وكلنا يفهم الآخر . وأحياناً رحت أنا أيضاً « أبيع » لا بالكلام الشفهي فحسب بل وبالتحرير والكتابة في المطبوعات . وكنت أوقع مقالاتي باسم غير عادي هو « الغريب الروسي » وكان هذا الاسم المستعار يتردد مراراً في ذيل مقطوعاتي من الشعر العربي المرسل التي كانت تنشر في مجلة صغيرة في حيفا . وكثيراً ما كان هذا الاسم معروفاً عند الناس بل كانت الظروف أحياناً تشاء أن تجعلني فيكشف بعض الناس ، وفي أماكن غير متوقعة أطلاقاً ، حقيقة الاسم المستعار . وكثيراً ما كان الحوار الطويل الذي كان يدور بيننا ، ينتهي بدعوة حارة منهم : « خليك معنا ! » :

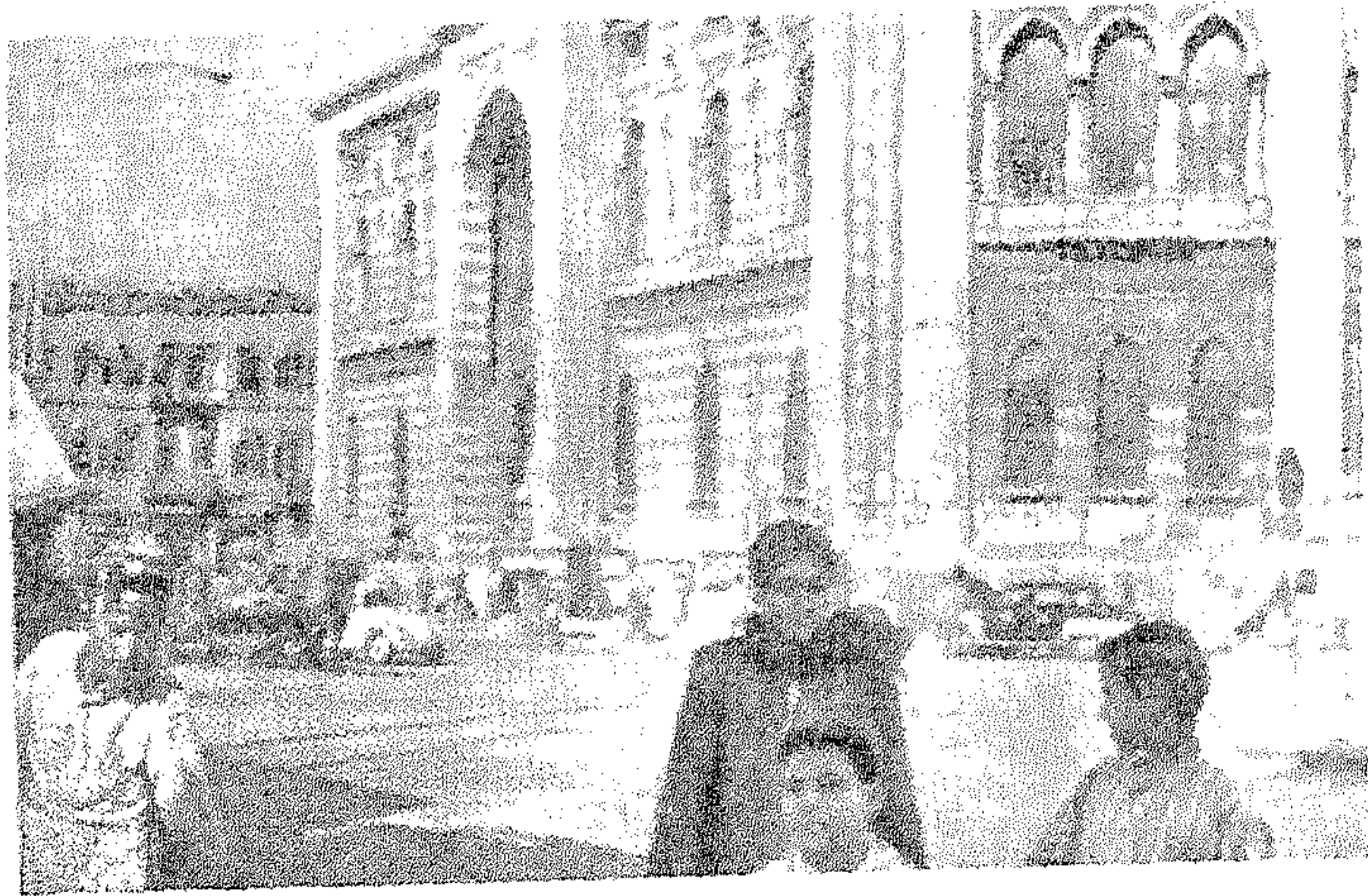
ولكن الكتب شأنها شأن الناس كانت تدعوني دائماً . وقد تجلّ أنها أقوى من الناس . وصورة الشرق ترتفع أمام عيني غنية بالأشخاص الرائعين . لكن ثروة المخطوطات توالى علي وغمرتني ولم أستطع أن أفيق منها . قبل ذلك كنت قد عرفت مخطوطات منفردة وحسب ، أما هنا فقد وقعت في يدي مجموعات كاملة من المخطوطات أعدادها بالمئات والآلاف . وهنا أحسست بنفسى وكأنني طفل صغير على شاطئ بحر ضخم لا يحده شاطئ . ولم أستطع أن أنزع نفسي منه كأنني مسحور به . لقد كان ذلك فوق طاقتي .



جلساء کراچی کونفرانسکی فی ۱۳ نیسان (اپریل) ، ۱۹۱۰ فی القدس : الاستاذ فی جامعة قازان ثم
جامعة باکو ، بئدلی صلیبا جوزی ، وجمیل الخالدی ، صاحب الخطوط ، والشاعر اسماعیل
النشاشیبی ، والمعلم السکاکیفی .



جامعة القديس يوسف في بيروت .



التحف العربي في القاهرة . صورة البرو فسور ا. ا. بيكوف ، عام ١٩٦٠ .

وهذا هو شيخو . كان أول شخص أدخلني إلى تلك المكتبة الشرقية الهادئة
المعتمدة القائمة في الطابق الثاني من مبنى جامعة القديس يوسف . كان هو نفسه الذي
أنشأ هذه المكتبة . وكان يعرف كل كتاب فيها . بل لقد اختار بنفسه أماكن
هذه الكتب على الرفوف ، وكان هو نفسه الذي اشترى كل مخطوط فيها . وكان هو
نفسه أيضاً الذي وضع بعناية جلد حية جاف بين أوراق كل مخطوط محافظة عليه
من الديدان والحشرات التي تتلف الكتب ، وأما فهارس المكتبة وقوائم الكتب
والمخطوطات فكانت كلها في رأسه فقط أو مكتوبة على ورقات صغيرة لا يفهمها
أحد سواه . وبدأت تظهر إلى النور بعد زمن بعيد ، أي بعد الحرب العالمية الأولى ،
بل جزئياً بعد موت شيخو نفسه . وكان يحزنني أن أقرأ بعد وصف بعض
المخطوطات القيمة التي أعرفها جيداً ، عبارة مختصرة Disparu durant la guerre
(فقدت في زمن الحرب) . إن البربرية الحديثة لم ترحم هذه المجموعة أيضاً التي
كانت في سوريا أحسن ما وجد منها من حيث ترتيبها .

وكنيت في أكثر الأحيان قارئاً وحيداً جالساً في تلك المكتبة الشرقية . وكنيت
أستطيع أن أقضي فيها أي وقت أرغب ، من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساء . وكان
شيخو نفسه يأتي بسرعة ويسحب كرسيّاً صغيراً من الخشب إلى منضدتي . وكنيت
أضع عليه رجلي لكيلا تبرداً على أرض المكتبة الحجرية الباردة وبخاصة في الشتاء .
وكان يسمح لي أن أفعل كل ما أريده . وكان هو نفسه يعمل في غالب الأحيان في
سجرتة المتواضعة التي كانت تواجه المكتبة على الطرف الآخر من الممر بينهما . وكان
ظول أيامه ولياليه مكباً على تصحيح تجارب الطبع التي لا تنتهي أو منهمكاً في
كتابة المقالات لمجلته « المشرق » . وتراه أحياناً يسير على عجلة من أجل استعلام
ما ، وقلمه خلف أذانه . وأحياناً تراه مع جماعة من السائحين الوافدين أغلبهم من
أوروبا أو مع أحد أعيان العرب المعروفين . وهو مع أولئك أو هؤلاء يدخل
إلى المكتبة ويعرض عليهم كنزه العلمي الثمين ويشير في الوقت نفسه إلى « موسكوبي »
ويقول هذا « موسكوبي » يعرف الأدب العربي . وكان الزوار عندئذ ينظرون إلى
مارتياب وعدم ثقة وكانوا أحياناً يحاولون امتحاني بسداجة .

وكانت الأنظمة والعادات المتبعة في المكتبة أنظمة وعادات بطريكية حقاً ،

فلو أنني اردت أن أستعير منها اى كتاب إلى منزلى فإن كل ما يلزمنى هو أن أسجله بنفسى فى دفتر كبير كان دائماً مائى مفتوحاً على المنضدة... وصر شتاءً وأنا فى هذه المكتبة اغترف من ثروة المطبوعات الشرقية المتعددة الاشكال والالوان ، وانهل من معين المختارات الجميلة من الكتب الأوروبية فى الاستعراب . وكانت هناك مادة علمية كثيرة لرسالتى لدرجة الما جيستر عن ابى الفرج الواواء الدمشقى . وقد جمعت هذه المادة العلمية هنا فى هذه المكتبة ، وكثيراً ما كان يخبرنى شيخو نفسه عن ابحاثه المتعددة التى التقى فيها مراراً مع شاعرى الواواء . لكننى لم اجد فى هذه المكتبة مخطوطات اشعار الواواء . ورغبة فى تتبعى لها رحلت إلى المكتبة الخديوية فى القاهرة كما كانت تسمى فى ذلك الوقت .

ولهذه المكتبة الخديوية طراز ونظام يختلفان تماماً عن المكتبة الشرقية . وكانت تشغل الطابق الثانى من مبنى كبير بنى خصيصاً بشكل اوروبى وان كان بالاسلوب الشرقى . اما الطابق الأول فكان يضم المتحف العربى الذى لا تقل شهرته عن شهرة المكتبة . وفى المدخل الكبير يقوم سلم عريض يقودنا إلى قاعة للمعرض تحتوى على لوحات تضم مجموعة من فريدة فى بابها من نسخ القرآن القديمة ومجموعة جميلة من المخطوطات مع صور صغيرة ملونة . وهذا السلم يؤدى ايضاً إلى قاعة كبيرة للقراءة تقوم فيها مناخذ طويلة . وكان زوار هذه المكتبة كثيرين نسبياً بصورة دائمة . . ويتشكل نصف هؤلاء الزوار من الطلبة الشبان والنصف الآخر من النساخ المحترفين للمخطوطات الذين كانوا يحتلون منضدتين . وكان مستخدمو المكتبة كثيرين ايضاً هم طبعاً من العرب فقط . لكن مدير المكتبة — حسب التقاليد القديمة لها — كان دائماً ألمانيا . وظل هذا نظام المكتبة من مولدها حتى الحرب العالمية الأولى . وفى فترة وجودى بها كان مديرها هو المستشرق المشهور موريتس وهو رجل غير مستلطف الخلق ، جاف الطباع ، متوسط العمر فى حلة أوروبية . لكن رأسه يعلوه دائماً طربوش ، هو علامة ضرورية مميزة لكل اجنبى يعمل فى خدمة الدولة او الحكومة وكانت من عادته ان يدور فى كل الغرف مرة فى اليوم .

وفى هذه المكتبة تمكنت بسرعة من العثور على مخطوطات الواواء . وطلبتها وجلست على المنضدة مع الخطاطين والنساخين الذين كانوا هم ايضاً فى طرابيشهم .

ثم اعطيت لي منضدة شخصية دائمة ينبغي وضع المخطوط عليها مفتوحاً مع تغطية صفحاته بزجاج ثقيل . وقد غرقت لرأسى في مقارنة هذه المخطوطات بالنسخ التي أحضرتها معى من بطر سبورغ . وحسب عادتي أجلت انظر قليلاً حولى ما يحيط بى . وطيلة كل الوقت الذى قضيته فى هذه المكتبة لم يأت إلى مديرها موريتس إلا مرة واحدة عندما وجه إلى سؤالاً تافهاً باللغة الفرنسية .

وقد ظهر لى بعد عدة أيام من عملى بالمكتبة أن وجودى كان يستدعى نوعاً من القلق بين النساخين والخطاطين الجالسين على المنضدة إلا أنى لم أعر هذا اهتماماً . بيد أنى فى المرة التالية . رأيتهم عند دخولى يتهايمسون فيما بينهم ثم انفصل منهم أكبرهم سناً — حسب ما يبدو لى — واقرب منى قليلاً ثم استرسل فى كلام كثير طويل وأخذ يوضح كيف أنهم أناس فقراء وأنهم يحصلون على قوت حياتهم من هذا العمل وحده أما أنا فأجنى وأستطيع أن أجده لنفسى عملاً آخر ، وأنهم مستعدون أن يقدموا إلى مكافأة إذا لم أتسبب فى حرمانهم من لقمة العيش . وفى البداية لم أفهم حقيقة الأمر ، لكننى ضحكت فيما بعد عندما علمت الحقيقة وأسرعت لتهدئتهم ، وأوضحمت لهم أن عملى فى المخطوطات عمل شخصى ، وليس الغرض منه كسب العيش أو منافستهم فى أرزاقهم . ومنذ ذلك الوقت صارت بيننا علاقات حسنة . وقد كانت غالبيتهم أناساً هادئين متواضعين وكباراً فى السن . وكانوا عادة غير مثقفين ونادراً ما يفهمون ماذا ينسخون . لكن بعضهم كانوا من هواة هذا العمل ويبدو لى أنهم على دراية بالمخطوط والنسخ إلا أنه فى ذلك الوقت لم يكن لفنهم ميدان كاف . ولعلمهم يمثلون الجيل الأخير لهذه المهنة التى كانت فى طريقها إلى الموت . فانهم بالطبع لم يستطيعوا منافسة آلات الطباعة والتصوير الضوئى التى كان استخدامها قد بدأ يشيع فى الحياة آنذاك . ولربما زالت هذه المهنة تماماً بعد حوالى عشرة أعوام نتيجة لظهور الآلات الكاتبة العربية التى دخلت بسرعة فى حياة الناس . وكان من بين هؤلاء النساخين أناس ممتعون . أحدهم ذهب معى إلى المنزل ، كان بهائى المذهب ، وقد عرفنى بعد ذلك بفرع هذا المذهب الموجود فى القاهرة . وقد كان برأسه رجل كان فى مدينة عشق أبداً معلناً للقبطان الروسى تومانسكى الخبير بالمذهب البابى البهائى .

وعلى وجه العموم لم أشعر فى المكتبة الخديوية على درجة كبيرة من الارتياح .

وأما نظامها فحسن ولها فهرس مطبوعة ، ولو على نحو بسيط نوعاً ما . وهي في متناول مكنتات أوربية أيضا . وعلى كل حال فقد كانت هذه المكتبة مكتبة رسمية باردة . ولا يمكن لأى شخص أن يستعير من مخطوطاتها أكثر من مخطوط واحد وحسب الإشارات الموجودة في الفهرس . وبالتالي كان لا يمكن لأى شخص أن يأمل ، بفتح ، أى مخطوط غير مسجل في الفهرس . وكان أيضا لا يسمح لأى شخص بتناول ما كان على الرفوف أو في الأماكن التى خزنت فيها المخطوطات مباشرة . حتى مجرد النظر إلى المخطوطات التى لم تسجل في الفهرس كان أيضاً أمراً ممنوعاً . وكان مستخدمو المكتبة كثيرين ويقومون بأعمالهم بصورة دقيقة إلا أن الانطباع الذى تأخذه عنهم هو أنهم أناس رسميون ، قليلو الاهتمام والفهم للكنوز المخزونة في مكتبتهم . ونتيجة لذلك كانت المكتبة قليلة الفائدة ، لروحى ، وللعلم معاً على الرغم مما بها من ثروة كبيرة . وها أنا أتممت مقارنة المخطوطات التى أردت من قبل أن أقارنها بمثيلاتها في المكتبة الخديوية ، وها أنا أسرع إلى مكتبة الأزهر . والأزهر هذا هو أكبر مدرسة إسلامية أسست في القرن العاشر الميلادى .

هناك كانت صورة الحياة في المكتبة تختلف تماماً عن المكتبة الخديوية . وعدد المخطوطات فيها المكتبة لا يقل عما في المكتبة الخديوية . أما بالنسبة لنظام تخزينها للمخطوطات فيبدو أنها تقلد طريقة المكتبة الخديوية حتى فهرسها ونظام تسجيل المخطوطات هو كنظام المكتبة الخديوية تماماً . إلا أن فهرس مكتبة الأزهر لم تكن مطبوعة وإنما كانت مخطوطة باليد . وهذه الفهارس كانت معروفة فقط داخل حدود مكتبة الأزهر ، أما أبعد من هذه الحدود فكانت مجهولة وغير معروفة ، ويمكنك هناك أن تجد في كل سطر اندرر والجواهر التى لا يعرفها الناس والتى لم يرها أحد مطلقاً . وأن النظرة السريعة في هذه الفهارس لشبيهة بالنظرة في رواية مغامرات ممتعة : طالعتك من حين لآخر بالمفاجآت والمستغربات . والحياة الداخلية في قسم المخطوطات رغم كل ثروته العظيمة كانت تسير بطريقة بدائية نسبياً . فكل المخطوطات مخزونة في مكان قديم تحت قبة ، حيث يوجد مكتب يذهب إليه أحياناً الشيوخ الأساتذة في فترات الاستراحة من العمل . وشكل مكتبة الأزهر من الناحية المعمارية الشرقية الطابع لا يتناسب مع ما تحويه من دواليب

الكتب الأوروبية العارية وفي داخلها تجد الاراتك الشرقية إلى جوار الحيطان،
وتقوم هنا وهنا كراس خشبية أوروبية عادية .

وكان المسئول عن قسم المخطوطات شيخ لديه الكثير من المشاغل والواجبات
الأخرى . وفي أثناء غيابه كانت توضع مفاتيح الأبواب والدواليب في المكتب
الموجود هناك . وكانت الدواليب تفتح لي دائماً وتباح لي أن أمعن النظر فيها . وكنت
في أثناءاتها مشغولاً بصورة رئيسية بالنظر العامة في المخطوطات ، إذ كان في
المكتبه جلبة كثيرة ، وكان كل العابرين هناك يضايقونني بأسئلتهم الكثيرة .
وفي المساء ذهبت إلى الشيخ وأخذت منه ، بلا صعوبات كثيرة ، بعض المخطوطات
إلى منزلي . ومن جديد عزلتني المخطوطات بعيداً عن الناس . وكان يؤسفني أن
الوقت كان قليلاً لهذه المخطوطات وأنه كان يترتب علي أن ادرسها بسرعة محومة
وكانت المخطوطات كأنما تتسابق فيما بينها على افتتاحي لها . وطالما كانت تذكرني
ببطر سبورغ وبروزن . فهناك التقيت مع مجلد التورخ الصولى . وكان روزن
هو الذى وجد مؤلفاله في المكتبة العامة في بطرسبورغ . وهناك وجدت أيضاً
مؤلفاً مجهولاً لمحبوب روزن هو الفيلسوف المتشائم أبو العلام . ووجدت أيضاً
قصة عن الحلاج الملقب الذى كان روزن قد ألقى محاضرة عنه في سالف الزمن .
وكنت أغرق في هذا البحر من المخطوطات وأحاول أحياناً ان انسج مقتطفات
من بعضها بسرعة وأحياناً أخرى اكتب فقط عنوان المخطوطات مؤدلاً بسذاجة
ان آتى إلى القاهرة مرة أخرى .

وأما المكتبة الثالثة الكبيرة هنا في القاهرة فاننى لم أتمكن من التسلل إليها .
ذلك أن صاحبها كان مسافراً . وأصبحت هذه المكتبة معروفة فيما بعد واندجحت
حسب وصية صاحبها — في المكتبة الخديوية (سابقاً) والتي تعرف الآن بالمكتبة
المصرية . وكانت هذه المكتبة الثالثة غير المعروفة إلا من بعض المحبين أمثال الزيدان
الذى عرفتها عن طريقه . وكان صاحبها هو احمد تيمور باشا الذى أصبح كلاولديه
فيما بعد لامعين في عالم الأدب . احدهما يعتبر خالق الدراما المصرية ويعتبر الثانى
خالق القصة . وكان والدهما — كحسب للكتب وعلى معرفة بالمخطوطات — قد
شكل مجموعة بديعة منها وارفق بكل نسخة وصفا لها . وأحياناً كان يكتب عن
بعضها مؤلفاً عليها كاملاً . ومن المحتمل ان ما يقرب من نصف هذه المخطوطات

كان من النسخ الفريدة القيمة . ولكنى لم استطع أن أتعرف بهذه المخطوطات إلا بعد مرور وقت طويل عن طريق مراسلاتى مع صاحبها .

استطاعت كنوز المخطوطات فى بيروت والقاهرة أن تحجب كل المجموعات الأخرى التى رايتها وشاهدتها بسرور ورضى فى أماكن شتى من سوريا ومصر ولكن هذه المخطوطات أيضاً لاتزال ماثلة حية امام عيني . وهناك فى الاسكندرية ، فى مكتبتها ذات الطراز الاوروبى ، شعرت بانفعالات كثيرة اثارتها فى نفسى كنوزها الغنية . وهناك فى القدس ، فى مكتبتها المهمة التى تسمى بالخالدية ، شعرت باحساس خاص يستحوذ على شعورى . وكان باعث هذا الاحساس ذكريات تاريخ قديم يتصل بالقائد العربى المشهور خالد بن الوليد فاتح الشام فى القرن السابع الميلادى ومؤسس العائلة . وهناك فى حلب ، فى مكتبة صارمة النظام لكنها رائعة الترتيب ، اعنى المكتبة المتروبولية المارونية ، رايت كيف ان ابناء هذه المكتبة قاموا بعناية وحرص بخزن اثار احدى الشخصيات الأولى للنهضة الادبية فى سوريا فى القرن الثامن عشر ، الا وهو جرمانوس فرحات . وكل مكتبة سواء اكانت كبيرة ام صغيرة ، غنية ام متواضعة كان لها طابعها الخاص إلا انها جميعا كانت تقابل بترحيب زوارها الجدد ، وتكشف لهم كنوزها بسعادة وطيب خاطر . وهناك فى عاصمة الامويين القديمة فى دمشق وحدها عانيت الحزن ذات مرة ولكن المقادير تسكفت بتفريجه فيما بعد عندما التقيت مع بعض المخطوطات التى كان الحزن قد سبق ان اخفوها عني . ولقد صادفت أيضاً كثيراً من المجموعات الشخصية الصغيرة التى كانت تمنحني سعادة احببانا . ووجدت على نحو غير متوقع ان بعض هذه المخطوطات الشخصية قد تناولت توضيح بعض تفاصيل تاريخ العرب الثقافى والأدبى .

وهناك فى لبنان ، فى إحدى قراها الصغيرة ، وعند معلم مدرسة متواضع ، اكتشفت بالمصادفة مجموعة كاملة من المعاجم العربية وكتباً قديمة وحديثة فى الصرف والنحو . وليس هذا بالشىء العجيب . فقد كان هذا المعلم هاوياً وعالمًا بهذا النوع من التصانيف . إلا أن الشىء العجيب جداً هو أنه كان يحفظ كل هذه الكتب عن ظهر قلب . والأعجب من هذا أنه ولد ضريراً وأنه حفظ كل هذه الكتب عن طريق السماع بعد أن قرئت عليه مرتين فقط . ولقد قمت بالفعل باختباره .

تجني مواقف متعددة في لسان العرب، الذي يتسكرون من ٢٠ جزءاً ٥٥. والبررة الأولى
أمكنني أن أفهم بوضوح كيف استطاع أبو العلاء وهو أعمى أن يحفظ عن طريق
السمع بالمصادفة رسالة مكتوبة بلغة لا يعرفها .

وهكذا وعلى نحو مفاجيء وغريب ، تشابك البشر والكتب مرارا بدون
انفصال أثناء رحلتي إلى الشرق. ولكن مر الزمن بعيداً بعيداً ودفعت الكتب البشر
إلى الخلف . وفي الحق أن المخطوطات في الشرق لم تلتهمني هي وحدها بل التهمني
المطبوعات أيضاً . فهناك والبررة الأولى، في المكتبات المنتشرة، وجدت تحت تصرفي
كل المطبوعات العربية من بداية عصر المنشورات والمطبوعات حتى أيامنا هذه ،
وأيضا من كل بلاد العالم القديم والحديث . وهناك والبررة الأولى انتفح أمامي
كل الأدب العربي الحديث الذي كان معرفتي به غامضة جداً قبل رحلتي إلى الشرق .
وربما كان مارتين هارتمان هو وحده في أوروبا الذي عرف هذا الأدب العربي الحديث .

ولقد أدخلتني الكتب إلى عالم جديد ، وعرضت على أناسا بطريقة أسهل
وأسرع مما لو حاولت أنا بنفسى ذلك . وإنعلن المفهوم اننى كنت أشعر مع الكتب
بمحبة أكثر مما مع الناس .

وهكذا دخلت الكتب في صراع مع البشر وما كان ذلك للبررة الأولى في حياتي .
وكان النصر حليفاً للكتب . وكان انتصاراً حاسماً ، كما يبدو لى . إلا ان الحياة
عاشت أن لا يمكن الفصل بين البشر والكتب . فمن جديد وجدت الكتب توجهي
إلى البشر . وعندئذ فقط فهمت بدقة تاريخ علومنا الإستعرائية .

٢ — مقالة نحوية أم رسالة الحادية ؟

(١٩١٠ — ١٩٢٢)

ها قد اوشكت إقادنى فى القاهرة على الانتهاء . لكنى لا أريد الابتعاد عن مخطوطات مكتبة الأزهر . وإذا كنت قد استطعت فى المكتبة الخديوية الاطلاع على الفهارس المطبوعة فى مكتبة الأزهر لا توجد سوى فهرس موجزة مكتوبة باليد فى نسخة وحيدة . وقد وجدت أن بعض عناوين المؤلفات قد سجل فى الفهرس كيفما اتفق : بل وبصورة خاطئة أحيانا ، وكنت مضطرا لاختيار المخطوطات على عجلة .

وفى الأيام الأخيرة ، فى بداية شهر كانون الثانى (يناير) ١٩١٠ التقيت برسالة « فى الاعراب » موجهة للفيلسوف والشاعر الأعمى أبى العلاء . وقد طربت لهذه الرسالة لالذاتها فحسب بل لأن صاحبها معروف لى جيدا . وكان قد سبق لى ان جمعت كل ما يتعلق به دونما غرض خاص . وكنت قد ورثت هذا الاهتمام الشديد بأبى العلاء عن معلمى روزن الذى كان فى آخر أيام حياته شغوقا بهذا الفيلسوف المتشائم اللاذع السخرية . والحقيقة ان أبى العلاء ينفذ إلى اعماق النفس البشرية بتحليله الدقيق المتشائم وترام بابتسامة ساخرة لينة يحاول ان يكتم مرارة اليأس وسواد افكاره .

على اننى لم اكن أو مل ، بالطبع ، ان اجد فى تلك الرسالة النحوية شيئا جديدا عما أعرفه من أمر أبى العلاء . لكن الشيء الذى لم استطع فهمه من أمر هذه الرسالة هو السبب فى أنها لا تذكر إلا نادرا ، ولماذا كانت نسخ مخطوطاتها الأخرى موجهة تماما ؟ ولم أكن أنا وحدى الذى عجبته لهذا الأمر بل لقد شاركنى فى هذا العجب أيضا الشيخ المحمضانى أحد خزنة المكتبة الذى كان يقوم دائما باعطاء المخطوطات . وكنا نتحاور مرارا عن مختلف الموضوعات الأدبية بل وعن مدى صعوبة تعلم اللغة الفرنسية ، الأمر الذى كان بالنسبة لشخص مثله يعنى حرية التفكير . ولانى لا أنكر أنه كان يشعر نحوى بعاطفة خاصة ، وكان له فى الأزهر الإشراف على

المسلمين الوافدين من روسيا وكان ينشر عليهم وعلى عطفه ورعايته .

والحقيقة أن الشكل الخارجى لرسالة أبى العلاء هذه ، لا يوحى بأن لها أهمية أو قيمة . فهى نسخة عادية قام بنسخها أحد النساخين المحترفين فى القرن التاسع عشر طبقاً للنسخة الأصلية من « المدينة » . ويبدو أن هذا النساخ كان لا يفهم كل شئ بدقة كافية . إلا أنه أصبح واضحاً لى من السطور الأولى لماذا كانت هذه الرسالة قليلة الشهرة إلى هذا الحد : فلو كان عند العرب فهرس للكتب الممنوعة والمحرمة لاحتلت فيه هذه الرسالة مكاناً مرموقاً . والواقع أنها كما يبدو من شكلها ، تتحدث عن موضوعات نحوية وتتناول أيضاً نقطة جدية لها اهتمام كبير من الناحية الدينية هى مسألة الصور الاعرابية المختلفة لأسماء الملائكة مصحوبة باقتباس من القرآن والشعر . وكما هى العادة ، تذكر أسماء مشهورة فى الأدب ، مع تلميحات أدبية لا تحصى . إلا أن هذا ليس سوى غطاء الرسالة والشكل الخارجى لها . أما ما تحت هذا الغطاء وما يخفيه تحته هذا الشكل الخارجى فهى سخرية دقيقة يصعب فهمها على من لا يعرف آفاق أبى العلاء الأدبية ، ومن لا يفهم أسلوبه فى بناء مؤلفاته . وأبو العلاء يتمتع بمهارة فائقة فى أن يلبس الجملة قناعاً يخفى وراءه فكره الجرى . عن أنظار من لا يعرفون جوهر الأمر . أما فى الحقيقة فإن الرسالة التى تبدو من الخارج رسالة نحوية تقليدية ، تخفى وراءها هجاء لاذعاً وسخرية فسكرية شديدة ، من فهم بعض المسلمين للحقيقة الملائكة . وهذه الطريقة الساخرة لأبى العلاء هى نفسها طريقته فى رسالته المشهورة « رسالة الغفران » ، حيث نجد بسخريته اللاذعة نفسها يتهم بالوصف التقليدى القديم للحياة بعد الموت .

لقد قرأت بسرعة سطور تلك الرسالة التى كتبها للناسخ القليل المتعلم ، وكنت أحاول بصعوبة إعادة بناء أفكار المؤلف من خلال أخطاء ذلك الناسخ . وفى بعض الأحيان ، وبدون توقع أو انتظار كان يبدو أمام عيني شعاع براق يكشف لى عن التلميحات الخفية فى ثنايا تلك السطور . وفى أحيان أخرى كنت أقف أمام بعض السطور عاجزاً عن فهم معانيها . ولم يكن فى وسعى أن أفك اللغز . فالوقت الذى بقى أمامى فى القاهرة قصير . وكان على أن أقيد نفسى وأن اكتفى بالاقتباسات القصيرة . وحين أرجعت هذه الرسالة فى المرة الأخيرة إلى الشيخ المحضانى ، كان كل

ما قلته له هو : « إذا أتيتك ان تقرا هذه الرسالة في وقت ما ، عندئذ ستفهم لماذا كانت هكذا قليلة الشهرة » .

كان رحيل القطار في الصباح الباكر . وفي الدقيقة الأخيرة رايت بدهشة الشيخ المحمصاني وقد جاء يلهث بحثا عني ، واخذ كل الواقفين على الرصيف بتعجب ودهشة يتابعون بنظراتهم الشيخ المحمصاني الذي يحاول جاهدا اللحاق بالقطار وقد بدأ في التحرك . وكل ما استطاعه الشيخ المحمصاني هو انه صاح بي من نافذة عربة القطار : « انني لم أتم طول ليلتي ... والشئ العجيب الذي ارقني هو لماذا لم يحرق ابو العلاء مع رسالته هذه ! » وبدون تفسير فهمت ان الشيخ المحمصاني قد ادرك هو ايضا معاني هذه « الرسالة النحوية » .

وتوالى بعد ذلك ابعوام كثيرة ، قبل ان استطيع فهم كل تلميحات ذلك المتشائم الأعمى ، وقبل ان تمكن من الكشف عن حقيقة الإشارات والاقباسات الأدبية في تلك الرسالة . لكنني لم انس اكتشاف الصغير هذا . وكل ما يحزني هو ان « روزن » لم يبق حتى يراه فيصبح هذا الكشف عيداً مزدوجاً لي وله . وخلال السنوات التي تلت ذلك تسلمت من القاهرة نسخة كاملة من هذا المخطوط كان اوصى بها تلبية لطلبي صحفي مشهور هو سليم قبعين مترجم تولسنوي إلى العربية ، وقد ارسل لي سليم هذه النسخة ذاكرا لي بتباه وفخر انه وجد في النهاية احسن نوع من الوزق والخبر الضروريين لنسخ هذه الرسالة . والحقيقة ان هذه النسخة نقلت من الاصل بخط جميل جدا لكن يبدو أن الناسخ لم يتمكن من فهم النسخة الاصلية . ومع ان النسخة التي وصلتني حسنة الخط فإنها لم تساعدني إلا قليلا على استجلاء المواضع التي غمض على فهمها .

بدا لي في صيف ١٩١٤ انني على وشك الانتهاء من بحثي العلبي عن رسالة ابي العلاء . وهناك في ليدن توجد قرب صالة هادئة صغيرة تابعة لمكتبة الجامعة غرفة تحتوي على مجموعه مخطوطات تعرف باسم "Legati Warneriani" (صندوق وارنر) التي كانت مشهورة بين المستعربين منذ القرن السابع عشر . هناك في تلك الصالة الصغيرة كانت تطل من على الحائط صورتان قديمتان لسكاليغرو هوغو غروتوس ، بينما انا جالس منهمك في قراءة المخطوطة الثانية لرسالة الملائكة التي وجدتتها هناك

وقد أثارت هذه المخطوطة اهتماماً أكبر من النسخة المماثلة التي رأيتها في القاهرة . ذلك لأن تاريخها يرجع إلى القرن السادس عشر . وهي إلى جانب ذلك مكتوبة بخط يد مؤرخ دمشق هو صاحب المذكرات التي ساعدت بارتولد في زمن ما ، على فهم بعض الأحداث الغامضة والتي تتعلق بتاريخ الاحتلال التركي لسوريا ومصر . وهذه المخطوطة قد ساعدتني على استيضاح للعرب الرسالة التي أياكن كثيرة . وقد بدا لي بارتياح ورضى أنه عما قريب سأستطيع أن أعيد إلى العرب الرسالة التي نسوها ، بل وفي صورة مطبوعة خالية من الأخطاء التي أدخلها عليها النساخون .

لكن آه من المقادير ... إنها في هذه المرة أيضاً لم تكن رحيمة بأبي العلاء . لقد اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى . وبصعوبة استطعت أن أرجع إلى وطني تاركاً ورائي في هولندا كل المواد العلمية التي كنت قد جمعتها عن أبي العلاء . ولم أسلم هذه المواد إلا بعد عشرة أعوام ، حين كانت الإنسانية قد انتقلت إلى مرحلة جديدة من التاريخ . وبالنسبة لي فإن هذه المواد ، لم تفقد أهميتها ولو للحظة واحدة . وبأنفعال مألوف لدى نظرت من جديد في تسجيلاتي و أوراقني التي تتعلق بأبي العلاء . وعندما تجددت الروابط العلمية الدولية بصعوبة واصرار ، وجدت على غير انتظار زميلاً في العمل متحمساً ومحباً لأبي العلاء تحمس روزنر وأليذه الأصغر ، وهذا الزميل هو أحمد تيمور باشا المصري صاحب أحسن مجموعة خاصة من المخطوطات في القاهرة كان قد جمعها بحب كبير وسعة معرفة . كان هذا العالم كريماً لدرجة عجيبة . فقد كشف كل كنوزه لمختلف العلماء من مختلف البلاد . وكان متواضعاً نادر الوجود . فقد كان يجعل من نفسه زميلاً في العمل لمن يرأسه من العلماء إذا أحس بأن لدى هذا المراسل تذوقاً للأدب العربي . وكانت مجموعة هذا الباشا العالم تحتوي على مخطوط آخر عن رسالة الملائكة ، . فبدأت بين القاهرة ولينينغراد مراسلات حية . ومن جديد أثارت مناقشة حول مختلف الأشكال وتبيان الإشارات والاقتراضات المتعلقة بها . وعلى تلك القصاصات النظيفة المستطيلة التي كتبت بخط شيخ عجوز لكن بحروف جميلة واضحة ، كان أحمد تيمور باشا من أسبوع لاسبوع يرسل إلي بأفكاره واقتباساته في رده على أسئلتى أو يرسل إلي ما يخطر بفسكره هو نفسه . وفي كل مرة ، وبذشوة مضطربة ، كنت أفتح خطاب

تيمور باشا الذى كنت أجد فيه مرارا الجديد من الاكتشافات ، بل كنت أجد أحيانا وبدون توقع شعرا وأمثالا وأقوالا كنت فى ذلك الوقت أشد ما أكون حاجة إليها لتوضيح تليحات أبى العلاء التى تعبنا أعواما عديدة فى محاولة كشفها وتبيينها . والحقيقة أننى من خلال سطور تيمور المتحفظة كنت أحس بمدى السعادة التى كان يشعر بها هو نفسه فى مجرى عمله لإعادة تلك الرسالة التى ألفها جده العظيم ، أعنى أبا العلاء .

فى صيف عام ١٩٢٦ . وفى خلوة على شاطئ البحر الأسود فى القوقاز ، تمكنت فى النهاية من اتمام عملى الخاص بتجديد بناء كل هذا النص الذى ظل غامضا ومشوها قرون عديدة . وفى عام ١٩٣٢ أصبحت « رسالة الملائكة » لأبى العلاء فى صورة مطبوعة . حدث هذا بعد ٢٢ عاما من زيارتى لمكتبة الأزهر واستلامى من الشيخ المحمصانى ذلك الكتيب الذى كان يبدو فى صورة غير جميلة ونسخه رجل قليل التعلم .

سارت السعادة مع الحزن جنبا إلى جنب ... فى ذلك اليوم الذى سعدت فيه بالانتهاء من عملى هذا ، وصل إلى خبر وفاة تيمور باشا . وآسفاه إنه لن يستطيع أن يرى النسخة المطبوعة لتلك الرسالة . وها هو شعبه العربى قد فدر اليوم هذه الرسالة حق التقدير . فقد تردد صداها لدى أحد الكتاب الكبار هو أمين الريحانى الذى يقترب فى أفكاره من أفكار أبى العلاء إلى حد ما ، والذى شغل كثيرا بالدراسات المختلفة عنه . أقول عندما تردد صدَى هذه الرسالة لدى الريحانى ، أرسل إلى رسالة على طريقته الخاصة وبروح تشابه روح « رسالة الغفران » و « رسالة الملائكة » ، وفيها عبر بلسان أبى العلاء عن شكره للبستشرقين الذين أحيوا آثار الأدب العربى معطين بذلك العبرة والسعادة للعرب أنفسهم والحقيقة أن هذه الرسالة كانت بالنسبة لى أعظم وسام وشرف : فقد رأيت أن المؤلف الذى شغلت به مدة عشرين عاما وعشت معه كأنما هو واحد من أفراد أسرتى ، قد احتل مكانا جديرا به فى ميدان الحياة والعلم معا .

وهكذا انتهى تاريخ كشف صغير وجدته تحت قبة جامع الأزهر . ذلك الكشف الذى سجلته وأثبتته مطبوعه أكاديمية العلوم بجزيرة فاسيليفسكى فى لينينغراد .

وقد حدث أن أقيم في سوريا وبعض البلاد العربية الأخرى احتفال بمناسبة الذكرى
الآلفية لميلاد أبي العلاء . ومن جديد حملت هذه المناسبة على تذكرة تلك الرسالة
أيضا . وحدث أيضا أن ظهرت في دمشق سنة ١٩٤٤ طبعة جديدة اعتماداً على
مخطوط جديد اكتشف في ذلك الوقت . وهو مخطوط لم أكن أعرف عنه شيئاً
من قبل . وهكذا سيظل الناس غير منفكين عن الكتابة عن « رهين المحبسين » ،
الذي عاش في بلدة صغيرة بسوريا ، عن الشيخ الأعمى الذي دخل في الألف الثاني
من عمره ، والذي يتزايد باستمرار ما يكسبه إلى جانبه من الأصدقاء .

٣ - رسالة ماجيستر غير مكتوبة

(١٩١٠)

« أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب

لو كان يدركه ركض اليعاقب ١ »

لست أدري لماذا ظل هذا البيت يرن في أذنى طول اليوم - ووجدت نفسى دون قصد أو تعمد أتذكر شهر كانون الثانى (يناير) من عام ١٩١٠ عندما رجعت للمرة الثانية من القاهرة إلى بيروت .

الاسكندرية ، مدينة البورصة والقطن ، لم تمتعنى إلا قليلا ذلك أنها منذ وقت بعيد تذكّر بالغرب أكثر مما تذكر بالشرق . ولكنى قررت على كل حال التأخر هناك فى الاسكندرية بضعة أيام . فقد أردت أن أتعرف على حبيب الزيات الذى كان يعمل بتجارة الفواكه المجففة وتصديرها إلى جميع أنحاء العالم ، ولكنه كان ينهز كل دقيقة من أوقات فراغه ليهب فى المخطوطات . وقد كان عالما دقيقا ذواقا وحبا للمخطوطات . وبكل هذه الموهبة التى أوتيها كان يختلس من المخطوطات القديمة صورة منسية من الحياة تتصل بالثقافة العربية ثم يعدل على إحياها فى مقالاته المتعددة التى طبعت فيما بعد . ولقد أردت أيضا أن ألقى نظرة على مخطوطات مكتبة الاسكندرية . وكان زيدان القصاص والعالم الأديب قد أخبرنى فى القاهرة ، بأن فى مكتبة الاسكندرية جزءاً من مكتبة الخديوى إبراهيم باشا بن محمد على مؤسس العائلة الخديوية . وقد كان فى رسالة زيدان إلى مكتبة الاسكندرية عوناً لى على أن تفتح لى أبوابها على مصراعها .

وتداعت انطباعاتى عن الأزهر . هذه المدرسة الكبرى للعالم الإسلامى . إذ رأيت هنا . فى مكتبة الإسكندرية صورة مختلفة تماماً . فهذه المكتبة تشغل جزءاً من بناء جديد ذى طابع أوربى هو مقر المجلس البلدى لمدينة الإسكندرية . وكانت الشعبة الشرقية بالمكتبة تشغل صالة كبيرة تقوم عند جدرانها دواليب عادية للكتب . وفى وسط الصالة تقوم منضدة طويلة . ولم يكن يوجد فى المكتبة فى ذلك الوقت .

زوار آخرون . وفتح لى الأمين عن طيب خاطر تلك الشعبة الشرقية . وكان يديرها شيخ شاب مُخرج من الأزهر . والحقيقة أنه لولا تلك الجُبنة ذات اللون البنى الغامق والأكام الواسعة لكان من الصعب أن تعرف أنه مُخرج من الأزهر . إن تلك النظارة ، واللحية المثلثة التى تكسو ذقنه ، واللغة الفرنسية التى يعرفها ، هى على ما يبدو ، أهم من المخطوطات التى يخزنها . وكل هذه المظاهر توحى للوهلة الأولى بأن هذا الشيخ أوربى فى ملابس عربية وطنية . لكن التحدث باللغة العربية ومحاورتي معه عن الأدب العربى سرعان ما ألفت بعيداً بهذه المظاهر الخارجية التى يمكن أن تكون قد نجمت عن كل نمط الحياة فى الاسكندرية .

وفى مكتبة الاسكندرية كانت المخطوطات فى نظام وترتيب ، بل كان لها فهرس موجز على نمط فهرس مكتبة الأزهر . إلا أنه لا يفرق بين الكتب المطبوعة وبين المخطوطات . ولقد كان هذا الشيخ الشاب يريد أن يكون على مستوى النماذج الأوروبية . إلا أنه لم يكن يفهم إلا قليلاً قيمة ما يخزن من الكنوز . غير أن الآمال لا تخدعنى . فمن بين عشرين مخطوطاً تستحق الإهتمام وجدت مخطوطين هما درتان فريدتان ، تتصلان بالشعر العربى الذى كان يهمنى بصفة خاصة فى ذلك الوقت . وكان أحدهما يحتوى على أشعار أحد الشعراء المعاصرين الأصاغر لآبى الفداء . مؤرخ سوريا الشهير . وكان هذا الشاعر وطنياً كبيراً مخاصماً ، بنظم عبارات الثناء والإعجاب لمدينة حماة التى عرفتها أنا أيضاً ببساتينها ونواذيرها التى لا تعرف الصمت . وكان هذا الشاعر يترك أحياناً اللغة الفصحى ويستخدم فى نظمه اللغة العامية السورية . وقمت على مهل بنقل بعض الإقتباسات من هذا المخطوط ، وبعد حوالى خمسة أدوام قمت بطبع هذه الإقتباسات إلا أن المخطوط ذاته ظل حتى هذا الوقت فريداً .

ومع هذا فإن هذا المخطوط لم يثرنى إلا قليلاً . لكن المخطوط الثانى استطاع أن يهز شعورى مدة طويلة . وكنت قد أجلت الإطلاع عليه إلى آخر أيامى بالاسكندرية . عندما أخذت تذكرة الباخرة . وعندما تسلمته فى يدي ، أخذت أتصفحه بارتياح ورضى . وكما بدا لى كان نموذجاً خطياً رائعاً يرجع تاريخه إلى القرن السادس الهجرى . وهو يحتوى على كل الآثار الفنية لمدرسة فى فن المخطوط كان زعيمها ورائدها ابن البواب المعروف . وصفحات المخطوط صغيرة وتحتوى

كل منها على ثلاثة أو أربعة أبياب من الشعر منسوخة بطريقة فنية جميلة وبحروف ضخمة منطبوعة الشكل وبكل الحركات وعلامات القراءة . وبذلك الطريقة الفنية الخاصة بمدرسة « ابن البراب » كتب كل بيت من الشعر . لكن الصفحة كانت لا تتسع لكل البيت وعندئذ كان يمال بالسطر إلى أعلى ليكتب باقي البيت بحروف صغيرة . ومع أن هذه الطريقة غير متناسبة فنياً إلا أنها تعطي حياة لكل الشكل الفني . وقد كان اللون الأساسى لهذه الأشكال الفنية هو اللون الأخضر الذى انطفاً بمرور الزمن ، والعين ترتاح لرؤيته . ولا شك فى أن هذا المخطوط إنما هو لأستاذ كبير فى فنه وقد خط بكل تفصيلات الدقة بل وبحرية كاملة لفنان حقيقى .

وعندما انهمكت فى قراءة المخطوط سرعان ما نسيت مما يتعاقب بشكله الخارجى وشغلت عنه بمضمونه ومحتواه . مرت امام عيني أبيات لشاعر موهوب من الشعراء العرب القدماء ، لا شك فى أنه من العصر الجاهلى . وكانت الأبيات غنية بصور الحياة البدوية وتعكس بصدق تفصيلات كاملة لحياة أولئك البدو . وكانت هذه الأشعار منظومة بنفس طريقة القصائد الجاهلية وتسير على نهجها . وفى بعض الأحيان كانت الصور الشعرية تتسم بنغمة فلسفية . وقد بدأت بعض هذه القصائد بهذا البيت : « أودى الشباب حميداً ذوالتعاجيب لو كان يدركه ركض اليعاقب ! » — وقد علق بذهنى هذا البيت على الفور . والشاعر كما يسمى فى المخطوط هو سلامة ابن جندل ، وبالنسبة لى فإننى لا أعرف جيداً هذا الاسم . فهو طبعاً ليس واحداً من أصحاب المعلقات والدواوين الشعرية الست المشهورة . لكن الحقيقة هى أن موهبة هذا الشاعر تحس وتلس فى كل أشعاره . وبذسوة مطردة أخذت أبحث سطرأ بعد سطر وشعرت بانفعال أن الحظ قد أتاح لى العثور على كشف على . ولم يكن فى المكتبة دليل أو فهرس أوروبى لأسماء الشعراء القدماء . ولم يكن معى فى رحلتى كتاب بروكلمان ، ذلك الكتاب القريب من قلوب كل المستعربين . وقد يكون شاعرى هذا الذى اكتشفته مذكوراً فى الفهارس الأوروبية أو فى كتاب بروكلمان . إلا أن الشئ الذى كنت متأكداً منه هو أن هذا المخطوط هو نسخة فريدة لا شك فى ذلك . والامر الآن واضح . إننى لا أستطيع أن أرى بعيداً بهذا إلا اكتشاف . وهو أمر كنت قد قررته منذ أول يوم رأيت

تجيه المخطوط . كنت معتمداً السفر في اليوم التالي وكنت قد حجزت فعلاً تذكرة للسفر على الباخرة ، إلا أنني في ذلك الوقت بعد أن رأيت هذا المخطوط في زيارتي لمكتبة الإسكندرية ، عزميت على تأجيل سفرى وبدلت تذكرة السفر لرحلة أخرى تالية . كان لابد لي من نسخ كل المخطوط كاملاً . وقضيت يومين في عمل محموم ، ملوهم بالحماسة . أما الشيخ الشاب فكان يحار ولا يخفى حيرته . وأعطاني في آخر الأمر مفتاح المكتبة راجياً مني أن أعيده إلى البواب عند خروجي في المساء .

ها أنا ذا راكب الباخرة ، كأني في غيبوبة ، منصرف بكل أفكاري إلى عرب الجاهلية ، ولكنني مقابل ذلك مصطحب نسخة كاملة من شعر سلامة بن جندل منسوحة بشكل دقيق تماماً مع كل تفصيلات مخطوط مكتبة الإسكندرية . وفي الليل عندما مررتنا ببيافا ، لم يحل لي أن أنام . وعندما كنت أتمشى على ظهر الباخرة ، لم أكن أفكر في عبير بساتين البرتقال الذي يدرك السفينة أحياناً على بعد عدة كيلومترات من البحر ، إنما كنت أفكر في إمكانية كتابة رسالة عن هذا الشاعر . وبدأت أحلامي تتراعى لي : فمن ناحية ، كنت أريد أن أبحث في حقيقة الوضع الواقعي الذي نشأت فيه أشعار سلامة بن جندل ، ومن اللازم لهذا البحث أن يكون على نفس الطريقة التي اتبعها «يعقوب» في مؤلفه الأخير عن الحياة البدوية القديمة . ومن ناحية أخرى كان يبدو لي أن أقوم بتحليل لأشعار بن جندل ، على أن يكون التحليل تطويراً لأفكار وآراء «شوارتز» عن أحد الشعراء الأمويين . وكان شوارتز قد دون هذه الأفكار في كتاب له صدر آنذاك سنة ١٩٠٩ . والحقيقة أن موضوع رسالة الماجستير ونصف العمل الذي تتطلبه هذه الرسالة قد أصبح جاهزاً لدي . لكن سلامة بن جندل قد زاحم هذا العمل وغطى عليه . وهذا أمر طبيعي بالنسبة ستعرب ناشئ يشعر برغبة ملحة في إبراز اكتشافاته الأولى وتثبيت أولوية السبق فيه وإيجاد مكان متواضع له على رف تاريخ العلم . ولقد قررت أخيراً عندما كانت السفينة تقترب من بيروت أن ألقى جانباً بالموضوع السابق لرسالتي الماجستير وأن أتناول هذا الموضوع الجديد لاسيما وإنني كنت أعتقد بأنه يتطلب زمناً أقل بالقياس إلى الموضوع السابق .

ومفهوم طبعاً مدى ما تملكني من انفعال قوى وغر ليس بالقليل عندما كنت

أسرع حتى قبل الثامنة صباحا في الذهاب إلى أستاذي البيروقي العربي لويس شيخو في جامعة القديس يوسف ، وكانت التي تحتل مبنى ضخما متميزاً لافي الحى. الذى عشت فيه فحسب بل وفي المدينة بأسرها. وأستاذى نفسه وهو الملاحق في عالم الكتب والمخطوطات يفهم جيداً ويقدر تماماً حقيقة مثل هذا الشعور الذى يسيطر على . وأنا أعرف أنه سيقاسمنى سعادتي ومشاعري . وكنت متأكداً من أنى سأجده في المنزل إما في صومعته المتواضعة جالسا يكتب ويقرأ تجارب الطبع التي لا تنتهى لمجلة « المشرق » ، أو جالسا في ذلك المكن المألوف بالمكتبة الشرقية على نفس الطابق الذى كنت أتخذ لى فيه مكانا . وعدانا نحن الإثنين لم يكن يجرى إلى المكتبة عادة إلا بعض أساتذة الكلية الشرقية لمدة عدة دقائق .

وبالفعل وجدت شيخو جالسا يقرأ تجارب الطبع الخاصة بالعدد التالى من مجلته . وبعد الكلمات الأولى لفت نظرى فوجدت أمامه بعض الأشعار فسألته : ماهذه المقالة ؟

فقال : « أقوم بطبع ديوان سلامة بن جندل » . فصعقت تماما . وكل ما استطعت أن أفعله أننى همست سائلا : « حسب مخطوط الاسكندرية ؟ » فنظر شيخو إلى كأنما لم يفهمنى وقال : « لا . حسب مخطوط استانبول » . ثم سألنى بدوره عن سبب انفعالى هذا فبدأت قايلا وقصصت عليه ماجئت به إليه . فكان تعجبه أيضا لاتحده حدود . وما كان منه إلا أن راح يلوح بيديه مستغربا ويقول : « شىء عجيب ! » . وبادرنا إلى المقارنة بين المخطوطين . فظهر لنا أنهما نظيران ، من مدرسة واحدة ، وأن تاريخهما متقارب . ولم يكن السبب الذى دفع بشيخو لدراسة بن جندل أقل غرابة . فنذ بضعة أشهر كان المستشرق الفرنسى المشهور «هيور» قد نشر فى 'Journal Asiatique' (المجلة الآسيوية) هذه الأشعار نفسها لسلامة بن جندل من مخطوط استانبول نفسه . لكن الحقيقة أنه لم يكن مستغربا كبيرا . ولذلك فإن عمله هذا لم يحقق نجاحا كافيا . وبعد ذلك قرر شيخو إصدار طبعة منقحة لمخطوط بن جندل على أساس نسخة استانبول التي نسخها فيما مضى . ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن نسخة الإسكندرية . فما كان منى إلا أن وضعت تحت تصرفه نسختى الخاصة التي استفاد منها لإدخال بعض التصحيحات على النص . وبهذا الشكل بقيت رسالتى للباحثين غير مكتوبة إلى الأبد ، تلك الرسالة التي تصورتها



النصب التذكارى على قبر الاكاديمى كراتشكوفسكى فى مقبرة فولكوفو بلينينفراڊ .
وقد كتب على الدراييزون البرونزى هذا الشطر من بيت شعر لابی العناهیة :
الموت باب وكل الناس داخله

فى عقلى . وانهار من أساسه وانفوره ما كنت أحلم به من الفوز بقصب السبق فى هذا الإكتشاف . ولقد ظهرت عدة مقالات صغيرة وملاحظات بمناسبة صدور طبعة شيخو ، لكن العمل الكبير الذى كنت أحلم به عن سلامة بن جندل عندما كنت على الباخرة ، لم يظهر حتى الآن .

وها أنا الآن ، حين يدور الحديث عن دور المصادفات فى العلم ، أتذكر دائماً كيف أن ثلاثة من العلماء : فرنسى وعربى وروسى قد شغلوا جميعهم فى وقت واحد وهم فى أما كن متفرقة ، بدراسة شاعر عربى واحد من واقع مخطوط واحد . وعندما أصادف أشعار سلامة بن جندل أو اسمه تتمثل أمام بصرى صورة تلك المقاعة الهادئة وسط ضجيج الاسكندرية وصورة ذلك الشيخ الشاب ذى اللحية الفرنسية ، وصورة ذلك المخطوط الذى نسخ بخط جميل وحروف ضخمة ذات لون أخضر ولمعان ذهبى . وعندئذ يرن فى أذنى بدون انقطاع :

د أودى الشباب حميداً ذوى التعاجيب
لو كان يدركه ركض اليعاقب ! ،

وفى بعض الأحيان فقط تستيقظ فى أعماق الفؤاد فكرة تقول : أليس مما يدعو إلى الأسف أننى لم أكتب رسالة ماجيستر عن سلامة بن جندل ؟

٤ - مخطوطات بطريكين أم نبوءة تحققت .

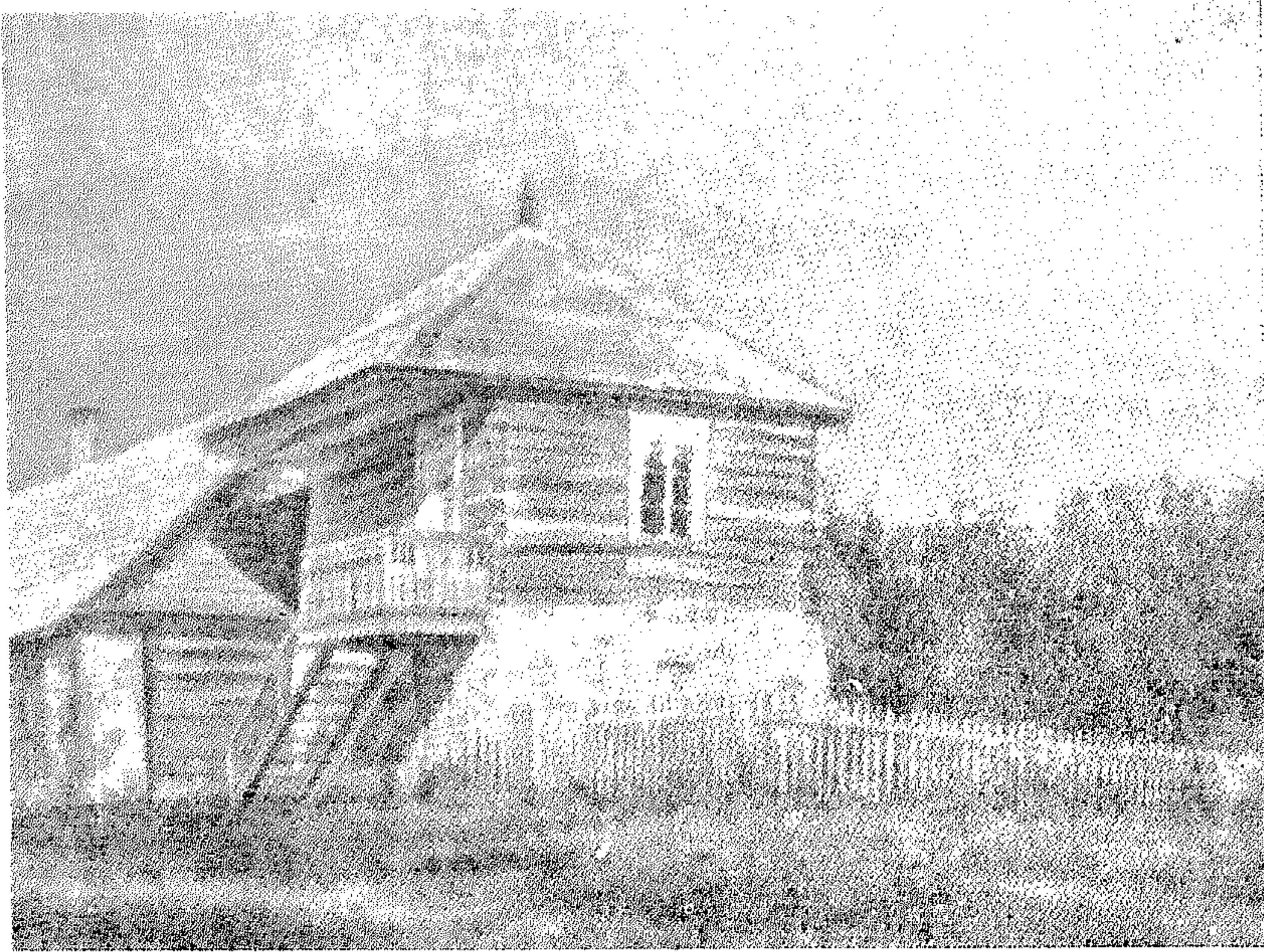
(١٩٠٠ - ١٩٢٧)

إن أعوام طفولتى الأولى ترتبط بمكتبه جد فريدة قضيت فيها كل عطلاتى الصيفية . فى ضيعة صغيرة وسط مبان اقتصادية مختلفة ، غير بعيد عن المنزل السكنى وبجوار اصطبل للخيل ومخزن للعلف كانت تقوم «ثلاجة أرضية» . بناؤها مربع ، مبنية جدرانها بكتل حجرية ، ويرتفع بمقدار علو الطابق الأول الذى يستخدم كثلاجة . أما الطابق الثانى فهو من الخشب ويؤدى إليه سلم خارجى ، وهناك على المبنى تقع حجرة سكنية المظهر . كبيرة ليس فيها ، مع ذلك ، سوى رفوف ودواليب للكتب ، وطاولة مستديرة وطاولة أخرى للعمل وبعض الكراسى وأريكة غير عريضة . وأما أثاث الغرفة فقديم ، وهو من أخشاب الدردار

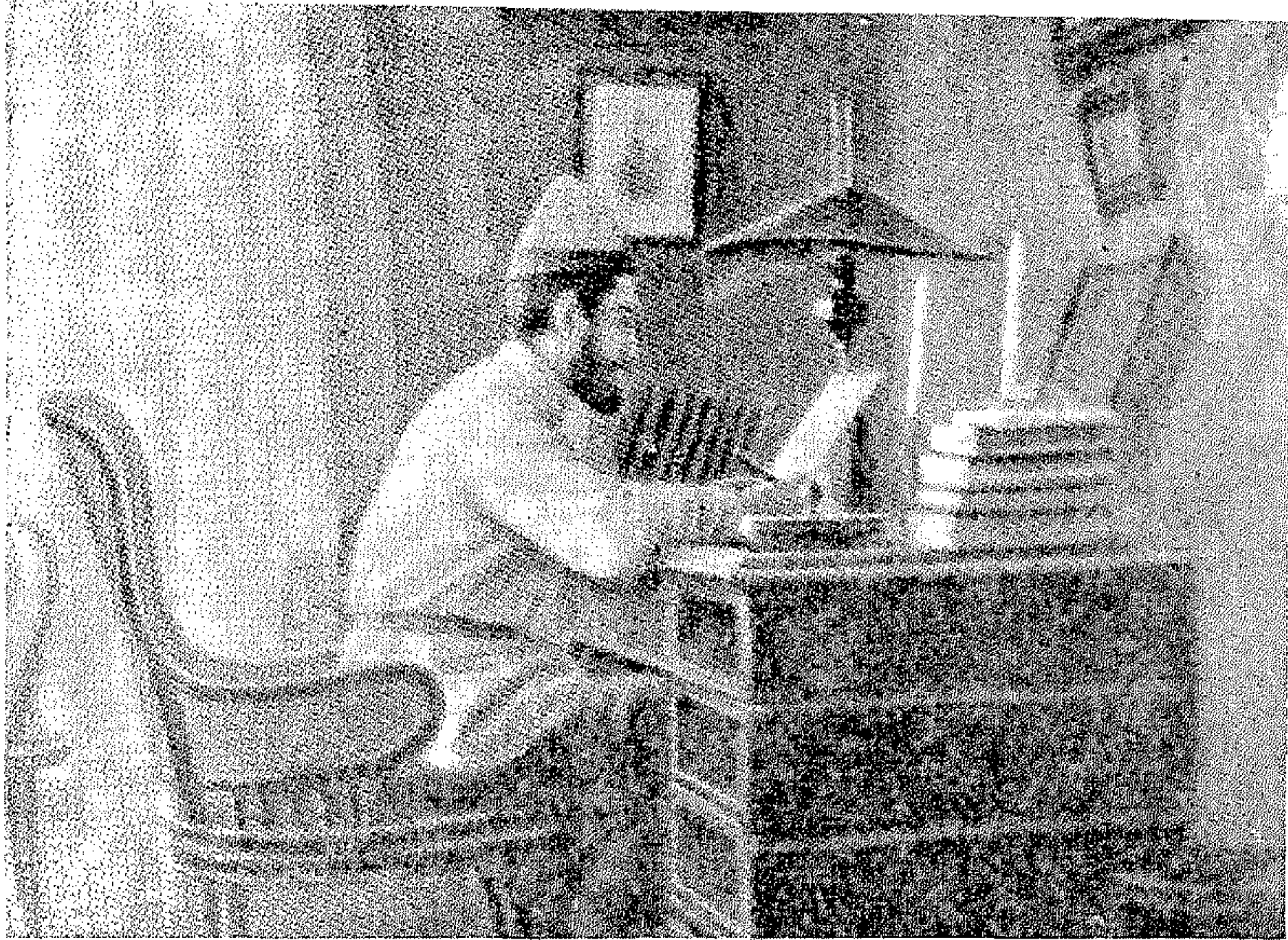
الفاقة ويكسوه قماش قديم أيضاً . وللغرفة باب زجاجي ونافتان تطلان على
بستان مجاور للبيت . وفي البستان شجرتان ضخمتان منذ عصر القيصرية ايكاتيرينا
وهما من نوع أشجار اليزفون تشمخان بارفعا علي كل ما حولهما وتريان على
بعد عدة فراسخ . وفي الجانب الآخر يمتد أفق عريض واسع يحتضن المروج
والنهر وبركة عليها طاحونة . وعلى مسافة بعيدة تقوم غابات يكتنفها السواد هناك ،
تلك الغرفة كنت أحيانا أفضي النهار وأحيانا أخرى أفضي الليل نائما على فراش
بسيط فوق تلك الأريكة الصغيرة .

ولقد حدث في أعوامي الدراسية القديمة أن التهمت من غير كل كل ما وجد
في هذه الغرفة من المجموعات السنوية الكاملة لمجلة « الارشيف الروسي » ومجلة
« القدم الروسي » ومجلات أخرى مشابهة . وبالمصادفة عثرت آنذاك على صورة
قديمة أعجبت بها في عدد كان قد نشر حديثا من مجلة « مطالعات جمعية التاريخ
والآثار الروسية » . ونظرت فيما كتب تحت هذه الصورة فإذا هي صورة لبطريك
أنطاكية مكاريوس . وعرفت المرة الأولى من المجلة أن البطريك مكاريوس
زار روسيا مرتين في زمن القيصر الكسي ميخائيلوفيتش . على أنه قد بقيت
في الحقيقة أشياء كثيرة مما قرأت غير مفهومة لي ، وفي مقدمة هذه الأشياء مسألة
كيف يمكن أن يكون هذا البطريك عريبا في حين أن كل العرب مسلمون ؟ هكذا
فكرت ببساطة . لكنني في ذلك الوقت تذكرت رواية « يوحنا الدمشقي »
لألكسي تولستوي . وبالإضافة إلى ذلك ، لم أفهم أيضا لماذا حل بطريك أنطاكية
من دمشق . ومرت عدة أعوام قبل أن أعرف أن العرب المسيحيين لعبوا دوراً
مهماً في الخلافة العربية ، وأن تاريخهم هو صفحة ممتعة في الثقافة العربية . ولكن
كل هذه الأشياء كانت في ذلك الوقت شيئاً غامضاً شأنه شأن الكلمات غير المفهومة
التي كانت تحت صورة البطريك مكتوبة بالعربية إلى جانب الكلمات اليونانية .
أما الصورة بالذات فقد كان مرسوما عليها رجل منحني قليلا وعلى وجهه تجاعيد
تم عن قسوة ولقد بقيت هذه الصورة منطبعة في ذكريات الشباب ، وظلت
هذه الذكرى مخزنة لمدة عشرة أعوام فيما بعد عندما رأيت في دمشق خليفة
البطريك مكاريوس وتحديث معه عن مخطوطات سلفه الراحل .

أن القدر الذي كان ينتظر تلك المكتبة — الثلاجة ، هو قدر سيء . فاطالما



مكتبة والد كراتشكوفسكى . لوحة بالالوان المائية لغيرا كراتشكوفسكايا . سنة ١٩١٥ .



الطالب في الصف الرابع من جامعة بطرسبورغ ا. يوه. كراتشكوفسكى يكتب بحث
« الخليفة الهندي » في صيف ١٩٠٤

خدمتني في فترات الصيف وفي سنوات التلمذة حتى رحلتني إلى الشرق . لكنني كنت فيما بعد قلما أزورها ، وكانت آخر مرة زرتها هي في تموز (يوليو) ١٩١٥ . وتركتها بنفس يسيطر عليها شعور قلق . ففي ذلك الوقت كانت الرياح تحمل إلى الأذان صوت طلقات مدافع تدوى من بعيد . ولم أكن أتوقع في ذلك الوقت أن الجنود الألمان سيقومون بعد عدة أشهر بتدمير هذه المكتبة وما بها من كتب . لم تبق صورة البطريك سليمة إلا في ذاكرتي .

و حين صار التلميذ طالبا غدت ملاح هذه الصورة كأنما هي قد انتعشت . وعليت أن رحلة البطريك مكاريوس قد وصفها ابنه بولص الحلبي وأن كتابه مصدر هام جدا من مصادر التاريخ الداخلي لدولة روسيا الموسكوية . وعرفت أيضاً أن هذا الكتاب قد ترجمه إلى اللغة الروسية مرقص الدمشقي الذي كان أستاذا بجامعة موسكو . وفيما بعد استحوذ على نفسي ذلك الداء العضالي وأعنى به دحب المخطوطات ، عرفت أن هذه الترجمة كانت عن نسخة جديدة ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وأن النسخة الأصلية التي يرجع تاريخها إلى عام ١٧٠٠ قد تلفت في فترة مذبحة المسيحيين في دمشق ١٨٦٠ كما يعتقد بعض العلماء . ولقد تذكرت هذا مرارا أثناء رحلتي إلى سوريا . ومن بين مئات الأحلام التي استحوذت على كان يبرز أحيانا الحلم التالي : دحبنا لو يتمكن عالم روسي من العثور على المخطوط القديم لرحلة مكاريوس إلى روسيا ، ومر عامان على هذا الحلم دون فائدة ، واستطعت في هذين العامين أن أقوم بزيارة خاصة لذلك المترجم مرقص الذي كان يعيش آخر أيام حياته في هدوء بقرية صيدنايا قرب دمشق . ولكنه لم يستطع أن يخبرني بشيء جديد . على أنني ما كنت أريد العودة إلى وطني دون القيام بمحاولة أخرى لزيارة مكتبة غريغوريوس الحداد البطريك الإنطاكي ، تلك المكتبة التي كانت تروج عنها إشاعات خيالية وكان كثير من الناس يحكون أشياء غريبة عما يصادفونه في تلك المكتبة ولكنهم كانوا يضيفون إلى ذلك دائما والبسمة تعلو وجوههم أن الحداد ما كر وأنه يتماكر على الجميع حتى لا يريهم كل الكنوز التي تحويها مكتبته . إلا أنني كنت أعتقد أن هذه الأشياء غير صحيحة . ذلك لأنني كنت بعد عامين قد ألفت طبيب النفس لدى المسلمين و « الفرنجة » الذين كانوا يفتحون عن طبيب خاطر لذلك المستشرق القادم من أقصى بقاع الأرض كل ما حوته مجموعاتهم من الكتب . ولقد كان من الصعب الإقراض بأن خليفة مكاريوس سيخفي هذه الكنوز العلية عن الروسي الذي أحب اسم مكاريوس منذ طفولته .

وعلى كل حال فقد كانت زيارتي الأولى لدمشق غير ناجحة . فقد كان البطريرك مسافرا في ذلك الوقت . ونقلت لي السنة السوء فيما بعد أن البطريرك رجع في نفس اليوم الذي سافرت فيه . ولكنني إعتبرت هذا أيضاً من الكلام الفارغ المألوف . وفي المرة الثانية حين تأهبت للعودة إلى روسيا لم أستطع أن أكبج في نفسي جماح الرغبة الشديدة في زيارة ثانية لعاصمة الخلفاء الأمويين القديمة ، ومقصدي الأساسي من هذه الزيارة هو نفس المقصد السابق . وعزمت هذه المرة على العمل بطريقة رسمية ، مع أنني لأميل إليها عادة . وفعلت توجّهت طالباً بمعونة القنصل الروسي في دمشق . وكان على قسطنطين الشهيرة كجامع آثار عن الكلدانيين القدماء ، كما كان أيضاً رفيقاً لأحد أساتذتي في جامعة بطرسبورغ . ومع أنه كان يفهم جيداً حقيقة شعوري فقد حذرنى — كما فعل عند زيارتي الأولى — في عبارات يرددها كل أهل دمشق مفادها أن الحداد رجل ماكر .

ولكنني فرحت فرحاً شديداً عندما علمت بعد وصولي إلى دمشق بأن البطريرك سيستقبلني في اليوم التالي . ولكن هذا الاستقبال كان ، مع الأسف ، في جو احتفال ضم عدد كبيراً من المدعوين . وكانت الصورة التي اتخذها هذا اللقاء هي التعريف بي كشخص روسي . ودار الحديث حول شخصي أكثر مما دار حول المخطوطات ، وعندئذ رأيت أن أكون إنساناً حازماً ، فتحدثت مباشرة عن الهدف الرئيسي من رحلتي . وحالفني النجاح في الحصول على موافقة البطريرك على الالتقاء معه لقاء شخصياً بعد يومين . وذهبت في الوقت المحدد إلى البطريرك وابتدأت المخاوف التي كانت قد انتابتنى تتلاشى عندما رأيت البطريرك في وضع منزلي وليس عنده سوى مدير المدارس والكاتب الخاص . وأما البطريرك نفسه فهو مستدير الوجه ، مكتنز الجسم وليس بظويل القامة ، وهو يشبه قليلاً سلفه في القرن السابع عشر . وكان الحقيقة مثالا دامراً الكنيسة ، الجدد في الشرق الذين كنت أعرفهم جيداً . والشئ الذي لم تسترح إليه نفسي هو تلك المبالغة في اللطافة . حتى تلك العبارات العربية العادية « بيتنا بيتكم » ، نحن تحت أمركم ، كانت ترن في أذني كشئ متكافئ مصطنع . وفي هذه المرة لم أمكنه ، مع ذلك ، من تجنب الحديث عن موضوع المخطوطات وظهر من حوارى معه معرفة التي لاشك فيها عن الأدب وبخاصة الأدب العربي المسيحي . وهو أمر كان يهمني بصفة خاصة في ذلك الوقت . فوجهت إليه بعض الأسئلة الصريحة . ولكنني ، رغم هذا ، كان يرد بأجوبة

هلثوية وفي بعض الأحيان كان يجيب بابتسامة خفية لم أسترح إليها قائلًا: « يبدو لي أن هذا موجود عندي ، أو سمعت أن هذا موجود في حلب ، أو لقد آرائني هذا أحدهم ، . وعندما فرغ صبرى وتحدثت عما يشاع عندنا عن المخطوط الخاص برحلة مكاريوس سنة ١٧٠٠ ، لمعت على شفثيه من جديد ابتسامة متحفظة وأشار بصورة شبه ملاغزة : « ولكن ماذا ؟ طبعاً لم تحرق كل المخطوطات في ذلك الوقت ، . وهكذا لم يرني أي شيء في ذلك اليوم أيضاً . وقيل لي أن كل الكتب كانت موضوعة في صناديق بسبب ترميم يجرى في الحجرات الداخلية . وعندئذ لجأت إلى حجة غريبة فقلت إنني مضطر للعودة إلى روسيا بعد عدة أسابيع ، وهناك سيكونون غير مرتاحين بالطبع عندما يعرفون أنني رأيت مجموعات مكتبة جامع الأزهر في القاهرة وجامعة القديس يوسف في بيروت ومجموعات الأسقفية المارونية في حلب ، أما في دمشق فلم أتمكن من رؤية المكتبة المشهورة لبطريك أنطاكية الصديق الكبير لروسيا . وظننت أنني ، هذه المرة ، قد أحرزت الغلبة على هذا الماكر المشهور . ورأيت البطريك وكأنما استغرق في تفكير لمدة دقيقة ، ثم قال لي بنفس الابتسامة المتحفظة التي لم أسترح إليها : « نحن تحت أمرم دائماً . إنني سأمر بفتح جميع الصناديق غداً ، ويوم الخميس سترون كل ما منح الله بيت هذا العبد الفقير ، . ولقد شعرت عند ذاك بمنتهى الفرح والسرور .

ومر اليومان بسرعة وذهبت إلى البطريكية في الوقت المحدد . ولم أجد القواس عند الباب . فالهدوء يخيم على المكان ، وليس ثمة زوار خلافاً للعادة . وعندئذ شعرت بأن وراء الأكمة ما وراءها . ولقيتني في قاعة الاستقبال مدير المدارس ذاك فقال لي بابتسامة لطيفة معهودة : « لقد سافر غبطته إلى الشمال بالأمس ، وخشى ألا يتمكنوا بدونه من إطلاعكم على المخطوطات كما ينبغي . ولذلك لم يأمر بفتح الصناديق ، . وسألته بطريقة غير لطيفة بعض الشيء : « ولكن ألم يكن يعرف أول أمس أنه سيسافر ؟ ، فأجاب الراهب مدير المدارس — وكأنه لم يسمع سؤالى — بطريقة منافقة كما حدث سابقاً : « أبونا تأسف كثيراً . وأمرني أن أعرف ما إذا كان لديك رغبات ما ، . وعندئذ طاش صوابي فلم أتمالك نفسي من شدة الغضب ، وقلت بكلمات حازمة صارمة : « قل لأبيك أنه عبثاً يحاول إخفاء مخطوطاته عني . وعلى كل حال فإن هذه المخطوطات ستصل إلى يدي ، .

وفي اليوم التالي غادرت دمشق . وسرعان ما عدت إلى روسيا ناسياً تماماً تلك العبارة الصارمة التي انطلقت من فمي موجهة إلى مدير المدارس دون توقع . وما كنت أنا نفسي أفهمها . على أنه يقال إن اللعنة أو الرغبة كثيراً ما تتحقق إذا ما كانت مشتتة بنار الغضب عن غير قصد ، فما كنت لأفكر مطلقاً بأنني سأكون نبياً ، وأن البطريك نفسه سيكون أول معين لي على تحقيق هذا الهدف الذي سافرت من أجله إلى دمشق .

ففي عام ١٩١٣ . عندما احتفل بذكرى عائلة رومانوف القيصرية ، كان من بين المدعوين إلى هذا الاحتفال غريغوريوس الحداد البطريك الأنطاكي . وعلمت أكثر من مرة بعد وصول الحداد إلى بطرسبورغ أنه يود أن يراني وأنه سيكون مسروراً لو أنني زرته .

لكنني تذكرت بصورة حية ما كان من أمره نحوي في دمشق ففضلت أن أتأساه . وعلى هذا لم ألب دعوته . عرفت أيضاً من أخبار الجرائد أنه أحضر لعائلة رومانوف هدايا من الشرق وأن من بين هذه الهدايا كتباً . لكنني مع هذا لم أعر ذلك أهمية كبيرة . يتبد أنه بعد سفر الحداد ترددت إشاعات كثيرة حول المخطوطات الشرقية التي أحضرها ، وهن جديد غلبني ذلك الشعور القديم والقلق المستمر . واستطعت بطريق الاستفسارات المختلفة أن أستوضح جلية الأمر ، وعرفت أنه بعد الاحتفال وبعد رحيل البطريك ، قد سلت — فعلاً — مخطوطات شرقية ما إلى المكتبة الخاصة لجلالته ، في القصر الشتوي . ولم يكن بالأمر اليسير على — كمساعد أستاذ ناشئ — أن أقترح حدود هذا القصر . لكن إصرار أكاديمية العلوم ساند هدفي وساعدني في التغلب على العقبات التي وضعتها أمامي كل من وزارة البلاط والشرطة وحرس القصر . وأخيراً حصلت على إذن بزيارة المكتبة . طبعاً في الأوقات التي لا تكون فيها أسرة القيصر في بطرسبورغ . وخلال مرات الأقبية الملتوية وبمصاحبة حرس خاص دخلت قاعات المكتبة حيث كان مستخدموها يراقبونني ويتطلعون علي . وكان رئيس المكتبة سيداً من رجال البلاط القيصري لا يأتي إلى المكتبة كل يوم . وكان نائبه كولونيلا وكان الغرض من وجودي بالمكتبة غير واضح تماماً لكل منهما . ولعل هذا هو السبب في أن أحد المستخدمين كان يجلس أمامي على المنضدة ومعه رواية

فرنسية ، وكان ينظر إلى باهتمام متتبعاً ماذا أفعل . وكانت شروط العمل غير ملائمة ولا مريحة فلم يكن يسمح لي بأكثر من مخطوط واحد . والمخطوط الذى أطلع عليه لم يكن يسمح لي بأخذه مرة ثانية . وكانت أوراق المخطوطات بدون أرقام ، طبعاً ، وهو أمر كان يصعب الاقتباسات العلمية إلى أقصى حد . وما كنت أعرف السبب الذى من أجله لم يسمح لي بقياس طول وعرض صفحات المخطوطات . ولم يكن يوجد فى المكتبة أى كتاب يمكن الرجوع إليه كمصدر فى هذا الموضوع . ولم أستطع أن أحمل معى إلى المكتبة مثل هذا المصدر ، لعدم السماح بهذا . ولقد فحصت بدقة واهتمام كل الملاحظات والاقتباسات العلمية التى نسختها من هذه المكتبة . وكانت هذه الملاحظات لا تعاد إلى بسرعة . وبالمصادفة عرفت بعد ذلك أنه كان يجب أن ترك هذه الملاحظات فترة من الزمن حتى يتمكن أحد الخبراء من فحصها فلربما تكون هذه التسجيلات العربية « مشفرة سرية » . كل هذه المضايقات كانت موجودة ، وكانت قائمة . ومع هذا فقد نسيت كل هذه المضايقات لحظة وقع فى يدي أول مخطوط ونظرت فيه بعجالة ، متسرعاً فى معرفة ما يحويه المخطوط التالى من أشياء غير متوقعة .

أهدى البطاريك إلى القيصر أكثر من ٤٠ مخطوطاً هى مجموعة كاملة شكلت طبعاً بمعرفة شخص خبير فى هذا الموضوع . وكانت فى الحقيقة عظيمة ورائعة ، وغالبيتها مخطوطات فريدة لا توجد لها نسخ أخرى مماثلة ، وهى تصور على نحو رائع جوانب مختلفة من الأدب العربى المسيحى . وكان ما يقرب من نصفها مؤلفات وتصانيف لما كاريوس الأنطاكي أو لابنه بواص الحلبى . وهى كلها تقريباً مكتوبة بخط الأخير الذى كان خطاطاً عظيماً . ويشير عنوان أحد المخطوطات إلى أنه فى زمن وباء الطاعون فى روسيا وفى الفترة التى خاض فيها القيصر السكسى ميخائيلوفيتش غمار الحرب ضد بولونيا شغل النسخ أوقات الفراغ فى بلدة كولودنا . والحقيقة أن يدي أصابتها رعشة وارتعاد عندها وقعت عيني على مخطوط يرجع تاريخه إلى عام ١٧٠٠ ويتضمن رحلة مكاريوس فى روسيا . كان من المعتقد أن هذا المخطوط قد أحرق . وها هو ذا مانى أمامى كاهلاً سليماً ، منسوخاً بخط دقيق يحمل طابع خطوط القرن السابع عشر . على أننى لم أكن أفيق من مفاجأة حتى كنت أقع فى مفاجأة أخرى يحملها مخطوط آخر . ولقد كان واضحاً لى أن .

بلادنا قد حصلت بهذه المجموعة على مجموعة لآثار الأدب العربى المسيحى لا تقل من حيث النوعية عن المجموعات القديمة والحديثة المحفوظة فى باريس أو الفاتيكان أو بيروت. وصار واضحاً فى ذهنى مشروع Catalogue raisonné — فهرس علمى يشتمل على موازنات مأخوذة من المجموعات الماثلة من المخطوطات ، ويشتمل على اقتباسات كبيرة من مجموعات أخرى وعلى القائمة الكاملة لمؤلفات مكاريوس وابنه بولص . وكل هذا طبعاً ، أمل المستقبل . أما الآن فقد كان العمل فى القصر الشترى يسير ببطء . وكان عملى ينقطع مراراً بسبب عردة عائلة القيصصر أو لعدم إمكانية ذهاني إلى المكتبة فى تلك الساعات التى كانوا يغيرون موعدها كل يوم على أننى أخذت أنظر بعض المجموعات الأخرى فى بطرسبورغ بحثاً عن الموازنات . وهكذا حتى صيف ١٩١٤ أنهيت وضع الفهرس الأولى لمجموعة القصر ، وكنت أشعر فى كل دقيقة أن قصر الشتاء ليس البتة مكاناً مناسباً لهذه المجموعة .

فى ذلك الصيف بالذات ، عندما سافرت إلى الخارج ، أخذت أبحث باهتمام عن بعض تصنيفات مكاريوس ، الموجودة سواء فى مكتبة جامعة ليزرغ الرائعة المزويد ، أم فى ذلك البناء المتواضع ، التابع لـ Deutsche Morgenländische Gesellschaft. (جمعية الاستشراق الألمانية) ، فى مدينة هاله حيث كنت مراراً الزائر الوحيد ، ولذا كان على أن أضع المفتاح فى المسكان المتفق عليه بعد أن انتهى من عملى كل يوم . وكانت آخر مكتبة على طريقى فى تلك السنة هى مكتبة جامعة ليدن حيث توجد مجموعات دوارنر ، فى غرفة هادئة هناك . وفى أثناء إقامتى هناك أشعلت نيران الحرب فتركت هناك لمدة أعوام طويلة كل ما حصلت عليه من مادة علمية .

والأمر الذى أثار دهشتى الكبرى أنه قد تحققت تماماً تلك العبارة الغاضبة التى انطلقت من فمى عندما كنت فى دمشق . فبعد ثورة أكتوبر حين أصبح للكنوز التى جرى جمعها طوال القرون ، مكان مناسب ، تذكرت مجموعة البطريك فى المكتبة الخاصة لجلالته ، التى لم يكن يتصور أحد أنها تحتوى على مثل هذه المجموعة . وقد تسكل بالنجاح وبسرعة طلب الأكاديمية بإحالة هذه المجموعة إلى المتحف الآسيوى . فى يوم من أيام الشتاء الباردة فى ١٩١٩ ،

وبصحبة مساعدى التلميذ ، وعلى زحافة ، وفى شوارع بيتروغراد (بطرسبورغ سابقاً) الخالية من الناس ، نقلت المخطوطات الأربعين كلها لافا أياها فى معاطف من جلود الخراف إلى بناء قديم المتحف الآسيوى بالقرب من بناء الأكاديمية ذى الأعمدة . كنت فى ذلك الوقت أميناً على شعبة الشرق الأدنى . ومن جديد مرت جميع المخطوطات عبر يدي بكل معنى الكلمة . وهناك استطعت أن أدرسها كما أشاء وبدون تسرع وفى ظروف تختلف تماماً عن ظروف القصر الشتوى . وفى بعض الأحيان كنت أهدى بالابتسامة زيارتى الأخيرة لبطريك أنطاكية فى دمشق حيث رحلت المخطوطات إلينا من هناك .

ولم يعكر صفو فرحى إلا شيء واحد، هو أن القائمة الأولية بجميع الاقتباسات قد بقيت فى هولندا . صحيح أنها رجعت إلى بغير سرعة وتسليمها فى وقت كنت مشغولاً فيه بأعمال كثيرة أخرى لم تمكننى من مواصلة هذا Catalogue raisonné الفهرس المشار إليه . فاكثفت بنشر وصف مختصر . لست أدري كيف يكون موقف البطريك الذى توفى فى نهاية ١٩٢٨ لو رأى أن كثيراً من مخطوطاته أصبحت معروفة ومشهورة بين العلماء . وكان من مخطوطات البطريك فى بطرسبورغ كتاب التوراة العربى فى ثلاثة مجلدات ، وكان وجودها لدينا مبعث غيرة لدى الفاتيكان . وتولد عنها كتب كثيرة خاصة بها . وتولد عنها أيضاً جدل ونقاش كثير يتعلق بمقارنة أهمية مخطوطنا بنسخة روما . وكانت من مخطوطات البطريك أيضاً مجموعة أبحاث الأطباء العرب عن طب العيون ، وهى نسخة نادرة جداً أثارت ضجة كبيرة بين المتخصصين فى تاريخ العلم . والنسخة الأخرى لهذه المجموعة الطبية العربية كانت موجودة فى مكتبة صديقى تيمور باشا . وهذه النسخة الأخيرة قد أتاحت نشر جزء كبير من المخطوط فى طبعة منقحة لجامعة القاهرة . وأما وصف جورجيا وهو بخط البطريك مكاريوس فقد درسه باهتمام مستعرب جورجى . كذلك تشمل المجموعة كثرة من المخطوطات القيمة الأخرى . ومن حسن حظ العلم أن الحياة قد أظهرت أن هذه المخطوطات قد لقيت ما تستحق من التقدير والتقييم .

وهكذا لم يستطع البطريك غريغوريوس الحداد أن يكون بمثابة الفارس

البخيل ، الذى اعتقد أنه يستطيع إخفاء كنوزه عن عيون الآخرين . لكن
ها هى ذى العيون تفتح هذه الثروة بفرحة جياشة ، وبهذا تمكن العلماء من إنارة
صفحات جديدة فى تاريخ الحضارة البشرية .

وها أنا الآن التقي أحياناً مع صورة مكاريوس ، ونظرتة ما تزال هى هى
كسابق عهدا صارمة مستفسرة تشبه تماماً تلك النظرة التى كان ينظر بها إلى ذلك
التلميذ الشاب فى تلك المكتبة العجيبة . وأجد نفسى على غير إرادة منى أخاطبه .
مبرئاً نفسى : ، لقد جهدت أن أعمل كل ما فى وسعى من أجل مؤلفاتك ! ،
ومن جديد ، وبأسى لا يخبو أبداً ، تقف أمامى ذكريات عن المكتبة الأولى .
التي احتضنتنى فى طفولتى .

٣ - كتاب عرب ومستعرب روسي

١ - « فيلسوف وادي الفريكة »

(١٩١٠ - ١٩٤٠)

يتاح للمستعرب القيام باكتشافات كثيرة . ولعله يلقي منها على طريقه أكثر مما يلقي الباحثون في المجالات العلمية الأخرى التي هي أعمق تنقيباً وتستدعي عدداً أكبر من البحاثة . ولا داعي للتفكير في أن هذه الاكتشافات لا ترتبط إلا بالمخطوطات ولا داعي لمثل حزن تلك الفتاة الشابة الباحثة في الأدب التركي التي قالت لي وهي مهمومة إنه ليس عندهم مخطوطات قديمة إذ أن الأدب التركي نفسه أدب ناشئ . فبقدر ما نقرب من أيامنا هذه ، تلعب الكتب مثل الدور الذي تلعبه المخطوطات . ففي بطون الكتب أيضاً يمكن للمرء أن يتوصل إلى اكتشاف علمي . فأحرى أن يقال هذا فيما يتعلق بالخطابات والمراسلات التي تسنى لها اختزان مشاهدات قيمة معاصرة .

وتكون الاكتشافات أحياناً من الكثرة بحيث لا يعرف المرء إلى أين يهرب منها . فقد كنت على الدوام لا أفهم كيف يمكن للمرء أن يبحث عن الموضوع أو يطلب الإشارة إليه حين تلتف شتى الموضوعات حول العالم منذ أول خطوة من خطوات حياته العلمية . والحقيقة أن مأساة مجالنا العلمي هي وفرة الموضوعات فيه . فإذا تقيدنا بطريقة علمية دقيقة فلا بد لنا من اقتضاب مجال البحث . وعندئذ تكون النتائج أعمق . ولكن المرء لا يستطيع أحياناً السيطرة على نفسه لا سيما حين يكون عليه أن يبقى في مجال بصره كلا من الأدب القديم ، والأدب الحديث الذي لا يمكن للمرء إغفاله الآن حابساً نفسه في إطار الأنانية العلمية لمستعرب كلاسيكي . ففي مجال الأدب الحديث تمنح الحياة نفسها اكتشافات عديدة وسعادة كبيرة لمن يستطيع أن يلح بعينه هذا الأدب في مهده .

لكن المقادير لم تهني هذه الفرصة . فأنا لم أزر الشرق إلا مرة واحدة .

وبالطبع كانت مهمتي في الرحلة الأولى تقتصر على التعرف الأولى . وكان ينبغي أن تتبعها رحلات أخرى حقيقية مرسومة منظمة . لكن هذا لم يحدث . وكثيراً ما حزنْتُ على ذلك في الفترات الأولى بحكم تفكير الشباب . إلا أن الحياة علمتني أن التعرف الجيد على إنسان لا يقتضى حتماً الاتصال به اتصالاً مباشراً . فالكتب والخطابات والصور تكشف عنه إلى درجة كبيرة بل وتكون أحياناً أحسن تخييراً من المعاشرة الشخصية . ومع أنني لم أتمكن من دراسة الأدب المعاصر إلا من بعيد فإنني مع هذا قد توصلت إلى كثير من الاكتشافات في هذا المجال .

وقد اعترف بهذا زملائي من المستعمرين الغربيين الذين سافروا كثيراً إلى البلاد العربية . وكنت أشعر أحياناً بالأسف لعدم تمكّني من السفر مثلهم . وفي عام ١٩٣٠ ، وبشعور يشوبه شيء من المرارة تجادلت مع عالم ألماني محترم عارف بالشرق العربي الحى عندما أراد ، في أحد مؤلفاته العلمية ، أن يكتب باللغة العربية تحت صورتى : « أول من انصرف في الغرب إلى دراسة الأدب العربي الحديث » . برهنت له على أنه كان قبلي أيضاً علماء اقترّبوا من هذا الموضوع . لكنه كان صارماً ولم يضيف جواباً على اعتراضاتي إلا كلمة واحدة : « أول من انصرف بانتظام ... » . وبعد ذلك بخمسة أعوام شامت المصادفات أن أتسلم رسالة لطيفة باللغة العربية من مستعرب انجلازي كبير على معرفة بمصر والبلاد العربية الأخرى نتيجة لرحلاته المتعددة . ومعرفته بالبلاد العربية لا تقل عن معرفته لوطنه . وربما أكون غير منصف إذا أنا نسبت كلماته كلها إلى ما هو معروف عن الأسلوب العربي . ففي كلامه لى يقول : « لقد فتحت أمامى باب الأدب العربي الحديث وأظهرت لى كثيراً من أسرار الأدب العربي القديم ... » . ولقد رفعتنى بتعظيمك لى وإن نجمتى الصغيرة لا تلمع إلا من سنا شعاع شمسك .

وهكذا جاءت آراء الآخرين تؤكد شعورى الخاص بأنه من الممكن دراسة الأدب العربي المعاصر على بعد منه وبأنه من الممكن التوصل إلى اكتشافات عن طريق الكتب والرسائل . وأننى لا تذكر الآن بشعور خاص من الارتياح كيف

أسعدنى « اكتشاف » بعض الكتاب المعاصرين فى وقت لم يكن يعرفهم فيه أحد . فى أوروبا ، حيث لم يكن هناك بصفة عامة من يعرف الأدب العربى الحديث ، وحتى فى بلدانهم بالذات . أما الآن فهم جميعاً كلاسيكيون يعترف بهم كل العالم العربى .

حدث أن التقيت بأحدهم فقط ، وهو أكبرهم سناً ، مرة واحدة فى بيروت . كان لقائنا فى ربيع عام ١٩١٠ قبل عودتى إلى روسيا بوقت قليل . كان لقائى بأمين الريحانى مصادفة فى قسم التحرير لإحدى الجرائد الصغرى وكان قد رجع من أمريكا منذ مدة قليلة . واسترعى انتباهى مظهره الخارجى وتعمقه فى التأمل الذى كان يبدو حتى فى أصغر المحادثات . وكثيراً ما رجعت بعد ذلك فى الأفكار إلى ذلك الرجل غير العادى بالنسبة للعرب الذى أصبح فيما بعد قائد المدرسة السورية الأمريكية فى الأدب الحديث (مدرسة المهجر) . ولقد أحسست من الوهلة الأولى بأن لديه مقدرة كبيرة ترتفع فوق مقدرة كل الصحفيين والخطباء الكثيرين آنذاك بل والمشهورين أحياناً فى سوريا ولبنان اللذان عرفتهما جيداً .

على أن الإحساس الأول — وهو غريزى بالطبع — لم يخدعنى ، بل تبين صدق هذا الإحساس عندما ظهرت فى تلك الفترة مجموعة مقالاته وأشعاره المنشورة فى جزئين . وكان ظهور هذا الشعر المنشور حدثاً كبيراً فى الأدب العربى . فأردت تعريف القراء الروس بهذا المؤلف . وفعلاً ظهر كتابى الذى يحوى ترجمة من أمين الريحانى . لكن ذلك كان فى فترة صعبة من الزمن ، قبل ثورة أكتوبر بأسبوعين . وبحسب وجهة نظر بعض الشخصيات الصحفية كان ظهور هذا الكتاب فى ذلك الوقت كالنغمة النشاز تدق فى غير أوانها . وكانت النتيجة أن المستعرب المترجم لم ينل سوى الزجر والتأنيب على صفحات الجرائد . لكن شخصاً واسع الأفق مثل نيقولاى مار لم يبال بالخوف وأوضح فى مجلة خاصة أهمية أمين الريحانى فى ضوء واقع حياتنا فى تلك الفترة .

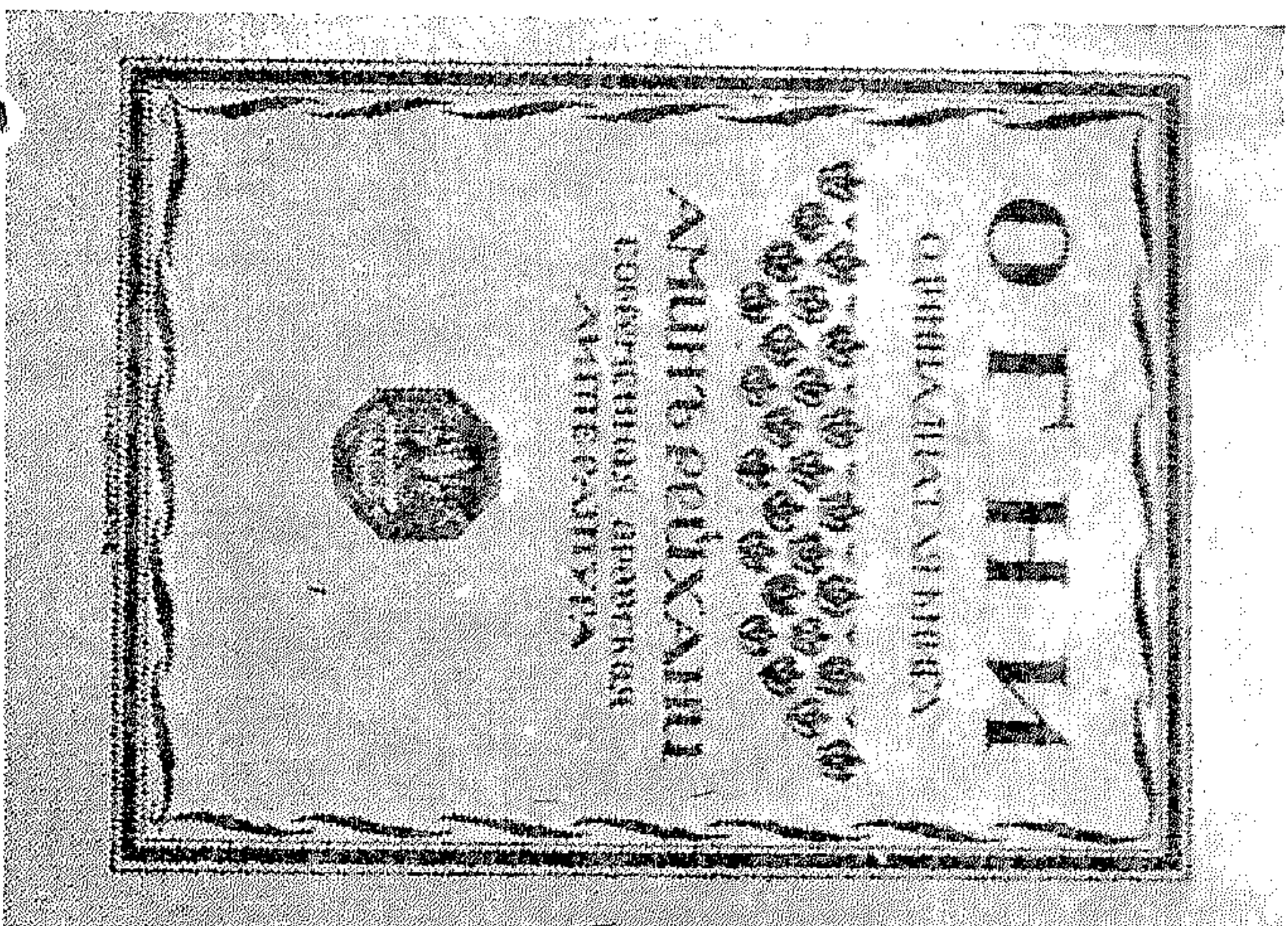
وفى النهاية استطاع كتابى أن يجد طريقه إلى الريحانى ، ووصل إليه ،

ولكن ببطء . كان ذلك بعد أن رجعت مرة أخرى إلى أشعار الريحاني المنشورة في مجلة « الشرق » الروسية التي أسسمها مكسيم غوركي . وكانت نظرة غوركي إلى كل من المؤلف والمترجم تختلف عن نظرة أولئك النقاد الصارمين قصيري النظر في تلك الفترة ١٩١٧ — ١٩١٨ . ووصلت عن طريقنا إلى الغرب معلومات عن أمين الريحاني . كان ذلك في إحدى المحاضرات التي أعددتها لجامعة أوبسالا في ردى على الدعوة التي وجهت إلى للسفر إلى هناك لإلقاء بعض المحاضرات . وقد حاولت في هذه المحاضرة أن أعطي صورة لمعالم المدرسة السورية الأمريكية والمهجر، في الأدب العربي الحديث . وكانت هذه الدراسة « الباب » الذي أشار إليه المستعرب الإنجليزي . واحتوت المنتخبات من الأدب العربي الحديث المطبوعة في لينينغراد على مقتطفات للريحاني في مختلف الفترات من حياته . ومن هذا الكتاب انتشرت ترجمات مطبوعة في كل البقاع من أمريكا حتى أوكرانيا حيثما يوجد قراء بالعربية .

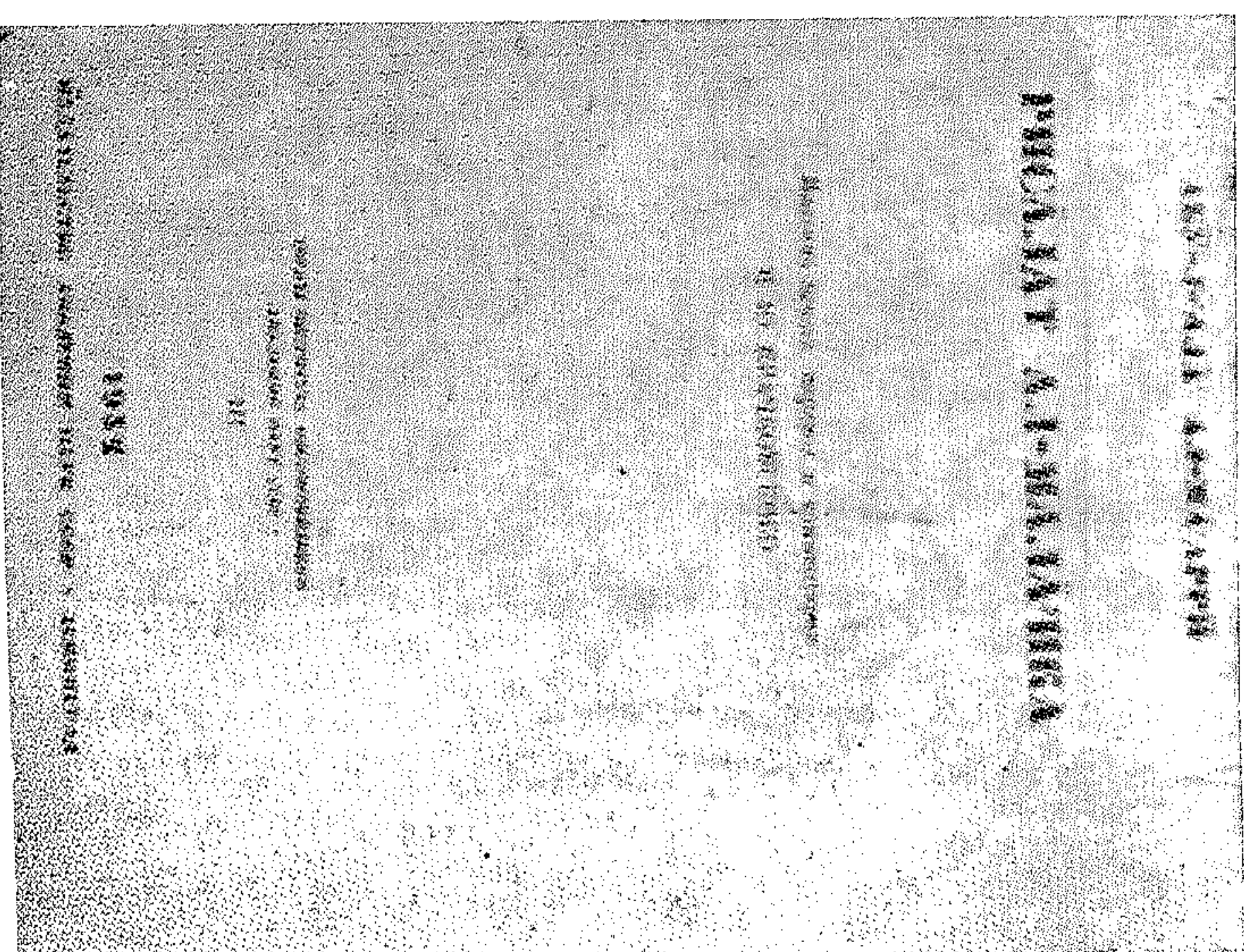
كنت سعيدا جدا عندما تسليت من الريحاني عام ١٩٢٨ رسالة من وادي الفريكة في لبنان ، ذلك الوادي الذي ارتبط إلى الأبد عند العرب باسم الريحاني . وفي هذه الرسالة نظم الريحاني كلماته بخطه الشخصي الذي يحمل طابعه وبالطريقة المائلة في الكتابة حسب التقاليد القديمة ، وفي هذه الرسالة يقول : « إني أكتب إليكم من الوادي الذي له في قلبكم شيء مما له في قلبي . وقد يكون الصدى أعجب وأجمل في بعض الأحياء من الصوت نفسه . أما هذا الصدى البعيد فان هو إلا الحب الاصيل الاكيد . والغريب في من ينتقدون الكتب والكتاب من أبناء وطني هذا أن أرقهم شعورا . وأعظمهم في التفكير غورا ، لم يدرك ما ادركتموه من كنه الطبيعة وصورها الباطنية التي حاولت في ما كتبت أن أنقل بعضها إلى قرائي . وقد جئتم أنتم في ما كتبت عن وعن هذا الحب بما هو كنه حبي وصورته الباطنية أو بالحرى الروحية . بل أراكم تتغلغلون إلى القلب ، وفيه ، فتقرأون في لوحته الشخصية السرية ما لا يستطيع قراءته حتى أقرب الناس إلى . مما يثبت اعتقادي ويوطد يقيني أن نسب الروح هو أقرب الأنساب وأصحها ... سلام أزكي من زنبق الوادي في هذه الأيام وأرق من دوين الجبل وهذه زهرة منه



أبو الغلاء المعري (٢٦٣ - ٤٤٩ هـ - ٩٧٣ - ١٠٥٧ م) برشة الكاتب
اللبناني الأديب والرسام جبران خليل جبران
(١٨٨٣ - ١٩٣١)



• غلاف كتاب أمين الريحاني من ترجمة كراشكوفسكي .
صدر في بطرسبورغ سنة ١٩١٦



الصفحة الاولى مؤلف ابي الهللاء المعري « رسالة الملائكة »
الذي وجدته كراشكوفسكي في مكتبة الازهر في كانون الثاني
(يناير) ١٩١٠ ، وقد طبع في لينينغراد سنة ١٩٣٢ .



أمين الريحاني (١٨٧٩ - ١٩٤٠)

تحمل اليكم حى وسلامى ، . وكانت موضوعة فى الخطاب زهرة جافة ما زالت
تقد كرنى حتى الآن بوادى الفريكة وفيلسوفه .

ومرت أربعة أعوام . واستطعت أخيراً ، بعد عمل استغرق عشرين عاماً
أن أنشر رسالة هجائية دقيقة لأبى العلاء هى « رسالة الملائكة » . وكان من أوائل
الأشخاص الذين تذكريتهم هو أمين الريحانى الذى سبق له فى بعض كتبه باللغة الانجليزية
أن عرف القراء الأوربيين بالحكيم المتشائم الأعمى مؤلف « اللزوميات » ،
و « رسالة الغفران » ، و « رسالة الملائكة » . ولم يحدث أن أثار نشرى « رسالة
الملائكة » مثل الصدى الذى أثاره لدى « ناسك وادى الفريكة » . فقد كتب
إلى يقول : أنكم معشر المستشرقين لمن أعجب الناس لأنكم من أقربهم إلى تلك
القوة الإلهية التى « تحيى العظام وهى رميم » . وكأنى بالمعري أبى العلاء ، وقد علم
بما أحسبتم من رميم آثاره ، يقول متراضعا : « ما ظنناها والله تتجاوزنا سنا .
وها هى تفوقنا بنحو ألف سنة . إنه لعجيب أمرها . فقد تخيلناها ملائكية ،
لتعزى اللغة العربية فى اخوان جبريل صديق الرسول ، عليهم السلام ، وقلنا :
حسبها أن تنتشر هناك أى فى السماء . وما تخيلنا أن ستجيبها الحرارة من الشمال ،
ولو بعد ألف سنة ، فتبعث فيها الحياة الأرضية ، فتنتطق ثانية بلغة الأنس ،
بلسان العرب ، وقد تخللته درر من لسان الروس ! حياك الله ، يا أخى الروسى
الكريم ، وبياك . أن « رسالة الملائكة » تبشروا أمامك وتقبل الأرض ، ثم
تستأذنك فتقول : « قد كان لمنشئ نزعة فى نشر رسالته اللغوية الأدبية الفلسفية
الاحادية بين الأنس والجن والملائكة فاختر لكل كتابا وأسلوبا . فأخص الأنس
بـ « رسالة الغفران » ، ثم كتب « رسالة الملائكة » ، ثم شرع يكتب « رسالة الشياطين » ،
خصوصا للجن . وقد رأيته يرسم عنوانها ، والمرجح أنه كتبها وأتمها . وهى اليوم ،
على ما أظن ، كما كنت أنا بالأمس . فهل لكم يا حبيب الله أن تطلبوها ، שתجدونها ،
ان شاء الله ، فتحيونها كما أحييتمنى . هل لكم أن تتموا نعمتكم على فتبحشون
عن شقيقتى « الشيطانية » فتجمعونى بها بعد هذا الفراق الطويل ؟ ! إني باسمى
وباسم منشئ سيد « اللزوميات » وصاحب الرسائل الثلاثة أشكركم وأدعو
لكم بطيب الإقامة فى هذه القافية . . وان كاتب هذه الأسطر ، صديق المعري
يا لفريكة ، يحيى صديق المعري بـ « لتغراد » ويدعو له بالصحة والسعادة ،

وبدوام التوفيق في البحث والتنقيب ، خدمة الآداب العربية والروسية ، وتمكيننا
لروابط الأخاء والسلام بين الشعوب .

وهكذا كان كل خطاب منه ، تارة جادا يحمل مسحة رومانتيكية خفيفة ،
وتارة يحمل سخرية لطيفة تكسوها ظلال من الحزن . كان الخطاب دائما ينطوي
على « نكتة » مصاغة بتلك البراعة الفنية العزيزة على العرب جميعا ، من تليسات
وتلاعب بالألفاظ والأشكال التي لا يمكن ترجمتها إلى لغة أخرى وإنما يمكن
تذوقها فقط في شكلها الأصلي . ولقد كتب إلى سنة ١٩٣٥ أسفا لأن المرض قد عقله
هناك في فلسطين في مياها المعدنية ، وأنه لهذا لم يتمكن في ذلك الحين من الاستجابة
لما يتطلبه أحد الاحتفالات التذكارية . وبعد ذلك أضاف قائلا : « وأنا أفكر
في الكتابة إليكم ولو سطرين فيهما وردتان من بستان العقل والقلب ... وأنا لا أزال
في حالة غير صحية وغير مرضية . ومع ذلك فقد استحثت الضعف باسم الحب فقام
اليوم يلبيني ويقول : « حيا الله الأستاذ كراتشكوفسكي ومتعته على الدوام بالصحة
والعافية وجمل أحواله بطول العمر والاقبال » .

وقد كتب إلى الريحاني بعد أن استلم من لندن نسخة من طبعة « كتاب البديع »
الذي أصدرته وهو أول كتاب في فن الشعر العربي لابن المعتز الذي تولى الخلافة
يوما واحدا : « وقد وصل الكتاب من لندن . ذلك الكتاب البديع بطبعه
وشرحه وفهارسه ومقدمته الانكليزية « كتاب البديع » لابن المعتز . فحق لمؤلف
الكتاب وإن كان في أعلى الفراديس ، أن يعتز بما أعقدتم عليه من عملكم وجبكم
وغيركم . أدامكم الله للعلم مصباحا منيرا ، وللعرب صديقا نصيرا » .

تملكني الحزن عندما بدا لي واضحا من الرسائل مدى الضعف والوهن الذي
أصاب يد الريحاني وأحسست بأن حمامات فلسطين المعدنية التي كانت تساعد على
زمن طويل تعجز الآن عن أضعاف حركة المرض . وجاء عام ١٩٤٠ ، وفي
الخريف ، تسلمت من أخيه بطاقة مطبوعة يحمل السواد زاويتها وفيها إعلام « العالم
العربي في الوطن والمهجر » بأن « فيلسوف الفريكة » قد انتقل إلى جوار ربه في
١٣ أيلول (سبتمبر) . كان هذا بعد ٣٠ عاما من لقائنا في بيروت . ولقد مات
الريحاني في الفريكة ، موطنه الذي أحبه شديد الحب والذي أرسل منه إلى لينينغراد
أكثر من زهرة جافة .

كان الشعار الذى صدر به أول مجموعة من مؤلفاته هو « قل كلمتك وامش » .
وقد استطاع أن يقول هذه الكلمة التى رنت فى آذان العالم العربى وفى أمريكا
مدة أربعين عاما بنغمات لينت تارة وصارخة مشهورة تارة أخرى . وكان مكتوبا
على خاتمه : « القوة فى الحق ، والحق لا يموت » . وكلمات الريحاني لن تموت
لأن فيها كثيرا من الحق .

لقد عرف كل منا الآخر معرفة حقيقية صادقة مع أننا لم نلتق إلا مرة
واحدة خلال ثلاثين عاما قضيناها فى جولات حول العالم .

٢ - أرسنقراطى القاهرة « الفلاح »

كنت فى محطة صغيرة قرب المدينة ، بانتظار القطار العائد إلى القاهرة .
وكانت جولتى هذه عديمة الفائدة . فقد كنت أريد الاطلاع على مكتبة تيمور
باشا التى روى لى عنها الكثير من العجائب ، عن طريق السماع حقا ، وقيل لى أن
صاحبها يرى مخطوطاته النادرة عن رغبة صادقة إلى الناس الفاهمين . وكانت
المكتبة موجودة فى منزل تيمور باشا الذى لا يبعد كثيرا عن المحطة . فاعزمت
زيارتها صباح أحد الأيام قبيل رحيلى من القاهرة .

وللأسف ، كان صاحبها غائبا فى سفرة إلى صعيد مصر وكان ان يعود من
هناك إلا بعد أسبوع . واستضافنى البواب الوقور حارس المنزل وقدم لى قهوة
حسب العادة الراحة هناك ، وكان مستعدا أن يرينى كل غرف البيت لكننى لم أكن
شغوفا إلا برؤية المكتبة . وكانت مقفولة . وجلسنا وتجادلنا أطراف الحديث
مع البواب وبالطبع عن موضوع لا تفادى منه هو السياسة . وفى النهاية تركت
له « بطاقة » طالبا منه أن يعطينا للبasha عند عودته ثم توجهت عائدا إلى المحطة .

وهناك وجدت أن القطار قد ذهب منذ فترة قصيرة وعلى أن أنتظر طويلا .
لم يكن على رصيف المحطة أحد غيرى سوى ماسح أحذية صغير هو واحد من
الكثيرين ذوى الجلابيات الزرق لباسهم الوحيد . وتراهم فى كل مصر بل وأحيانا
تراهم فى أما كن من غير المتوقع وجودهم فيها . ومن الأشياء العجيبة أنك تجدهم
يعرفون كل شىء يتعلق بمنطقتهم التى يعيشون فيها . على أنى بعد أن انتهى ماسح
الأحذية الصغير من تنظيف حذائى استأنفت معه الحديث فى انتظار القطار الذى

قد يأتي بزبون آخر . وسألتني الصبي بطريقة عملية عن الغرض من رحلتي وعندما سمع اسم د تيمور باشا ، أخذته الذشوة فقال :

— أعرف ... أعرف ... إنه يسكن هنا طول العام ، ويقرأ الكتب دائماً ، ولديه منها ما لا يوجد في القاهرة نفسها . وأنه ليأتي إليه حتى شيوخ الأزهر ، وأعرف أولاده : إنهم فلاحون حقيقيون !

وسأله حائراً :

— كيف ذلك ؟

— آه ، مضبوط . يأتون إلى هنا في الصيف فقط . وهم الآن في المدينة يتعلمون . إنهم يهرون بسرعة إلى جدى — وهو حارس على فرن القرية — أتعرف الفرن ؟ حيث يخبز فيه الخبز الفلاحون من القرية كلها . وفي الوقت الذي لا يكون هناك احد ، يطلب هؤلاء الأولاد من جدى أن يقص عليهم حكاياته . وعندما تجتمع النساء ويحضرن العجين يغنين الأغاني والأولاد يحبون أن يسمعوا هذه الأغاني . وهم يجلسون في هدوء . وكل النساء تعودن أن يعتبرنهم كأطفالهن ويستضيفنهم بالخبز الطازج الساخن . وفي المساء عندما يجتمع صبياننا للعب بالكرة فإن أولاد تيمور باشا يهرون معهم ويهرولون ويصرخون . إنهم فلاحون تماماً ! — هكذا أتم كلامه باعتزاز وباهجة لا تقبل المعارضة .

وسألتني الصبي بعد أن أشبع حب استطلاعـه عن الغرض من رحلتي : لماذا لا آتى مرة أخرى عندما يرجع الباشا ؟

— حان الوقت للعودة إلى وطنى روسيا . فأنا روسى . ونظر الصبي إلى بجده مدة دقيقة ثم قهقهه :

— أى ! لا تخدعنى ! إنى أعرف كل الافرنج . إن كثيراً منهم يأتون ليروا شجرة مريم ويبيت النعام . إننى أميز بينهم . صحيح أنك من سوريا لا من مصر . إننى عرفت ذلك بسرعة من لهجتك ، إن قبعتك لا تخدعنى ... كيف أنت روسى ؟

ووصل القطار . وكان ينبغي الإسراع إلى العربية . ولكن الصبي قفز إلى النافذة صارخاً : « مع السلامة ! سلم على دمشق ! » ، وغمزلى بعينه بطريقة ماكرة كما لو كان يريد أن يقول بالضبط مرة أخرى : « لا تستطيع أن تتحدثنى » .

لا أخفى أن هذا الإطار البريء غير المتوقع قد أفرحنى لأنه أوضح لى أننى بعد سنتين فى الشرق قد تعلت رغم كل شيء « أن أبيع » ، لا « أن أشتري » ، فقط ، وهو ما كان صعباً على فى البداية إلى هذا الحد البعيد .

تسلت بعد رجوعى إلى روسيا بوقت قليل رسالة صغيرة من القاهرة من تيمور باشا بيدى لى فيها نأسفه لعدم التقائى به ويطلب منى زيارة مكتبته عندما تسنح الفرصة . لكن هذه الفرصة لم تسنح ولم يخطر لى آنذاك أنى ، بعد خمسة عشر عاماً ، سأعرف عن قرب لا بتيمور باشا فحسب بل وبأحد أولاده « الفلاحين » ، اللذين حدثنى عن صورتهم بروعة ذلك الصبي ماسح الأحذية .

وقامت الحرب العالمية الأولى وتلاها ما تلاها من أحداث . وكان ذلك سبباً فى قطع ما بينى وبين العالم العربى لمدة طويلة . ورحت أبحث بظماً عن كل أخبار الأدب ، واكتشفت رويداً رويداً أنه قد حدثت فيه حركة كبيرة فى بحر عشرة أعوام . ولم تكن هذه الحركة مقتصرة على ظهور أسماء جديدة لمع من بينها اسم غير معروف لأستاذ كفيف فى القاهرة متخرج من جامعة السربون . وإنما شعرت فى هذه الحركة أيضاً بميلاد ألوان جديدة فى الأدب لم تكن موجودة فى فترة إقامتى فى الشرق . وكان الحديث يدور حول أخبار المسرح الشعبى وعن أحد شخصياته ومؤسسيه محمد تيمور الذى مات فى شبابه عام ١٩٢١ . فحملنى توافق الأسماء ، عفو الخاطر ، على تذكر الابن الصغير « الفلاح » ، للباشا . وعلى كل حال فقد فقدت كانت كل هذه الأخبار تلمع بشكل غير واضح تماماً .

على أنه فى عام ١٩٢٤ وفى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ظهرت مقالة لتيمور باشا عن الشيخ الطنطاوى الذى كان يوماً ما أستاذ اللغة العربية فى جامعتنا . وكنت فى ذلك الوقت أقوم أيضاً بجمع مادة عن تاريخ حياته ، فأردت أن أسعد الباشا فأرسلت له — مع بعض الإضافات لمقالته — صورة مأخوذة عن لوحة

للشيخ الطنطاوى وصورة لقبره الموجود فى مقبرة المسلمين فى مدافن فولكوفو .
وإلى جانب ذلك حدثته عن اهتمامى بالأدب الحديث وأشارت — بتحفظ —
إلى محمد تيمور الذى ينعت بأنه مؤسس المسرح الجديد ولكننا لا نعرف هنا
حتى الآن شيئاً عن مؤلفاته وتصنيفاته .

وجاء الجواب سريعاً . لقد سعد الباشا برسالتى التى تضمنت مادة علمية عن
حياة الشيخ الطنطاوى ونشر مقالة على أساس هذه المادة ، كما نشر صورة خطابى
نفسه . وعلى هذا ارتبطت مراسلاتنا التى لم يقطعها إلا موت الباشا فى ٢٦ نيسان
(أبريل) ١٩٣٠ . كانت تجمع بيننا اهتمامات وموضوعات مختلفة وكان للشيخ
الطنطاوى الفضل فى إعطائنا الدفعة الأولى نحوها . وفى عام ١٩٢٦ أثبتت مناقشة
لمسائل مختلفة حول « رسالة الملائكة » لأعمى المعرة الذى كان يهتم به أيضاً اهتماماً
شديداً . وكان الباشا يدهشنى بدقته واهتمامه بالتفاصيل ، الأمر الذى كان يبدو
واضحاً من خلال كل خطاب منه . وكان يجد من الوقت ما يسمح له بالكتابة
إلى عن بعض المقارنات والمصادر لكل نقطة من النقاط المتعلقة بخطوط مجموعته
التي لا تقدر بثمن والتي كان يعرفها حق المعرفة . وكان يكتب إلى دائماً بخط
واضح متناسق على أوراق رباعية متساوية الحجم . وقد يحسب المرء أنه كان
فى تلك اللحظة مشغولاً بهذا الموضوع فحسب ، وهو الذى لديه الكثير من
المراسلين أمثالى .

وقد أخبرنى بجلد واتزان فى خطابه الأول أن محمد تيمور المرحوم ابن له
وأما الأخبار عن مؤلفاته فسيأتى أخوه محمود تيمور تزويدى بها . وكان واضحاً
أن سؤالى قد مس منه جرحاً مؤلماً لم يندمل .

وبالفعل ، تسلمت بعد فترة من الزمن لا خطاباً فحسب ، بل ومجموعة
مؤلفات الكاتب المسرحى الشاب محمود تيمور فى ثلاثة مجلدات نشرت بعد موته
بفضل مجهود أخيه الأصغر . ويبدو أن هذا الأخ الأصغر هو الثانى من « الفلاحين »
الذين حدثنى عنهم ذلك الصبى على محطة القطار . ولقد عرفتنى هذه المجلدات
لتوها بحياة الكاتب المسرحى الذى مات قبل أوانه . وعرفتنى أيضاً بكل نتاجه
الإبداعى . فأحسست بأن أمام عيني مرحلة أدبية جديدة فى طريقها إلى النضج .

وأذهلتني مؤلفاته الدرامية التي هي في حقيقة الأمر التجربة الأولى المسرح الشعبي . وهي ممتعة بلغتها العامية التي اتخذت طريقها عبر اللغة الفصحى ، تلك اللغة العامية التي لم تظهر على خشبة المسرح حتى ذلك الوقت إلا لماماً . وليس هذا فحسب بل أدهشتني أيضاً محاولاته السابقة في خلق الأقصوصة العربية الاجتماعية أو السيكولوجية التي تصور واقع الشعب وحياته ، وهذا ما يمكن القول بأنها لم توجد في الأدب العربي في مصر قبل ذلك الوقت . على أن شخصية الأناخ الثاني لمحمد وهو محمود تيمور الذي أرسل لي تلك الهدية الكريمة لم تكن بالطبع واضحة لي في ذلك الوقت .

ولذلك تملكنتي الدهشة عندما تسلمت في حزيران (يونيو) ١٩٢٥ ، أي بعد أقل من سنة ، مجلدين صغيرين عليهما توقيع محمود تيمور يتضمنان مجموعة قصصه . وأحسست منها بأن اشتغال مؤلفها بالأدب ليس مجرد هواية أو تسلية وإنما هو عمل جدي من الدأب المتواصل الأصيل . وعبرت المقدمتان عميقتان التفكير عن متطلبات كبيرة وضعها الكاتب أمام نفسه ، كما عبرتا عن مدرسة أدبية عميقة نعتبرها الكاتب ضرورية له . ولمست في الحال من واقع القصص نفسها حياة المجتمع المصري سواء في ذلك مجتمع المدينة أم مجتمع القرية الذي عرفه الكاتب واستشعره جيداً . أما فيما يتعلق بالطريقة الأدبية للكاتب فقد لاحظت بكثير من الارتياح لا تأثير موباسان فحسب وإنما تأثير تشيخوف أيضاً . وكما حدث قبل عام عندما التهمت بنهم ثلاثة مجلدات كبيرة لمحمد تيمور ، فانتني الآن ألث لآني بقرأت دون توقف كتابين صغيرين لمحمود تيمور . وما تماكنت نفسي عن قطع السير الطبيعي لمحاضرتي التالية فأعلنت للطلاب أنه قد تم في الأدب العربي إبداع قصص أصيلة ثابتة ، وأن محمود تيمور إذا لم يخطئني التقدير سيلعب دوراً كبيراً في تطويرها . وبسرعة ضمنا إلى كتاب المنتخبات من الأدب العربي ، الذي كنا نعدده ، إحدى قصص محمود تيمور . ومنذ نهاية العقد الثاني لهذا القرن ابتداءً طلابنا في التعرف بالأدب العربي المعاصر استناداً إلى دراسة نتاج محمود تيمور . وما كنت أخفي انطباعاتي عنه . وفي خطابي الطويل الذي بعثت به إليه أبديت بكل الطرق مؤازرتي لاتجاهه على الطريق التي اختارها . وربما كان لخطابي هذا تأثير

عليه ، فلقد رأيت صورة الخطاب منشورة كلها تقريبا في ملحق المجلد الثالث من مجموعة قصصه عندما تسلمته منه بعد ذلك بعام تقريبا . .

ومنذ ذلك الوقت كنت أتسلم منه كل عام مرة أو مرتين مجموعة قصصه الجديدة . وحتى الحرب العالمية الثانية كان يقف على الرفوف أربعة عشر كتابا دون اعتبار لما لها من طبعات ثانية . . ورأيت بسرور كيف تتعزز موهبته وكيف أنه في عمله الصارم بعرض بوضوح تام طريقته الخاصة . وقد أدى نشاطه بالتدريج إلى خلق مدرسة في الحياة الأدبية لا في مصر فحسب بل وفي غيرها من البلدان العربية ، وبدأ صوته يسمع أكثر فأكثر في سوريا وفي العراق ، ولقبوه عن جدارة برائد القصة المعاصرة . واقتحمت مؤلفاته أوروبا وأصبحت تصدر من حين لآخر مترجمة إلى اللغات الأوروبية . فشعرت بأنني لم أخطئ في تقديري له من الوهلة الأولى .

على أن علاقاتنا لم تدعمها مؤلفاته فحسب وإنما مراسلاتنا أيضا . فلقد كان يرسل إلى بسنخاء ما هو جديد في الأدب الحديث . وكان سعيدا بتعليقاتي على جهود زملائه وعلى تطورهم السريع في مختلف المجالات . وتعودنا تدريجياً إزعاجه بشتى الأسئلة عندما كان من اللازم استيضاح بعض النقاط الصعبة التي كانت تواجهنا في إعداد معجم اللغة الفصحى الحديثة ، أو عندما كنا نحتاج إلى معرفة ما إذا كان هناك ترجمات باللغة العربية لمؤلفات غوركى . وكان محمود تيمور ، مثل أبيه في زمنه ، يجيب على كل شيء باهتمام وجد دون تشك من كثرة العمل . وكان الفرق الوحيد بينه وبين أبيه هو اختلاف العصر والزمن . فتبعاً لعصره الحديث كان في الغالب يرسل خطابات مكتوبة لا بخط اليد بل بالآلة الكاتبة .

ومن خلال السطور كنت أشعر أحيانا بأن عواطفنا متبادلة ، مع أن كلامنا لم ير الآخر مطلقاً . ووجدت بيننا تلك القرابة الزوجية التي سبق أن كتب عنها الريحاني ، وأن كلامنا ليس غريباً عن الآخر . ولقد شعرت بهذا التأثير الوجداني بصفة خاصة في عام ١٩٣٥ عندما وقع في يدي عدد من إحدى المجلات القاهرية رأيت فيه فجأة المقالة التي كتبها عن محمود تيمور . وأردت أن أقتبس منها كما سبق .

أن نقلت ختام محاورتي مع ماسح الأحذية ، لا بغية تعظيم نفسي بل كما يقول
الدرراويش : « للتحديث بالنعمة » ، للتحديث عن التوفيق الذي يلقاه الإنسان في تقويم
الناس له حتى في تلك البلاد البعيدة ، لدى شعب آخر حيث يبدو أن هناك أناساً
آخرين مختلفين .

وقد كتب تيمور : « في عصر يوم من الأيام من نحو عشرة أعوام ذهبت
لزيارة المرحوم والدي — كما كنت أفعل دائماً بمنزله الخاص بالرمالك حيث كان
يسكن وحيداً بين كتبه معتزلاً العالم . دخلت عليه في حجرة عمله فوجدته أمام
مكتبه بين أكوام من الكتب والدفاتر — شأنه دائماً — يطالع ويقيد . فلما
أحس بوجودي رفع رأسه وأزاح نظارته (الخاصة بالقراءة) ودعاني إلى الجلوس
ووقع نظري على صورة لقبر إسلامي ضمن الأوراق العديدة التي يزدحم بها مكتبه .
فسألته ، فابتسم وقال : « هذه صورة قبر الشيخ طنطاوي المدفون في روسيا » .
وعجبت لأمر هذا الطنطاوي الذي اختار بلاد الروس مدفناً له . فاستوضحته
الامر . فأخذ يحدثني عن هذا العالم المصري الذي نزح إلى روسيا في العصر الماضي
ليدرس اللغة العويية وآدابها في جامعة بطرسبورغ — كما كان اسمها في ذلك العهد —
وكيف أقام فيها حتى وافاه الأجل فدفن بها . ثم كيف قام اليوم من بين الأساتذة
المستشرقين من يعنى بهذا العالم المصري فيحقق أمره ويؤلف رسالة عنه تخليداً
لذكراه .

واستهواني هذا الحديث ، وجعلت أنظر إلى الصورة وأنا معجب بخور هذا
الأستاذ المستشرق الذي انبرى لعالم من علمائنا المذسسين ينشر حياته على الملأ ويشيد
بذكراه . فينشر معه صفحة من صفحات تاريخنا المغمور ويشيد بذكرى بلادنا
بين أصدقائنا البعيدين ، ورفعت رأسي ونظرت إلى والدي مستفهما . فقرأتني
عيني ما يحول يخاطري وقال :

— إن صاحب هذا البحث هو الأستاذ كراتشكوفسكي الروسي .

في هذه اللحظة أحبت الأستاذ كراتشكوفسكي وشعرت في صميم قلبي بأنه
ليس غريباً عني . وشاهدت صورته فيما بعد فراعني منها مسحة الوقار المنطبعة على

حياء ، وذلك الإشعاع العجيب الذى يشع من عينه — إشعاع الطيبة والإخلاص .
واتصلت بالأستاذ عن طريق المراسلة ، فعرفت فيه رجلاً ذا خلق متين وعزيمة
صادقة وأدب جم ، فقد وهب حياته منذ نحو ثلاثين عاماً لخدمة اللغة العربية وآدابها
فلم يهن ولم يتراجع بل ثابر وثابر حتى امتلك ناصيتها وتبحر فيها ، فأصبح عالماً
راسخاً من أعلامها ، وقوة من قواها العتيقة .

وأنى لا أنسى أول خطاب جاءنى من الأستاذ ، فقد وقفت أمامه حائراً مبهوراً :
خط عربى جميل ونظيف يماثل فى وضوحه وتنسيقه خطوط الآلة الكاتبة . تسوده
روح لطيفة من سلامة الذوق فى التعبير والبساطة والهدوء ، كل ذلك فى سلامة
عجيبة وصفاء غريب . وغمرنى شعور لطيف فيه شئ من الزهر لوجود مثل
هذا الصديق الكبير لنا — معشر العرب — فى بلاد نائية قد وقف حياته على
خدمة آدابنا واعلاء كلمتنا .

وازداد اتصالى بالأستاذ فتوالت الرسائل بينى وبينه . وأهدى إلى كثير من
مؤلفاته بالروسية ؟ ومضت الأعوام ومعرفتى بالأستاذ تزداد اتساعاً وكلم عرفت
عنه شيئاً جديداً قويت محبتى له وعظم تقديرى إياه ...

أكتب هذه الكلمة الصغيرة بمناسبة الاحتفال بتكريم الأستاذ فى روسيا .
أحييه فيها أصدق تحية ، معبراً له عما يكنه له العالم العربى عامة والأمة المصرية
خاصة من عواطف الولاء والشكر له . فان رجلاً قصر حياته على نشر ثقافتنا
العربية فى العالم الغربى . وأوسع لنا الطريق لتنبؤا مكانتنا بين آداب الأمم العالمية
لجدير بأن يحتل فى قلوبنا أكبر مكانة .

ولانى اعتقد أنه لا يمكن توطيد « روابط الأخاء والسلام بين الشعوب »
التي سبق أن كتب عنها « فيلسوف وادى الفريكة » الريحانى إلا شرط وجود هذه
الأماني الطيبة والرغبة الخيرة التي عبرت عنها هذه السطور .

وقامت الحرب العالمية الثانية فعزلتني عن العرب والآداب العربى ، تماماً مثل
ما حدث فى الحرب العالمية الأولى منذ ثلاثين عاماً . على أننى عرفت عن طريق
الصدقة من بعض الجرائد والمطبوعات المتسربة أن تيمور كسابق عهده يعمل دون
كلل وأنه كأخيه أخذ يحبس قواه بنجاح فى مجال الدراما . وأفادتني المعلومات التي



محمود تيمور (مولود سنة ١٨٩٤)



ميخائيل نعيمة (مولود سنة ١٨٨٩)

وصلتني بأنه صار كاتباً مشهوراً ومحبوباً في أدبه العربي المعاصر . وحدثني عن ذلك أيضاً بطريقة أوضح أحد الكتب التي وقعت في يدي بعد الحرب ، وهو مؤلف كبير مطبوع سنة ١٩٤٤ ، وفيه يتحدث ناقد عربي شاب عن مؤلفات تيمور ، وعندما كنت أقرأه بسرعة لمجرد التعرف على ما فيه وجدت فجأة أحد الأماكن التي لم أستطع إلا التوقف عندها . وفي هذا المكان يقول المؤلف : « أنه لا يخالجننا شك في أن الطبقة التي تميل إلى حب تيمور أكثر من غيرها هي طبقة الفلاحين ... وما يساعده على إيجاد هذه الصلة القريبة بتلك الطبقة هي طفولته وذاكراته عن الريف التي قضها هناك في تلك الأماكن حيث كان يجتمع الفلاحون فيسمع أحاديثهم ويسعد بأغانيهم ويلعب معهم بالكرة في الساحة . وأن تيمور الارستقراطي يختزن حباً لا يقاوم نحو هذه الطبقة المظلومة من الشعب المصري . إنها الطبقة الوحيدة الخالصة في مضررتها من حيث أساسها وأصلها ... » .

ولقد فكرت تلقائياً في كلمات هذا الناقد الواسع الثقافة وتحليله المنهجي . لقد كان على صواب حقاً ذلك الصبي ماسح الأحذية عندما أكد لي منذ ٣٥ عاماً وفي محطة قريبة من القاهرة أن أبناء تيمور باشا « فلاحون تماماً » .

٣ - طالب المدرسة الدينية في بولتافا

كنت خلال رحلتي التي استغرقت عامين في سوريا أحب التردد كثيراً على مدارس الجمعية الفلسطينية الروسية . ومن لم يعيش مدة طويلة خارج وطنه روسيا يصعب عليه ، في الغالب ، أن يتصور نفسه مدى الآلام التي تسببها العزلة عن اللغة الروسية . وكان الضيق الذي ينتابني أحياناً يأخذ أشكالا مؤلمة تارة وهزلية تارة أخرى وأذكر أنني عندما كنت شتاء في بيروت وددت بلهفة لو أن الحوذني المار عبر الشارع شتم خياله باللغة الروسية . ولكنه للأسف ما كان قادراً على أن يفعل ذلك ، ومر بقربي مسرعاً إلى مكان ما ، صائحاً بخياله بتلك الكلمة العربية البعيدة عن الشتم « يللا » .

وحين وصلت إحدى القرى في لبنان سألت قبل كل شيء هل هناك « مدرسة موسكوبية » . وتوجهت إليها بسرعة . وكنت أعرف جيداً أنني لن ألتقي بمعلمين روس . فقد كانوا لا يعيشون عادة إلا في المدن الكبرى كبيروت أو طرابلس والناصرية . كذلك كان من النادر جداً رؤية معلمين عرباً سبق لهم

أن كانوا في روسيا ، لكتني كنت على علم بأنني لو دخلت صدقة إلى غرفة التدريس فإن الأطفال سيقفون ويتلفظون بما يشبه الغناء كلمة « زدرا ستويقي » ، وكت أعلم أنه بمجرد السماع عن أصلي فسيحيط بي — على وجل للوهلة الأولى ، المعلمون والمعلمات ذوو العيون السود ، وأن أسئلتهم لن تنتهي بخاصة عندما يتضح لهم أنني لا أمثل أى سلطة رسمية . وأحياناً يتحدث أكثرهم شجاعة بلغة روسية ترن في الآذان بما بها من أخطاء لطيفة في النبرة وذلك بالطبع يرجع إلى تعودهم منذ الطفولة على نطق صوتيات أخرى . إلا أنني كثيراً ما قابلت بعض المعلمين الذين يعرفون اللغة الروسية بطلاقة ، والعجيب في الأمر كيف استطاعوا أن يسيطروا على اللغة بهذه الدرجة مع أنهم لم يفارقوا وطنهم . ومع أنهم لم يكونوا جميعاً يتكلمون الروسية بسهولة إلا أنهم كانوا جميعاً يعرفون جيداً بحلة « نيفا » ، وكانوا مشتركين فيها . ولدى كل منهم في بيته مؤلفات تورغنيف وتشيفخوف وحتى مجمرعات « زنانية » ، أى (« المعرفة ») ذات اللون الأخضر والتي كانت قد بدأت تظهر في ذلك الوقت ، بل كان لديهم أحياناً من تلك المطبوعات المعتبرة في روسيا نفسها من المحرمات .

ومع أن هذه المدارس الصغيرة كانت فقيرة الأثاث إلا أن لوجودها كان مغزى عظيماً . فلقد وصل إلى هناك من روسيا عن طريق مدارس المعلمين للجمعية الفلسطينية الوصايا العظيمة والأفكار العالية لبيروغوف ** وأوشينسكى *** . وكثيراً ما كانت المبادئ التربوية للدارس الروسية في فلسطين وسوريا أعلى مما لدى المؤسسات التبشيرية المختلفة لغرب أوروبا وأمريكا على الرغم من جودة تجهيز هذه المؤسسات . ومع أن معرفة اللغة الروسية كانت نادراً ما تجد الممارسة في مستقبل نشاط الخريجين إلا أنه كان يبقى لديهم من الثقافة والأدب الروسى أثر لا يمحي مدى الحياة . فلقد كشفت قوة الكتاب عن نفسها هنا بكل ما لها من قدرة وتأثير . وعلى ذلك ظهر كثير من الكتاب العرب المعاصرين من الرعيل الأول لا كترجمين من الروسية فحسب بل ومؤلفين مبدعين بالعربية ، قالوا:

* هي كلمة التحية الروسية الشائعة ومعناها « مرحباً » . العرب .

** جراح ومرب روسى عظيم (١٨١٠ — ١٨٨١)

*** مرب روسى كبير (١٨٢٤ — ١٨٧٠)

كلماتهم لكل العالم العربي ، وكان هؤلاء الكتاب من خريجي مدارس الجمعية الفلسطينية . ولقد جذبني على وجه الخصوص مجتمع أولئك المعلمين المتواضعين . وكثير منهم كانوا منذ ذلك الوقت كتابا وصحفيين . أما بقية الأعمال الاجتماعية فكان السبيل إليها مقفولا في وجوههم في تركيا القديمة . ولقد رأيت قوة المستقبل في هؤلاء المثقفين الحقيقيين الذين خرجوا من الشعب وعاشوا مع الشعب . وقد برهن تاريخ البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى على صدق ما رأيته .

كان هؤلاء الناس يعرفونني لا باسمي العربي المستعار المعروف ، الرحالة الروسي ، فحسب بل كانوا يعرفونني أيضا بلقب « غنطوس الروسي » وهو اللقب الذي لبسني بعد أن تخيلته لنفسى على الطراز اللبناني . وكان هؤلاء المعلمون أكثر الجميع إصرارا على بقائي في سوريا شاعرين بظمأى الشديد إلى اللغة العربية والأدب العربي وهو أمر كان من النادر أن يروه لدى المسافرين الأجانب . وبدأت أحيانا أنا أيضا أفكر بحمد في البقاء بسوريا . ولم أدر لماذا تملكني هذا الشعور بصفة خاصة عندما كنت في بلدة لبنانية صغيرة « بسكنتا » حيث كانت هناك أيضا مدرسة روسية للجمعية الفلسطينية .

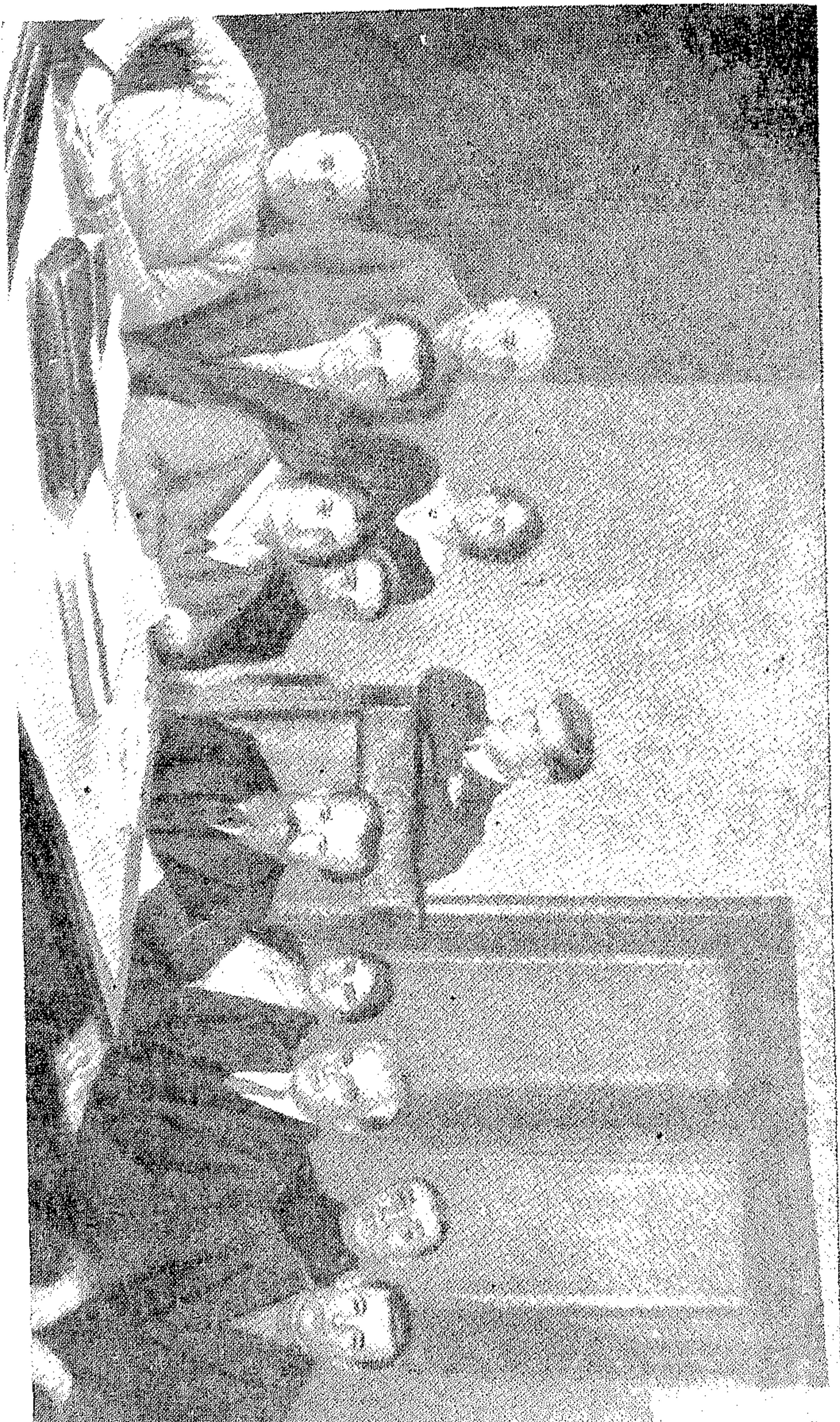
كانت هذه البلدة تشبه بالأحرى قرية كبيرة . وكانت تقع عاليا جدا على سفوح لبنان في مكان ليس ببعيد أبداً عن قمة جبل صنين الدائمة الثلوج . وكنت قد وصلت إلى هذه البلدة مشياً على الأقدام من الشوير حيث عشت بها آنذاك . وبقيت هنا (بسكنتا) عدة أيام . إلى هذا الحد أعجبتني البلدة بطابعها اللبناني الصرف . وتشير بعض المنازل الصغيرة بأسقفها البيجة من القرميد إلى أنه كان بالبلدة كثير من « الأمريكيين » ، وهو ما يطلقه سكان لبنان على إخوانهم الموجودين في المهجر . ولقد بدت لنا السفوح الثلجية قريبة تماماً وهناك في جانب آخر كانت « المصاطب » تميل على البحر بأسوارها الحجرية . تلك المصاطب التي يتفنن في شغل تربتها دائماً أهل لبنان .

وكنت جالسا في المساء على سقف أحد تلك المنازل الصغيرة المتواضعة عند معلم من المواطنين . وفي أحاديثنا اللاحقة المتأنية ، مرة عن روسيا التي لم يزرها أبداً ومرة أخرى عن مستقبل البلاد العربية بعد انقلاب قام به أعضاء حزب

تركيا الفتاة ، تذكر هذا المعلم أحد خريجي مدرسة الجمعية الفلسطينية الموجودة بالبلدة والذي أنهى بامتياز مدرسة المعلمين في الناصرة من مدة قصيرة وأنه توجه الآن ليكمل تعليمه في روسيا . ولم أستطع أن أفهم من المعلم اسم المدينة التي رحل إليها هذا الخريج في روسيا لأن المعلم في تلفظه لإسم المدينة كان أقرب إلى كلمة « بلسكوفو » فرأيت أن الأمر قد إلتبس عليه ليس إلا . وصارت المدينة الصغيرة هادئة في ذلك الوقت . وأضاء القمر كل ما حولنا ملقيا عليه حجاب الأسرار المعروف عن الشرق خاصة . وساد الصمت بيننا . وفي ذلك الوقت لم أدر لماذا شعرت فجأة بوضوح كامل بأنني لا أستطيع العيش بدون روسيا وأنني لن أبقى في سوريا .

ومرت بعد تلك اللمسية أعوام عديدة وأحداث أكبر عدداً وأدت الحرب العالمية الأولى إلى انتهاء حياة مدارس الجمعية الفلسطينية . وانقطعت علاقات « غنطوس الروسي » مع أصدقائه السوريين . لكننا ما زلنا نتذكر أحياناً هذه المدارس . وقد حدث أنه كان من بين أقرب زملائي في التدريس بمعهد اللغات الشرقية اثنان من المعلمين السابقين بالجمعية الفلسطينية . وكان أحدهما طالباً قديماً لي في الجامعة واشتغل معلماً لمدة عامين في الناصرة . ثم سافر من هناك إلى روسيا بسبب الحرب . وكانت انطباعاته مازالت حية . وكثيراً ما تذكرنا فلسطين ومدارسها والمعلمين حين كنا نؤلف كتاباً للقراءة باللهجة السورية .

أما مصير مساعدتي الثانية فقد كان جد معقد . فهي عربية من الناصرة أنهت مدرسة المعلمين في بيت جالة قرب بيت لحم . وكنت قد قابلتها في الناصرة ذاتها . وكانت آنذاك معلبة ناشئة إلى جانب عملها في بعض المجلات العربية . وانتهزت فرصة العطلة الصيفية عام ١٩١٤ فسافرت لزيارة روسيا . ثم نشبت الحرب وحالت دون عودتها فبقيت عندنا في روسيا مدى الحياة . وصارت تعلم في ذلك المعهد منذ العقد الثاني من هذا القرن . وفي الغربية عن الوطن كانت تقوم باهتمام بجمع كل الأخبار الأدبية التي بدأت تتسرب من البلاد العربية آنذاك . وظهرت أسماء جديدة كثيرة في الأدب العربي لم نكن قد سمعنا عنها قبل



القسم العربى فى المعهد الشرقى بلندن عام ١٩٢٨ . الجالسون فى الوسط قرب الطاولة :
 ابنة المناصرة ك.ف. عودة - فاسيلييفا (المعلقة كلثوم عودة) ، البروفيسور كراتشكوفسكى ، د.
 ف. سيميونوف (الاستاذ سابقا فى مدرسة الجمعية الفلسفية - توفى فى لينينغراد سنة
 ١٩٤٢) .

الحرب . وصارت لدينا تدريجياً فكرة عن تأليف كتاب القراءة للتلاميذ عن الأدب العربي المعاصر مع مقدمة صغيرة له عن الكتاب .

وكان من الصعب الحصول على معلومات عن هؤلاء الكتاب . ومع أن مؤلفاتهم نفسها موجودة في مختلف الجرائد والمجلات إلا أن مجرد تواريخ حياتهم لم يستطع دائماً مراسلونا الذين توجهنا إليهم بالسؤال أن يخبرونا عنها ، وبينهم كتاب أيضاً . ولقد أحزننا هذا بصفة خاصة عندما كان الأمر متعلقاً بأحد النقاد الناشئين الذين شعرنا — على الفور — بأن لديه جرأة وقوة كبيرة . وخشيت أن أستسلم لانطباعاتي الأولى عنه إلا أنني شعرت بأن أفكاره تتضمن صدى أفكار النقاد الروس التي لم تكن معروفة إلا قليلاً في الأدب العربي في ذلك الوقت . واشتدت انطباعاتي هذه عن هذا الناقد العربي الشاب عندما صدرت ، في ١٩٢٣ ، مجموعة مقالاته تحت عنوان ذي مغزى كبير هو « الغربال » فإن مؤلفه لم يخش أن يغربل به المكانة المعترف بهم لدى الجميع . وفي « الغربال » أعيد طبع مقدمة مسرحية « الآباء والبنون » غير المعروفة لنا والتي كانت ترن في عنوانها من جديد نغمة توافق مع الأدب الروسي .

والمؤلف يسمى مينخائيل نعيمة ويشير اسمه إلى أنه مواطن من سوريا وعاش على ما سمع — في أمريكا . ولم نستطع أن نعرف أكثر من هذا برغم كل استفساراتنا من مصر وسوريا . واضطررنا لضم مقالته إلى كتاب القراءة الذي ظهر ١٩٢٨ بدون الإشارة إلى تاريخ ولادة الكاتب ، خلافاً لأغلب الفصول الأخرى للكتاب . وبعد ذلك بعامين صدر كتاب إنجليزي مماثل لكتابنا عن قادة الأدب العربي المعاصر . ولقد نفد صبري عندما رأيت أن ما في هذا الكتاب عن نعيمة ليست إلا المعلومات الناقصة التي يحويها كتابنا . وكتبت إلى نيويورك إلى إدارة تحرير إحدى الجرائد العربية طالبا منها إخباري بعنوان مينخائيل نعيمة إذا كان معروفاً .

* يشير المؤلف بذلك إلى رواية تورغينيف التي اسميت بهذا الاسم أيضاً « الآباء والأبناء » .

وكانت دهشتي الكبرى عندما وصلني بسرعة جداً خطاب مكتوب باللغة الروسية الخالصة . وكان مرسل يعتذر عن كونه « قديم العقيدة » ، وأنه يكتب حسب قواعد الكتابة القديمة التي كانت موجودة في روسيا عندما غادرها عام ١٩١١ . وكان مرسل الخطاب هو ميخائيل نعيمة الذي سبق له أن كان طالباً في مدرسة بولتافا الدينية ما بين عام ١٩٠٥ وعام ١٩١١ . وفي الحال انكشف لي ذلك الخريج من مدرسة الجمعية الفلسطينية الذي حدثني عنه المعلم العجوز على سقف منزله الصغير في بسكنتا . وفي خطاب نعيمة التالي كان تاريخ حياته مكتوباً بناءً على طلي، وعرفت منه أن نعيمة يعيش في أمريكا منذ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١١ . وأوضح لي فيما أوضح دور الأدب الروسي في مؤلفاته وهو ما كنت قد شعرت به من قبل . وذكر لي ، وكأنه يجيب على أفكاري :

« إن الموضوع الذي كان محبباً لي منذ أن كنت في الناصرة هو الأدب... وفي المدرسة الدينية غرقت في الأدب الروسي . وانفتح أمامي تماماً عالم جديد مملوء بالعجائب . ولقد قرأت بنهم ؛ ولم أترك كاتباً روسيا أياً كان إلا وقرأته... وعندما غادرت روسيا صدمت بركود الأدب في كل العالم المتكلم بالعربية . وأدى هذا إلى إنقباض نفسي وكان مؤلماً إلى أقصى الحدود بخاصة للإنسان الذي تربى على الفن الرفيع لبوشكين وإيرمونتوف وتورغنيف وعلى « الضحكات عبر الدموع ، لغوغول وعلى واقعية تولستوى الجذابة وعلى الأفكار الأدبية لبيلينسكي . ومن هنا يمكنكم أن تفهموا بسهولة السبب في أن أول خبراتي الأدبية باللغة العربية كانت أساساً ذات طابع نقدي » .

وفي عام ١٩٢٢ عاد نعيمة إلى وطنه في بسكنتا حيث كنت منذ ٣٥ عاماً . واتسع نشاطه الأدبي ونمت شهرته ، إلا أن نظرته الصارمة إلى رسالة الأديب كانت أحياناً على غير هوى بعض مواطنيه . على أن كلا منا كان يتتبع الآخر . وكان موقفه من الأدب الروسي يفيض بحب لم يوجد، في الغالب، لدى أي أديب عربي آخر . وكان هذا الموقف يحمل تقارباً مخلصاً في تقدير كل منا الآخر . ونحن

لم نتحدث عن هذا ، إلا أنني رأيت في عام ١٩٣٥ إحدى مقالاته التي نشرت في مجلة بيروتية تتعلق بذلك الموضوع الذي كتب عنه محمود تيمور مقالته. فليدو صوت اللبناني كما دوى صوت المصري .

« غنطوس الروسي أغناتى يوليفتش كراتشكوفسكى اتصلت به بالمراسلة منذ خمسة أعوام . وتلطف فأهدى إلى طائفة من مؤلفاته الروسية في نواحي مختلفة من نواحي الآداب العربية قديمها وحديثها . ولعله في طبيعة المستشرقين الذين أعاروا آدابنا الحديثة الاهتمام الذي تستحقه ، .

« أما رسائله فكانت تطالعني من خلال سطورها روح نيرة صافية ، سليمة ومسألة ، روح جمعت بين دقة المعرفة ورفعة البساطة ، روح تفيض عطفاً على الناس وإيماناً بمستقبل الإنسانية ، روح تقابل الحية ببسمة الأمل ، والالم بصلابة الصبر ، .

« وأما مؤلفاته فكانت تحدثني عن طول باعه ، وطول أناته ، وإخلاصه لنفسه ولموضوعه ، وعظيم محبته للغة العربية وآدابها . ولكم سألت نفسي عن العوامل الخفية التي تدفعنا إلى هذا العمل أو ذاك فتجعل رجلاً كالأستاذ كراتشكوفسكى يخرج عن نطاق بلاده بكل ما فيها من ميادين واسعة للبحث والعمل وتحمله على درس لغة لا علاقة في الظاهر بينها وبين لغته ، ثم تدفعه على تكريس حياته لتلك اللغة وآدابها وهو بعيد عن موطنها ، .

« وقد كان بإمكانه ، لو هو شاء ، — وكان أقرب تناول عليه — أن يكرس حياته للغة بلاده وآدابها . لكنه لم يشأ ولم يفعل . وفي ذاك وحده درس وعبرة ..

« لقد كان آخر ما متعني به أستاذنا المحبوب من أبحاثه الشيقة كتابه في « رسالة الملائكة » لأبي العلاء المعري الذي نشرته أكاديمية العلوم في لينينغراد في سنة ١٩٣٢ ، .

« تصفحت الكتاب فإذا بي أقرأ في المقدمة أن صاحبه بقي ٢٠ عاماً — من ١٩١٠ إلى ١٩٣٠ — يهتم في الوصول إلى مصادره وجمع مواده وتمحيضها

وشرحها وترتيبها . وقد كانت العقبات في سبيله — من حروب وثورات وسواها — أكثر من أن تحصى . وهو ، لتواضعه ، لا يذكر شيئاً منها . ولا يذكر كيف أنه بثباته ، وشغفه بموضوعه تغلب عليها كلها . فأبرز رسالة المعري التي لم يكن يعرف بوجودها إلا القليل حتى من أبناء لغة المعري — أبرزها في أصلها العربي مع ترجمته لها بالروسية وشروح وتعليق وفهارس تركتني مذهولاً بسعة اطلاع صاحبها وجميل صبره ، ودقة تمحيصه . هو عمل شاق ليس يأتيه إلا من ملك ناصية موضوعه مثلها ملكها الأستاذ كراتشكوفسكي ، وكان شغفاً بعمله ، مخلصاً لعله مثل شغفه وإخلاصه . وما الكتاب هذا غير أنموذج واحد من آثار الأستاذ الكثيرة .

« أحب الأستاذ شرقنا العربي إلى حد أنه يريد أن يكون معروفاً فيه لا باسمه الروسي ، أغناتي ، ومعناه أغناطيوس بل بصيغة ذلك الاسم الشائعة في لبنان وسوريا . فقد أهدى إلى « رسالة الملائكة » وعليها هذه التقدمة بخط يده : « هدية الإعجاب والاحترام من ناشر الرسالة — غنطوس الروسي » .

« الا ألف أهلاً وسهلاً بك يا « غنطوس » ! كن منا وفينا نكن من الراجحين . ولا أخالك تكون من الخاسرين . لقد أحبيناك كما أحببتنا . وها أنا واحد من أبناء العربية التي فتحت لها قلبك وفكرك أدعوك بازدياد النشاط . وأحييك بإعجاب من عرف جمال روحك وأحب لغة أجدادك كما أحببت لغة أجداده » .

وكان هذا الخطاب مكتوباً في آيار (مايو) ١٩٣٥ وفي حزيران (يونيو) تسلمت من نعيمة كتابه الكبير الجديد . وهو عن صديقه جبران أحد قادة « المدرسة المهجرية » في الأدب المعاصر والذي مات سنة ١٩٣١ ، في نفس الوقت الذي تسلمت من نعيمة خطابه عن تاريخ حياته .

وقد أثر الكتاب تأثيراً كبيراً في نفسي بغناء مادته ومهارته الأدبية ونغماته العالية الرفيعة . وفي الكتاب نقطتان حملتا إيأى من جديد على أن أتذكر مدارس الجمعية الفلسطينية واللغة الروسية بين العرب . وعرفت أن الرابطة الأدبية التي

لعبت منذ ١٩٢٠ الدور القيادي الأدب العربي الحديث في أمريكا كانت تضم من بين أكثر الأعضاء نشاطاً — عدا نعيمة — اثنين من خريجي المعلمين في الناصرة . وجبران خليل جبران رئيس الرابطة يرجع بنفسه إلى المارونيين في شمال لبنان . ولم يكن يعرف الروسية لكن عاطفته نمت بسرعة جداً وفي خطابه العربية إلى صديقه الطالب الديني السابق في بلتافا استعاضة عن الكلمة العادية « عزيزي ميخائيل » بكلمة أخرى غير متوقعة من العرب هي « عزيزي ميشا » وبقيت هذه الكلمة في خطابه حتى النهاية . وإن هذا الاسم الروسي المصغر في ثياب اللغة العربية يبدو شيئاً لطيفاً مؤثراً ولا سيما في رسالة شخص عربي .

ولقد كان نعيمة على حق عندما قال إن الغموض يكتشف تلك العوامل التي تفسر اختيار الإنسان لأعمال حياته . ولم يكن من الواضح دائماً تفاصيل الطرق التي يسير عليها نماء العاطفة بين الناس والشعوب . ولكن إذا كانوا في سوريا يعرفون « غنطوس الروسي » وإذا كان الكاتب العربي المشهور يسمى صديقه وابن بلده « ميشا » من بسكنتا فإن هذه الإشارة الصغيرة تظهر بجلاء إلى أي عمق تنفذ أحياناً مثل هذه العاطفة . وأنه ليخيل لي أن مستقبل الإنسانية يتوقف بدرجة كبيرة على المهارة في الكشف عن مسالك هذه العاطفة .

فى المتحف الآسىوى

١ - مقدمة لأسطورة

(تذكر ف. ا. روزنبرغ)

(١٩٠٣ - ١٩٣٤ هـ)

فى يوم من أيام شتاء عام ١٩٠٣ ، أثناء محاضرة بوريس الكسندروفيتش تورايڤ عن تاريخ الحبشة ، حانت منه التفاتة عادية إلى مكان ما فوق رأسى مستمعيه الدائمين ثم وجه الكلام إلى قائلا : عليك أن ترى طبعة بريوشون ، وهى غير موجودة عندى . إنما توجد فى المتحف الآسىوى وهناك أسأل عنها عند دلم ، . ولقد كان من الصعب على طالب فى الصفوف الأولى ، ومن خارج العاصمة أن يتغلب على حيائه ويتوجه إلى مكتبة جديدة ، هذا بالإضافة إلى أننى سمعت أن عمل الطلبة هناك يتطلب إذناً من المدير .

وكان المتحف الآسىوى آنذاك يقع فى بناء قديم عند المبنى الرئيسى للأكاديمية فى زقاق تاموجنى مقابل متحف الأجناس البشرية والعنصرية ولم يكن المتحف الإسىوى متحفاً بالمعنى الكامل وكان لا يخزن إلا الكتب والمخطوطات الشرقية . وكان المبنى جديداً بالنسبة لكثيرين إذ أن المتحف لم ينتقل إلى هنا من بنائه السابق فى جناح آخر لمبنى الأكاديمية نفسه إلا منذ سنتين تقريباً . وهناك قام مستخدم فى زيه الرسمى العادى آنذاك بتعليق معطى ثم صعد عدة درجات وفتح باباً لحجرة إلى اليمين من المدخل . وفى جو الحجرة شبه المعتم لم أتمكن من التعرف عليها جيداً فى الحال . إلا أن مساحتها كلها تقريباً كانت مشغولة بمنضدة مربعة ضخمة تقع إلى يسار الباب . ولم يكن يجلس عليها أحد . وعند الجانب المواجه للمدخل كانت تقوم خزانة قصيرة إلا أنها جدرىضة تحوى أقساماً لاتعد خاصة ببطاقات الفهارس الأبجدية . وخلف الخزانة ترتفع منضدة ضخمة تشبه المنصة . وهناك كان الجو مظلماً حتى بالنهار . وفى أوقات العمل كان دائماً يضيء مصباح مكتب كهربائى .

لم أكن قد انتهيت من تفقد الحجرة عندما سمعت صوتاً بعيداً عن التحية يأتي من وراء المنضدة : « ماذا تبغى ؟ » ، في ذلك الوقت فقط لاحظت أن هناك شخصاً جالساً طويلاً القامة ما زال بعيداً عن الشيخوخة ، بملابس راقية أنيقة ، ذؤأف مشوه يصدم النفس للوهلة الأولى وظننت أنه « لم » الذى أشار إليه تواريف فأوضحت له أنى أريد الحصول على تصريح من المدير بالدخول إلى المتحف للعمل فيه . فسأل الجالس بصوت بعيد عن التحية : « ومن الذى أوصى بك ؟ » ، لم أكن أتوقع هذا السؤال . إلا أننى أجبت بأن الأستاذ تواريف الذى أدرس عنده وجه نظرى إلى كتاب معين . ومن جديد سألتى ذلك الإنسانى الجاف : « وهل الكتاب موجود عندنا ؟ » فأسندت القول مرة أخرى إلى تواريف . وعندئذ نزل من منصته متوجها نحو الفهرس وأخذ يبحث فى البطاقات . وكان بحثه ، على ما يبدو ، بدون جدوى إذ أنه كان يهمهم متضايقاً .

وفى ذلك الوقت سمع صوت غاضب يأتي من مكان ما فى جوف الغرفة حيث يبدأ من وراء المنضدة صف للرفوف المظلمة بما عليها من كتب . وكان هذا الصوت عبارة عن سؤال بالالمانية : « ما حاجته ؟ » فذكر محادثى لاسم الكتاب . وهنا سمع صوت خطوات سريعة عرجاء . وظهر كهل نحيف شائب متوسط القامة تنتشر حوله رائحة سيجار نفاذة . وكان يبدو عليه الضيق فصاح فى وجهى بفظاظة : « هذا الكتاب من سلسلة ، ولا بد من تعيين السلسلة » ، ثم إنه عثر على بطاقة مافى الفهرس وأراها بغضب إلى شخص آخر . وكان هذا الشخص أستاذ تواريف والعالم فى تاريخ مصر القديمة ، بل ولعله أول عالم أوربى فى الثقافة القبطية . إنه « لم » الذى كان آنذاك الحارس الوحيد للمتحف الأسبوى . أما الشخص الثانى فكان ف. ا. روزنبرغ المستشرق الكبير فى الفارسية الذى كان عضواً خارجياً عن هيئة إدارة المتحف . وعلى كل حال فقد كانت طبعة بريوشون فى يدى بعد دقيقة واحدة . وجلست إلى المنضدة أعمل . ولدى سؤالى عن تصريح المدير حرك روزنبرغ يديه وقال : « سنتولى نحن اخباره . ولم تطلب منى أى وثائق . وعلى هذا انتهت كل الرسميات بالنسبة لى . ويبدو أن إسمى بقى مدة طويلة غير معروف فى المتحف . ولست أذكر ما إذا كان قد دخل إلى المتحف فى ذلك اليوم مديره

الأكاديمي زالبان؛ ذلك الألماني الريفل^{*} . العجوز بحر كته ومشيته الذشيطة وكلامه الحازم وبمنظره الذي يبدو عليه بعض العبوس وبملابسه الرسمية التي يرتديها دائماً ولم يكن في ذلك الوقت مديراً للمتحف فقط بل ومديراً للقسم الأجنبي بمكتبة الأكاديمية . وقد أقيم فيما بعد ؛ بناء على رأيه ، مبنى جديد ضخم للمكتبة . إلا أنه لم يقدر له البقاء حتى ينتقل إلى هذا المبنى الجديد . واذكر جيداً كيف أن أولدينبورغ — الذي عين في العام التالي أميناً دائماً للأكاديمية — ظهر لأمرما، بما هو معهود فيه من سرعة وشباب وحيوية ودار بسرعة حول المنضدة ووجه نظره نحو القارئ الوحيد ثم ذهب إلى ما وراء المنضدة عند بداية الرفوف حيث كان «لم» (كما فهمت بعد فترة من الوقت) يجلس على منضدته الخاصة قرب المدفأة . وسأله بالألمانية بصوت منخفض : « من هذا ؟ » فأجاب لم بالألمانية وهو يلوح بيده باحتقار وازدراء ، على ما بدا لي : « شيء حبشي ! »

هكذا بدأت معرفتي بالمتحف الآسيوي وبمماثليه في ذلك الوقت . بدأت بالاستعجاب لا بالاستعراب وبالكتب لا بالمخطوطات . وبقي المتحف بعد ذلك أعواماً طويلة يجتذبني أكثر من الجامعة أو المكتبة العامة . ولم أكن أشعر آنذاك بأنه مع مرور الزمن سيحجبهما عنى كلية تقريباً وأن أولئك الناس بل المؤسسة كلها ستصبح قريبة منى بصفة خاصة .

وفي سنوات التلذذة كنت أذهب إلى المتحف الآسيوي نادراً ومصادفة . فقد كانت مكتبة الجامعة آنذاك مشبعة تماماً لاحتياجاتي بما تحويه من مختلف الكتب . وكانت المخطوطات بالنسبة لي مازالت غريبة ، ولم نكن قد سمعنا بعد عن أهميتها . ومع ذلك فقد نمت معرفتي بالمتحف — بصفة خاصة — بفضل ما كان يقصه زميلي الأكبر أ. أ. فريمان المستشرق في الدراسات الإيرانية والسندسكريتية والذي كان يعمل هناك في المتحف . كان يذهب مراراً إلى المتحف « لكتابة البطاقات » — التي كانت كتابتها بالنسبة لي سرّاً مغلقاً — وذلك بعد أن يتناول غداء مبكراً في

* لسبة إلى مدينة ريفل عاصمة استونيا والتي تسمى الآن تالين . المغرب .

مسكن الطلبة الذى كان يعرف باسم « مجمع الامبراطور الكسندر الثانى » ، حيث كنا نعيش فى ذلك الوقت . وعرفت أن هناك فى المتحف أيضاً يعمل زميل أكبر آخر من سكان « المجمع هو ف. م. الكسييف المستشرق فى الدراسات الصينية .

وفى فترات زياراتى النادرة للمتحف كان يجذب انتباهى منظر شخصية طريفة ، وكان صاحبها يظهر دائماً من وراء تلك الرفوف اللانهائية السرية وقد بدا على وجهه الخوف . وكان يسير دائماً فى اتجاه غير مستقيم ، بل بخط منحرف . تلك هى شخصية س. ا. فينر العالم اليهودى الذى كان على معرفة كبيرة لا باختصاصه فحسب بل وبالمكتب الروسية فى القرن الثامن عشر . وكان هو أيضاً يعتبر خارجاً عن هيئة المتحف ، وبعث به خصيصاً لوصف « مكتبة فريدلاند » . وهذه المكتبة كانت مجموعة مشهورة لمخطوطات وكتب يهودية . وقد ظلت هيئة المتحف مدة طويلة كما كانت عليه فى السابق . وعندما انتهت من الجامعة وأصبحت منذ ١٩٠٦ أكثر من زياراتى للمتحف ، ظل ا. ا. لم الخازن الوحيد ، أما الآخرون فقد كانوا يعملون كموظفين خارج هيئة المتحف .

وكنيت فى ذلك الوقت مرتبطاً بالمتحف الآسيوى من جهتين : أولاً من جهة تفكيرى فى رسالة المايجيستر ، فقد أبت إرادتى إلا أن أعمل على بحث ونشر مؤلفات شاعر عربى من القرن العاشر هو الوأواء الدمشقى . وكان أن اتفق وجود مخطوطتين له فى المتحف الآسيوى وأخذت بإصرار أفك رموزهما وأنسخهما وأقارن بينهما . ووجدت أن المخطوطتين ليسا فى حالة حسنة وأنهما من فترة متأخرة ومكتوبان بحروف غير واضحة بل أن أحدهما يحوى أخطاء كثيرة . فكانامصدر حزن كبير لى كطالب ناشئ يلتهمس الطريق ، وطالما جرانى إلى خيبة أمل وحملانى على الشك فى قدرتى .

وقد حدث من بين المرات النادرة أن دخل المتحف ف. ر. روزن بتلك الحيوية التى كان عليها دائماً . وكنيت فى ذلك الوقت جالسا إلى هذين المخطوطتين فتوجه إلى بمرحه المعتاد قائلاً : « كيف حال وأوامك الصغير ؟ » ، ولم أكن أجرو عادة أن أتوجه إليه بالشكوى من أحزاني الصغيرة مؤملاً أن أفعل ذلك عندما

يكون كل عمل قريبا من الانتهاء . ولسوء الحظ لم أكن أتصور أن عندها سيكون الوقت قد فات .

والجهة الثانية التي ربطتني بالمتحف الآسيوي تتعلق بعمل آخر كنت قد أخفيت أمره عن روزن مدة طويلة . ذلك لأنني كنت أخاف من اللوم بسبب توسعي الكبير . وكان هذا العمل قد ظهر تحت تأثير اهتمامات لم الذي كان يعمل بلا كل وتعب في «دراساته القبطية» . وغالبا ما كان يضطر في عمله إلى الاهتمام بموازيات عربية . وهنا بدأ ينظر نحوي تدريجيا باحترام خاشع لمعرفة العربية . وهذا بالطبع . لأن الموضوعات العربية المسيحية كانت قريبة مني آنذاك . وطالما توجه إلى بأسئلة مختلفة ، بلهجته الدائمة غير الراضية . وبالنسبة لي كانت مثل هذه الأحاديث مع عالم من الدرجة الأولى لا تقل فائدة عن الدروس المنتظمة . وكان أ. ا. لم يجمع طول حياته مواد علمية لبحثه الكبير لأسطورة عن رئيس الملائكة ميخائيل . وعلى هذا استكتب ذات مرة من غوتا إلى المتحف الآسيوي مخطوطا ضخما يحوى أشعاراً غنائية قبطية ورواية عربية فريدة للأسطورة .

وقد جذبني هذا الموضوع الأسطوري بتأثير «لم» وقررت أن أنسخ المخطوط كاملا . وكان على عكس مخطوط الوأواء واضحا جداً . وكان العمل الأساسي فيه لا يتطلب إلا قوة آلية جسيمة . وبالطبع كان الوقت اللازم لنسخ أكثر من ثلاثمائة صفحة ليس بالقليل . ولكنني قررت أن أعترف لروزن بحيررتي عندما انتهيت من نسخ كل المخطوط . غير أنه لم يغضب خلافا لما كنت أتوقع ، وقال بمنتهى المرح : « هذا عظيم . تألف رسالة الماجيستر عن الوأواء ورسالة الدكتوراه عن ميخائيل » . إلا أن هذا لم يحدث وما زالت النسخة حتى هذه اللحظة مخزونة عندي ، ولم تفدني لا بمادة لبعض المقالات الصغيرة . على أن جو تلك المدرسة ، مدرسة العمل الاستقلالي العميق في المخطوطات ، والذي عشت فيه في المتحف الآسيوي ، ظهر أنه كان بالنسبة لي مفيداً للغاية . وسرعان ما صار اندفاعي أمراً ملحوظا . وفي عام ١٩٠٧ حدثت لي مفاجأة غير متوقعة . فقد اضطررتني الدراسات المرتبطة برسائلي ، إلى دراسة أشعار المتنبي ؛ وعندها أسفت لأنه لا يوجد لدينا مخطوط تعليقات الشاعر والفيلسوف المشهور أبي العلاء على هذه الأشعار . وسألني روزن برغ ولم يجمعته

الدائمة عن مكان وجود هذا المخطوط فأجبت بأنه في مدينة مونيخ . إلا أنى بالطبع لم أعط هذا السؤال أهمية . وذات مرة ، وقبل أن يمر أسبوعان على ذلك جئت من أجل عملي العادي عن الوأواء ، إلى ذلك المسكان الدائم ، على تلك المنضدة المربعة وهناك وجدت مخطوط مونيخ بنفسه . وأخذت أتأمل به ذهول كامل في حين كان لم وروزنبرغ وراء المنضدة الصغيرة ، يتبعان بحب استطلاع ، انطباعاتي عند رؤية هذا المخطوط الذي لا يتوقع وجوده . ويبدو أنهما قاما في السربكتابة خطاب لإرسال المخطوط من مونيخ إلى المتحف الآسيوي حيث ظل المدة اللازمة لي للعمل .

وفي عام ١٩٠٨ . بعد نصف عام عقب امتحان الماجيستر ، سافرت إلى الشرق حيث غرقت في حياة أخرى ، ومخطوطات أخرى حجبت المتحف الآسيوي . وبعد رجوعي من هناك ، سنة ١٩١٠ ، بقيت مدة طويلة أيضاً بعيداً عن المتحف . ذلك لأنني شغلت بالاشراف على مكتبة اللغات الشرقية المعروفة باسم روزن والتي تأسست في ذلك الوقت ، وقد أعطيت معظم وقتي لتنظيمها .

ثم إن عدم تعودي بعد على إلقاء المحاضرات بالجامعة وضرورة استعدادي لها ، كل هذا ابتلع كل أوقات نهاري وكثيراً ما لم يمكنني من زيارة المتحف . وكان يرتبط بهذا الموقف طبعاً مراقف أخرى . فلم يسكن في المتحف الآسيوي متخصص في الاستعراب على أن مديره الأكاديمي زاليومان — كما هو أحياناً طابع العالم العجوز — كان يريد أن يعمل كل شيء بنفسه وظن أنه سيتمكن من إيجاد وقت لأجل هذا العمل الاستعرابي . وعلى هذا تولى بنفسه وصف مخطوطات الشرق الأدنى الواردة حديثاً المتحف . وكان لا يتوجه إلى بسؤال إلا في بعض الحالات الصعبة بشأن بعض نسخ منفردة من هذه المخطوطات لتوضيح كنها له . وهكذا ، وبسرور عظيم ، استطعت التمتع بنسخة رائعة لمخطوط من القرن الثاني عشر هو « الآثار الباقية عن القرون الخالية » للبيريوني الخوارزمي المشهور . وكانت هذه النسخة قد اشتريت حوالي ذلك الوقت في إيران . وكنت أحلم بأن أعانق ما لا يشتمل ، ونسخت بعض قطع من هذا المخطوط تكمل الأماكن الخالية في طبعة زهاو المشهورة ، واقترضت أنني سأتمكن من نشر هذه القطع

القطع فيما بعد . لكن الأمر بدا أصعب مما كنت أظن وظلت هذه النسخة ملقاة عندي حتى الآن لا تزال تنتظر دورها . وكان عيداً عظيماً لي يوم أن اكتشفت بين الكتب الآتية حديثاً ، أحد مجلدات تاريخ ابن مسكويه وهو مجلد مخطوط كتب بخط جميل في آسيا الوسطى في وقت ليس متأخراً عن القرن الثاني عشر وهو نفس المجلد الذي قرأه ياقوت الجغرافي المشهور في ذلك الوقت هناك في مدينة مرو على أغلب الظن . وقد اتضح هذا الأمر مع مرور الوقت عندما عثر في مدينة قران على مجلد آخر لنفس هذه النسخة وعليها بعض كلمات بخط ياقوت نفسه . وبعد ذلك اكتشفت في آسيا الوسطى المجلدات الثلاثة الباقية كلها ، مؤكدة من جديد تلك الحقيقة القديمة القائلة بأن « للكتب أقدارها » . وبسعادة لا تقل عن سابقتها . وفي مخطوط متلف من مجموعة حديثة آتية من بخارى ، اكتشفت « ديوان » أشعار « الأعرابي الأخير » ، ذي الرمة ذلك الشاعر الأموي الكبير في القرن الثامن .

وفي نهاية ١٩١٦ مات زاليان مدير المتحف وفي نفس الوقت أخذت تتوالى بانتظام على المتحف الآسيوي مخطوطات كثيرة متنوعة أنقذت أثناء الحرب من الجبهة القوقازية . وكان أكثر هذه المخطوطات عربية تعلن في إصرار وبصوت داو عن ضرورة وجود مستعرب في المتحف الآسيوي . وقد دعاني المدير الجديد للمتحف أولدنبورغ في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ للعمل على هذه المخطوطات بصفة أساسية . وكان هذا بالنسبة لي عيداً عظيماً . وفتحت لي خدمتي بالمتحف الآسيوي مجالاً كاملاً إلى المادة العلمية بما في ذلك المخطوطات التي أستطيع الآن أن أغرق فيها بحرية إلى المدى الذي تستطيع باوغة قوتي ووقتي ، وفي أية ساعة من الليل أو النهار . هكذا عملت وعمل الآخرون . ولم يكن وقت العمل محدوداً اللهم إلا بعض ساعات اليوم للخزنة . وكان العمل الشخصي العلمي يتداخل مع عمل المتحف . وكان هذا العمل الشخصي لا يعرف أي حد أو معدل . ولقد كنا نحن الشباب نضحك من لم لأنه كان يأخذ بطاقات المكتبة لكتابتها بالمنزل . وكان الكثيرون في المتحف يعملون هم النصف الثاني من اليوم ، وكثيراً ما كانوا يجلسون حتى آخر الليل . وكان هذا شيئاً عادياً بالنسبة لروزنبرغ نفسه .

وفي عام ١٩١٦ تغيرت حال المتحف إلى درجة ملحوظة إذا ما قورنت بحاله في الزمن السابق عندما كان لم هو الخازن الرسمي الوحيد . أما الآن فأصبح هؤلاء الخزنة ثلاثة : لم وقد نال لقب كبير الخزنة والثاني في مرتبة لم أيضاً هو روزنبرغ ، أما الثالث وهو أصغر درجة فكان الكسييف . أما خارج هيئة المتحف فكان يعمل إلى جانب عن س. ا. فينر ، المستشرق في الفارسية ، ف. ا. إيفانوف ذلك الرجل البالغ الغرابة والمختص الكبير في التصوف والمحِب الوهّان المخطوطات . وكان « صياداً » ناجحاً جداً لهذه المخطوطات . فقد أرسلته إلى كازيمية مرتين لجمعها في آسيا الوسطى . فاغتنى المتحف بالمجموعة الضخمة التي جمعها والتي تسمى بمجموعة « بخارى » . وكان إنساناً لا ذعاً سليط اللسان يتكلم بالمجاز . وكان دائماً وبخاصة عند تناول شاي الظهيرة يوجه لذعائه إلى ذلك الشخص الهادى الذى يشتغل في المتحف ، وهو الأرمنى ا. ا. كالانتاريان ، الذى لم تكن تظهر عليه إستجابته للسخرية عادة إلا بعد أن يتفرق الجميع . وكان المستشرق في الدراسات المونغولية الموهوب ب. ي. فلاديمير تسوف قد دعى للعمل في فترة سابقة قليلاً لعملي في المتحف . وظلت هيئة الموظفين تنمو بعد إلتهاقى بالعمل في المتحف . ومحل لم حل ب. ف. يرنشادت ، العالم في الدراسات القبطية والهللنية وظهر أيضاً شاب متخصص في الدراسات القوقازية هو ا. ن. غينكو .

وفي عام ١٩١٨ وقع حدث كبير في المتحف الآسيوى . فقد انضمت إلى عداد الموظفين وبمبادرة من أولدنبورغ أول امرأة هي ن. م. ديا كونوفا تليدة ب. ا. تورايف ، العاملة في الدراسات المصرية القديمة والتي أصبحت زوجة الكسييف فيما بعد . وأخذ يظهر تدريجياً للعمل بالمتحف أفراد من جيلنا والجيل الذى يليه بل ومن تلاميذنا .

وقد أعطى لونا ناصعاً للحياة بالمتحف المستخدمان ديمترى بريادوف وييريمي زيزوزين اللذان أمضيا هنا معظم فترة وجود زاليان وكل فترة وجود أولدنبورغ وكل من بريادوف وزهيزوزين خرج من الوسط الفلاحى البسيط ، وكانا بطبيعتهما يملكان مواهب ليست بالمقليلة . وقد استطاعت هذه المواهب أن تتطور بفضل

وجودهما في هذه المؤسسة الثقافية . وبصرف النظر عن القول بأن كليهما استطاع أن يفهم جيداً الرموز المكتبية المختلفة والحروف اللاتينية ، فإن كلا منهما كان بنفسه يجيد كل صناعة . فبريادوف تعلم بنفسه تصليح الساعات بمتى الروعة . وأما زيوزين فقد تعلم تصليح الأحذية . إلا أنه يمكن القول بأن هذه المواهب ليست إلا مواهب معيشية ، ولكن الأمر الأكثر إمتاعاً أن بريادوف صار مصوراً وصور المخطوطات الشرقية بطريقة فنية . وقد أرسلته الأكاديمية في مهمة لهذا الغرض إلى دير باسم « أفون » . ولما كان المتحف يرسل صوراً من المخطوطات بناء على طلبات من العلماء الأجانب ، فقد وصلت إلى المتحف رسائل كثيرة خاصة للشكر على أن الصور التي أرسلت إليهم تمتاز بمهارة عجيبة . وبالطبع فإن هؤلاء الأجانب لم يكونوا يدرون من الذي كان يعمل على تصوير هذه المخطوطات . وعندما اتسعت هيئة إدارة المتحف بحيث أصبح عدد المستخدمين ثلاثة كان المستخدم الثالث هو الذي يتغير عادة ، أما كل من بريادوف وزيوزين فكان يعملان باستمرار دون أن يتغيرا . وبدونهما كان من الصعب تصور المتحف أو تصور وقوع أى حدث في حياته . وانتقلا كلاهما فيما بعد مع المتحف إلى مبناه الجديد . إلا أن بريادوف أصابه المرض هناك وأصبح صعباً عليه صعود السلم ، ولم يعد يستطيع القيام بتصليح الساعات . ثم وافته المنية في العقد الرابع من هذا القرن بعد موت روزنبرغ . ورفى زيوزين إلى درجة مستخدم علمي فني . إلا أنه أيضاً أخذ يذبل رويداً رويداً ، ولم يذبل عوده تماماً إلا في سنة ١٩٤٢ القاسية . وبموته انتهى آخر ممثل للمتحف الآسيوي القديم . لقد ذهب وهو يذكر جيداً ما كان من فترات مختلفة في حياة ذلك المتحف .

كانت فترة إدارة أولدنبورغ وبخاصة أعوام ١٩١٧ — ١٩٢٥ فترة ازدهار كبير للمتحف عندما أصبح في الحقيقة على نحو غير ملحوظ مركزاً لكل الاستشراق العلمي في لينينغراد . وقد انتقل إلى المتحف إلى حد ما الدور الموحد الذي لعبته فيما مضى كل من كلية اللغات الشرقية التي تفتتت والشعبة الشرقية لمجمع الآثار التي حل محلها لعدة أعوام « مجلس المستشرقين » التابع للمتحف الآسيوي وكان روح كل هذا الانتعاش هو بالطبع س. ف. أولدنبورغ إلا أن ارتباطه

بالعمل العلمى التنظيمى الواسع فى الأكاديمية وخارجها لم يكن يمكنه دائماً من إعطاء وقت كاف للتحف الأسيوى . واتضح أن كل الأعمال اليومية وكل ما يتعلق بتنظيم العمل وتوزيعه كان فى يد ف. ا. روزنبرغ الذى اكتشف على غير انتظار موهوباً كبيراً لتوحيد الجيل الأصغر حوله . أما لم فسرعان ما أصابه ثم مات سنة ١٩١٨ . وبقي روزنبرغ كبير الخزانة محتفظاً كسابق عهده بنغمة الجمعية ، لكنه استطاع — على نحو غير ملحوظ — أن يقرب إليه جميع الموظفين فى العمل ، وأن يسيطر عليهم بسلطانه العلمى الرائع وبخاصة بهالته الثقافية الرفيعة الشائخة : فقد كان إلى جانب كونه من علماء الصف الأول علامة دقيقة فى الفن والأدب العلمى .

وقد كان العمل سهلاً فى مثل هذا الموقف . برغم جميع المضاعف التى كانت كانت تواجهها بتروغراد فى ذلك العصر . وبالنسبة لى كانت فترة ١٩١٦—١٩٢١ فترة غرق لا فى مخطوطات منفردة نخسب بل وفى مجموعات كاملة فيها ذخائر وكانت تنهال على أحياناً بكثرتها ، إلا أن الاحتكاك الدائم مع المواد الحية المتجددة ساعد بصفة خاصة على تجديد همته والإسراع بالعمل العلمى .

وكان على قبل كل شئ أن أقوم بترتيب أكثر من ألف مخطوط تعرف باسم مجموعة القوقاز كانت قد أحضرت من جهة الحرب هناك . وفى كل أسبوع كان يسلم إلى فى المتحف د طرد ، منها . وكان هذا التيار المستمر يهددنى أحياناً بالغرق . وكانت هذه المخطوطات فى أغلب الأحوال من الدرجة الثانية بل إن أكثرها كان من الدرجة الثالثة . إلا أن النظر فى هذه الكمية الضخمة علمنى سرعة الاستدلال فى مادة جديدة ، ووسع من نظرتى إلى جميع مجالات الكتابة . ولقد أعطتني هذه المجموعة لأول مرة فى حياتى صورة مرئية عن معارف أدبية تتصل بالثقافة العربية وتحص إحدى مقاطعات العالم الإسلامى . ومرت أمام ناظرى كتب تعليمية ومؤلفات علمية مدرسية وباختصار كل حلقة القراءة ، التى ألهمتها أجيال كاملة مدة مئات من السنين حتى القرن العشرين .

وما كدت أنتهى مى التغلب على تلك الموجة العارمة حتى ابتلعتنى أخرى أكثر خطورة من السابقة : هى تصنيف المخطوطات التى بقيت بعد وفاة روزن

والتي أرسلها إلى المتحف في ذلك الوقت تليذه الأقدم المستشرق المشهور في الدراسات الإيرانية ف. ا. جوكوفسكي الذي مات ١٩١٨ . ولقد ظننت أنني كنت أعرف روزن عن قرب بدرجة كافية في آخر فترات حياته . لكنني آنذاك فقط ، عند دراستي لمخطوطاته ومراسلاته الواسعة ، استطعت تقدير ذلك الشخص الكبير والعالم العالمي حق قدره . وكان المتخصصون في كل البلاد يعدون الاتصال به تشریفاً لهم ، فهو منظم الاستشراق الروسي ، ومن مدرسته تخرج نجوم علمنا أمثال أولدنبورغ ومار وبارتولد وآخرون كثيرون . وأن أعمال روزن العلمية التي لم تنشر وأبحاثه التي لم تكتمل ومسوداته ووثائق تاريخ حياته ومراسلاته كل هذا أعطاني مراد للنشر طول حياتي . إلا أن كثيراً منها لم يستنزف بعد .

وإذا ما أضفت إلى ذلك أنه قد وصلت إلى المتحف في تلك الأعوام مخطوطات البطريك غريغوريوس من القصر الشتوي وبمجموعة كبيرة من القسم التعليمي السابق لوزارة الخارجية ، وكانت « مجموعة بخاري » التي جمعها أيفانوف تنمو باستمرار . وإذا ما أضفت إلى هذا أنه كان لابد أن يمر كل مخطوط عربي من بين يدي ، أصبح من السهل تصور أي بحر كنت موجوداً فيه وأية حال من التوتر كان عليها عملي الذي كانت المواد الجديدة تجعله دائماً على مستوى زائد .

وكانت السعادة بالاكشافات الكبرى تتناوب مع الارتياح لنمو ذخيرتنا ودخولها مجال العلم على نحو أوثق فأوثق . وكانت مجموعات المخطوطات الجديدة توضح بجلاء أكثر قيمة المجموعات القديمة السابقة . وشعرنا كلنا بهذا ، بصورة قوية عندما كتبنا — بمبادرة من أولدنبورغ — كل حسب اختصاصه ، مختصراً لأقسام المتحف بمناسبة الذكرى المئوية له ، سنة ١٩١٨ . وأن الاطلاع على المراد العلمية لمؤسس المتحف وأول خازن له خ. د. فرين ليرفع إلى الذرى هذا الشخص العالم من الطراز الأول الذي عمل بكل قلبه من أجل صالح المتحف . وإن شعور المرء بأنه يواصل العمل الذي أوصى به من السابقون العظام ليساعده على قهر المصاعب وأداء عمله المتواضع المغفور بلا كلل . بالنسبة لي كانت أعوام ١٩١٦ — ١٩٢١ فترة غرقت فيها تماماً في مخطوطات المتحف الأنثوني .

وفي نهاية ١٩٢١ انتخبت عضوا في الأكاديمية . وبحسب النظام المتبع في ذلك الوقت كان من اللازم أن أترك وظيفتي في المتحف . وبالطبع فإن هذا الموضوع لم يعقني عن العمل بالمتحف ولكن الاختيار وقع علي في السنة التالية لوظيفة أمين قسم التاريخ واللغة والآداب في الأكاديمية . وكانت وكانت هذه الوظيفة قد أنشئت حديثاً في ذلك الوقت . وعملت المهمات التنظيمية الإدارية الجديدة المرتبطة بضرورة الوكالة عن الأمين الدائم للأكاديمية س. ف. أولدنبورغ وقت رحلاته المتعددة على اقتطاعى من المتحف مدة تقرب من السبعة أعوام وقللت كثيراً من إمكانية عملي العلمى الشخصى .

وفي الوقت نفسه كان المتحف الاسيوى القديم يسير في طويق النهاية . ففي عام ١٩٢٥ ، وبمناسبة ذكرى مرور مائتى عام على تأسيس الأكاديمية انتقل المتحف إلى مبنى جديد فوق مكتبتها . وفيما بعد اتحد المتحف مع المنظمات الاستشرافية الأخرى للأكاديمية وتحول الجميع إلى معهد الاستشراق . وبعد هذا بدأت فترة جديدة . كان الموظفون جميعاً يدكرون هذا ، إلا أنه كان من الصعب على الكثيرين مفارقة البناء القديم غير المريح ، لكنهم ألفوه وارتاحوا اليه . وكان ذلك البناء القديم للمتحف في زقاق تاموجينى حيث كان يشغل الطابق الأول . أما هنا ، فى المبنى الجديد ، فلا بد من الصعود إلى الطابق الثامن . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير على الجميع حتى من الناحية الجسمية . كان روزنبرغ أول من شعر بهذا ، وأصابه المرض فى الأعوام الأخيرة ، فكان يتحرك أحياناً بصعوبة . وبدأ نوره يخبو تماماً بعد الانتقال إلى البناء الجديد . ولم يستطع الأطباء مدة طويلة أن يحددوا دسل المسنين ، الذى أصابه . وأمام أعيننا كان الخازن الأخير يخطو إلى العدم . وكان ا. د. زيوزين كالممرضة المختصة يزوره كل يوم تقريباً فى وحدته هناك فى شقته . وربما كان ينفذ بعض رغباته التى لم تكن فى صالح مرضه . وكان روزنبرغ عالماً بطلا حتى وهو فى طريقه إلى الموت . فى تلك الساعات القليلة من الليل وفى تلك الفترات القصيرة التى كانت تنخفض فيها درجات حرارته الأربعين ، وتختفى عندها رؤية الأصدقاء الراحلين إلى عالم الفناء ، كان يعد لذكرى الفردوسى ترجمة وتعليقات عن بعض قطع مختارة من « الشاهنامة » وهو أحسن العارفين بها . وقد ظهر كتاب صغير أنيق الطبعة كان آخر عمل له ، لكن للأسف بعد موته .

وما كان روزنبرغ الجزين الوحيد على المتحف الآسيوى القديم . ونحن بالطبع
كنا ندرك جيداً أن الأكاديمية لا بد لها أن تنتقل من صورة ذلك العمل البدائى
والخرفى أحياناً فى تلك الأقسام الصغيرة إلى معهد كبير بفروع مختلفة وبمجموعة
كبيرة من المستخدمين . ولكنه كان من المحزن لنا أن العمل على المخطوطات
وذخائرها . ذلك العمل الذى كان فى السابق للصعب الأساسى للحياة فى المتحف
الآسيوى والذى ملأ كل هذه الحياة ، قد أصبح الآن فى المرتبة الثانية . ولم يكن
الجميع يدركون معنى هذا العمل وقيمه . فالحلقة الصغيرة لأولئك العلماء الذين
عاشوا فى المكتبة من أجلها قد ذابت فى المعهد الكبير للأبحاث العلمية بما يوجد
فيه من عشرات المستخدمين ، يعدون المائة ، وبما له من برامج واسعة . كل هذا
كان مفهوماً وطبيعياً . ولكننا كنا نتذكر المتحف الآسيوى القديم كما يتذكر المرء
الآن جمال الصناعة اليدوية قديماً والتي اندثرت تحت ضغط الإنتاج المعاصره ،
وهذا أمر لا بد منه حسب قانون الزمن . لكن من شب فى الحالة القديمة لهذه
الصناعة يتحصر على جمالها وإن يكن يفهم ذلك . وربما لست أنا وحدى الذى
يتذكر بإحساسه الخاص أسطورة عن المتحف الآسيوى نشأت فى أجوائه فى
العقد الثالث من هذا القرن ودارت حقايدها فى ملكة المالك « بوك الخير » فى قصر
الفارم « الجبل الوردى » وكان من بين الذين يعيشون هناك ساحر عربى خير
وبطرس الفلاماندى القاسى وكان هناك ثلاثة من التروبادور هم : جيول —
Aux cheveux longs — الطويل الشعر ونوس — Aux cheveux blonds —
الذهبي الشعر ودوس — Aux cheveux noirs — الأسود الشعر وكان هناك
أيضاً اللاعب بمجموعة الكرات الكسيس لى بيف وكثيرون كثيرون آخرون
ولا أزال أرى كلا منهم اليوم على مهاد الخزانات الحمراء نفسها والكتب
والمخطوطات نفسها التى أحاطت بنا عشرات الأعوام فى المتحف الآسيوى
القديم .

٢ — مخطوط وحيد وعلما « اثنتى عشرة لغة »

كنت فى حياتى الاستعرابية ألتقى غالباً بمخطوطات. اكتشفت منذ زمن بعيد دون أن يشعر أحد ودون أية جلبة أو ضوضاء . إلا أن قصة دخولها بالتدريج إلى دنيا العلم ، تذكر أحياناً بأسطورة سحرية يقوم بالأدوار فيها مجموعة من الشخصيات ارتبطت أقدارهم معاً على غير انتظار . ومع أن موضوع القصة بدون رتوش ، إلا أنها تعطى صورة دالة للعمل الجماعى لعلماء كثير من الشعوب . هذا العمل الذى جذب إلى مجراه موهوبين ممتازين وعاملين بسطاء وشعوباً كاملة بتراتها الاستعرابى القديم ، وقوميات نالت استقلالها أمام عيوننا بل وجذب إلى مجراه الشرق والغرب كافة على اختلاف أشكالها الظاهرية . حقاً إنها لصورة جذابة تحمل بين جوانبها قوة معلية ، ومثلها كمثل الشمس على قطيرة ماء ، فى عكسها حركة الثقافة الإنسانية التى لا تعرف السكل .

فى القرن الثانى عشر ، كان يعيش فى قرطبة شاعر عربى ، قليل الشهرة فى أوساط رجال القصور عند أمراء أسبانيا الكثرين من ملوك الطوائف الذين تقاسموا الخلافة القرطبية فيما بينهم . إلا أن الناس فى الأسواق وفى كل مكان يجتمع فيه الشعب البسيط ، كانوا يقابلون شاعرنا هذا كضيف محبوب لا فى قرطبة فحسب بل فى المدن الأندلسية الأخرى ، كاشبيليا وغرناطة . وكانت لغة شاعرنا القومية هى العربية . أما شكله بعينه الزرقاوين ولحيته الذهبية المائلة إلى الحمرة فيشير إلى أن بين أجداده من كان دمه من سلالة أوروبية . وحتى اسمه نفسه « ابن قزمان » كان مستعملاً بين العرب والأسبان على السواء . وهو فى أشعاره لم يقتف النماذج العربية القديمة للبدح المتجيدى باللغة الفصحى الكلاسيكية . وتحدث أغانيه الحية المرححة أكثر ما تحدث عن الحب والخمر مع تلميحات ليست بالنادرة عن ضرورة المساعدة للفقير دائم الترحال . وجعلت موهبته الكبيرة فى كل أغنية صورة جريئة ناصعة براقة عن كامل وضع الحياة والمعيشة وكثيراً ما كان يتناول الغزل المكشوف . وكان ابن قزمان لا يستخدم اللغة الفصحى تقريباً . ويفضل استخدام لهجة التخاطب الشعبية لأقاليم وطنه . بل ولم ينجل من استخدام

الكلمات والتعبيرات الرومانية التي كانت مفهومة آنذاك . وليس عجيباً أن يكون مثل هذا الشعر بعيداً عن روح الأدباء المحبين للغة الخالصة التي تتقيد بكل القواعد . وبعيداً عن روح المعجبين بالتقاليد القديمة ، الذين نظروا إلى تسجيل زجله المرح نظرهم إلى شيء غير جدير بهم . لكن كان هناك أيضاً الكثيرون الذين أعجبهم هذه الأزجال . وابتدأت تشق طريقها رويداً رويداً نحو الشرق العربي . وهناك في فلسطين ، في مدينة صغيرة ، في صفد ، قام شخص عربي بعد مائة سنة بنسخ هذه الأزجال بدافع من اهتمامه الخاص . وقام بكتابتها بدقة وعناية . إلا أنه لم يكن يعرف اللهجة العربية الأسبانية البعيدة عنه ، ولم يكن لديه بالطبع أية فكرة عن اللغة الرومانية ، وذن هنا يمكن أن نتصور بسهولة أية أخطاء تسربت إلى هذه النسخة لا سيما في تلك الكلمات الرومانية التي نسخها بحروف عربية بطريقة آلية . وعلى كل حال فما كنا لنعرف الشيء الكثير عن ابن قزمان لو لم يخزن هذا المخطوط — الوحيد المعروف حتى الآن — عندنا في المتحف الآسيوي . وكان طريق المخطوط شاقاً . وأخيراً وقع عندنا بفضل بعض المصادفات السعيدة .

ففي نهاية القرن السابع عشر وصل من جنيف إلى سوريا شخص غير معروف . يدعى روسو وهو يمثل لعائلة جان جاك روسو التي صارت لامعة فيما بعد . وهناك في سوريا كان روسو هذا يحيا حياة أفضل مما كان يحياها في وطنه . وقد استطاع بالتدريج أن يجمع بعض الثروة . وعشية الثورة الفرنسية كان ابنه قنصلاً لحكومته في حاب وبغداد . وكان حفيده قد ترعرع في الشرق بثقافته الفرنسية إلا أنه صار فيما بعد نموذجاً حقيقياً لسكان الطرف الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط . فقد سيطر هذا الحفيد تماماً على اللغة العربية والفارسية والتركية واكتسب بنفسه وبطريق مباشر انطباعات عن تركيا وإيران حيث كان يقوم بتنفيذ أوامر دبلوماسية وتجارية هامة خاصة بحكومته الفرنسية . وقد اقتنى الحفيد خطوات أبيه كتاجر رسمي ووكيل قنصلي وصار أحسن من أبيه من حيث معارفه واهتمامه العلمي نوعاً ما بتلك البلاد التي عاش فيها . وأقام الحفيد في حاب وقتاً طويلاً . وأقامته في هذه المدينة ، التي كانت آنذاك مركزاً ثقافياً ، أصيلاً للمنطقة . وقد طورت فيه ذوقاً نحو الأدب وجمع المخطوطات .

وتجمعت لديه بالتدريج مجموعة كبيرة اختيرت بمهارة ولم يكن ديوان ابن قزمان المخطوط الفريد الوحيد في هذه المجموعة . أما النصف الثاني من حياة الحفيد فقد كان بعيداً عن الهدوء والراحة . فقد قضاه في طرابلس الغرب . وفي ذلك الوقت تغيرت ظروفه المادية إلى حد جعله في ١٨١٥ يفكر في أن يتخلص من مجموعة مخطوطاته ببيعها .

فتوجه إلى الحكومة الفرنسية أول ما توجه يعرض عليها شراء المجموعة . إلا أن عجز الميزانية بعد حروب نابليون لم يمكن الحكومة من الموافقة على المبلغ الكبير نسبياً الذي طلبه صاحب المجموعة بكل حق . وهنا جاء دور سلفستر دى ساسى أكبر مستشرق مشهور في عصره ، وكان يقدر جيداً قيمة هذه المجموعة فأخبر عنها — بواسطة تلاميذه الذين كانوا أساتذة زائرين في بترسبورغ — وزير المعارف العمومية أوفاروف . كان هذا معروفاً لدى ساسى شخصياً وصاحباً لمشروع « المجتمع العلمى الآسيوى » الذى لقي اهتماماً كبيراً من « غوته » . وقد بيعت المجموعة على دفعتين في عام ١٨١٩ ، وعام ١٨٢٥ . وحرمت فرنسا من مجموعة قيمة . إلا أن هذه المجموعة لعبت عندنا دوراً ضخماً بوضعها أساساً لمجموعات المتحف الآسيوى العالمية الشأن . وكانت لهذه المجموعة قوة جذابة لا تقل عن مجموعة النقود القديمة للأكاديمية . وهاتان المجموعتان اجتذبتا في روسيا إلى الأبد فرين المشهور أثناء عودته من قازان — حيث خدم عشرة أعوام — إلى وطنه في مدينة روستوك ليشغل كرسى أستاذه المتوفى في ذلك الوقت . وفرين ، أول أمين للمتحف الآسيوى ومؤسس استعرا بنا العلمى ، قدر قيمة المخطوطات حق قدرها . وقام في مجلداته الكثيرة بأول وصف لماداتها وأعد فهرساً لها . وبهذه الصورة أنقذت أشعار ابن قزمان ووجدت لنفسها مكاناً أميناً تخزن فيه لكن هذه الأشعار لم تشق طريقها إلى العلم بسرعة إلا بعد أكثر من ٦٠ عاماً .

ف . ر . روزن ابن ألماني أمه نصف جورجية ونصف روسية وهو مؤسس المدرسة الحديثة في الاستشراق الروسى ، كان قد انتخب في ١٨٧٩ عضواً معنا للأكاديمية ولديه من العمر ٣٠ عاماً . وفي أول أعماله وضع خطة لطبع الفهارس العلمية للمخطوطات العربية بالمتحف الآسيوى . وكتب هذا الفهرس

بالفرنسية وبطريقة حية هي من خصائص روزن الملازمة له. وبفضل هذا الفهرس سرعان ما دخلت في حلبة العلم ثلاثمائة مخطوط، تشتمل بصفة أساسية على مجموعات روسوالتي كان من بينها أشياء نادرة ليست بالقليلة. وقد وجه روزن اهتماما خاصا نحو ديوان ابن قزمان . وقام بدقة بتقويم الشكل الخاص بأشعاره. وكتب وصفا مختصرا للشاعر وأورد بعض أشعاره التي طبعت هنا في المرة الأولى باللغة العربية. وإلى جانب هذا ، كان روزن يستجيب بحموية لمختلف ظواهر الحياة الاستعرايية . وقد أراد أن يجذب إلى العمل أناسا آخرين . وكان يفهم أن أحسن من يصلح لدراسة ابن قزمان في أوروبا آنذاك هو المستعرب الهولندي دوزي الذي كانت خبرته بالموضوعات الأسبانية تفوق كل المستشرقين في أوروبا : ولذلك فإن روزن في إتمامه لوصف مخطوط ابن قزمان أشار متحريشا — إلى عالم من مدينة ليدن ولمح إلى أن هذا العالم هو أفضل الجميع لدراسة أثر ابن قزمان . إلا أن دوزي كان يشعر بأن أيامه تميل نحو الغروب . وقد مات فعلا بعد عامين . ومن ثم لم يجرؤ على أن يربط نفسه بعمل جديد بجهداً . ولم يستجب لتحريش روزن إلا بخطاب يتضمن بعض ملاحظات طريفة تتعلق بالشاعر ابن قزمان وبأشعاره .

وبدأت الحياة العلمية لمخطوط ابن قزمان بفضل الفهرس الذي قام روزن بإعداده . وفي العقد التاسع من القرن التاسع عشر قام هذا المخطوط برحلة خاصة إلى غرناطة حيث كان يدرسه الأستاذ الجامعي الأسباني سيمونيت. وقام بتعريف أبناء وطنه بالشاعر القرطبي في مقالة خاصة كتبها. وكثيراً ما كان يستعين بعناصر من مؤلفات ابن قزمان في أعماله العلمية عن تاريخ الإسبان المستعربين . وعلى كل فإن أحداً لم يجرؤ على أن يأخذ على عاتقه طبعة محققة منقحة عن ابن قزمان . وظل ديوانه سنين طوالا لا توجد له نسخة مستعملة إلا تلك النسخة الوحيدة . إلا أن أحد تلاميذ روزن بتأثير منه استطاع أن يجد طريقا سليما يمكن به أن يصل هذا المخطوط إلى أيدي جميع العلماء المهتمين به .

ذلك أن بارون دافيد غينتسبورغ — الذي لم يكن تلميذ روزن فحسب بل وتلميذ الفرنسي غيويار العالم بالعروض العربي — كان جامعا مشهوراً للمخطوطات ومحباً للكتب وصاحباً لمصانع تكرير السكر وللامتيازات التجارية.

ومع كل هذا وجد وقتاً كافياً لدراسة أشعار العرب واليهود . وفي أوراقه التي عرفت بعد موته توجد دراسة جاهزة تقريباً عن عروض أشعار ليرمونتوف . وكان يهتم في جملة من اهتماماته العريضة بأسبانيا العربية . فقام في برلين ، وبأمواله الخاصة ، بنشر نسخة فوتوغرافية من مخطوط ابن قزمان . وهكذا أصبح المخطوط في متناول كل راغب في دراسته . وقد أراد غينتسبورغ نفسه أن يكتب بحثاً كبيراً متخصصاً عن المخطوط . وأعد لهذا العمل خطة عريضة تتضح من عنوان ومقدمة هذا البحث ويمكنهما أن تكون — على حد تعبير أحد العلماء — برنامجاً لحياة البشرية بأكملها . وبالطبع فإن هذه الخطة بقيت دون تنفيذ بسبب انجذابه الدائم نحو أعمال أخرى جديدة . ولكن نشر النسخة كان على كل حال خطوة كبيرة إلى الامام . ومنذ ذلك الوقت لم يرحل مخطوطنا إلى بلاد أجنبية : ذلك أن صورة أصل المخطوط التي نشرها غينتسبورغ جعلت المخطوط في متناول جميع العلماء . على أن هذه الصورة نفسها سرعان ما صارت من الكتب النادرة .

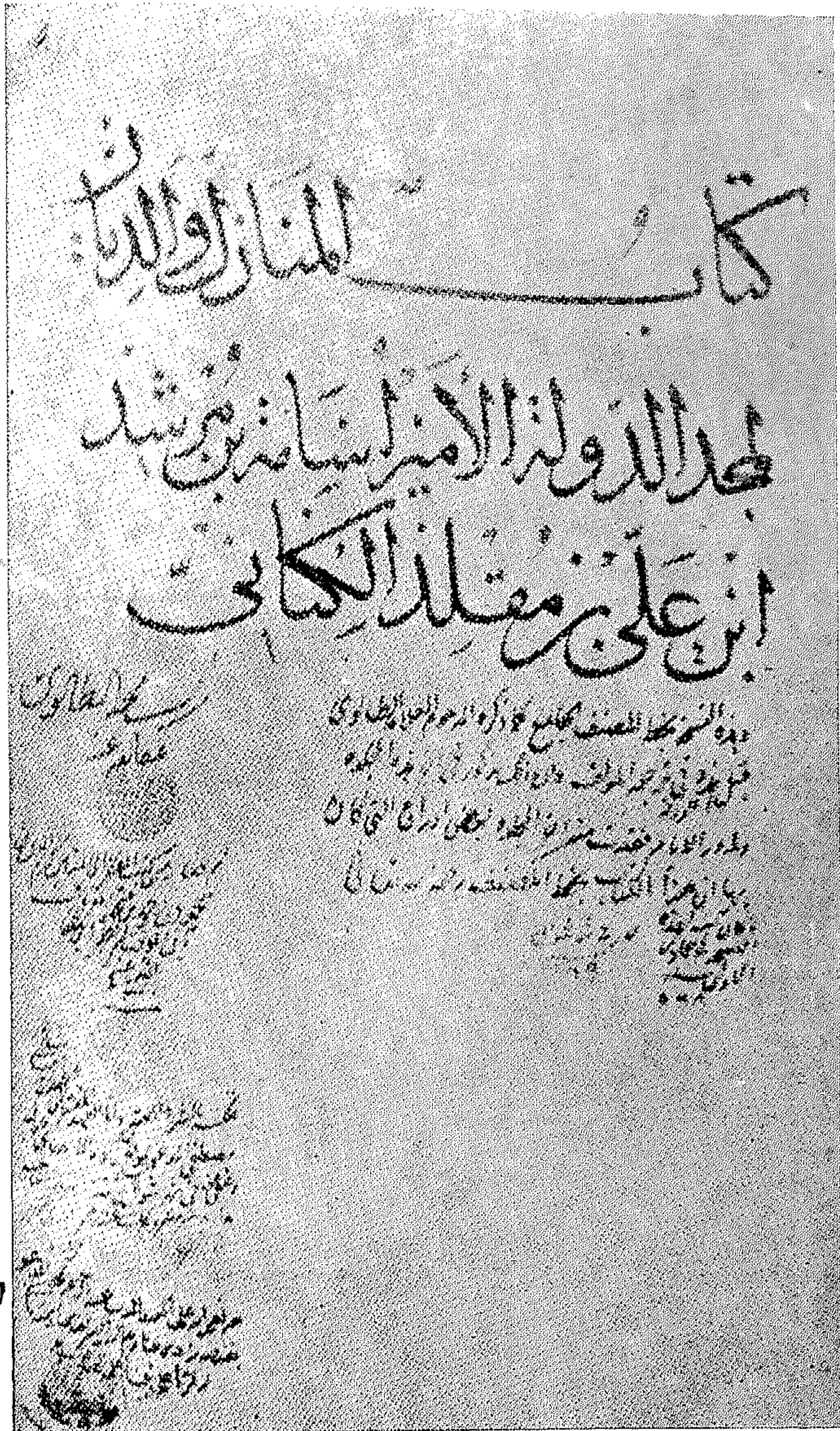
ورويداً رويداً ابتداءً ابن قزمان يقف حياً أمام مواطنيه البعيدين : علماء أسبانيا . وبجهد وإصرار ابتداءً هؤلاء العلماء منذ العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر يعملون فجوة للتشكيك في الاستعراب الأسباني . وكان انعدام ثقة المستشرقين في الاستعراب الأسباني نتيجة لما قام به كوندى وفضحه دوزى عليه . وفي النهاية جاءت أبحاث كل من كوديرا ورييرا وحملت المستشرقين على العدول عن المبدأ الذي كان سائداً بينهم « لا تقرأوا بالأسبانية » .

واستطاع رييرا في أعماله أن يعيد بجرأة بناء بعض الأغاني لابن قزمان وأن يعيد بناء كل الوضع الخارجي الذي نشأت فيه مضميناً بذلك مهاد صورة شديدة التعقيد . ولم تكن استنتاجاته المملوءة بالحساسية خالية من الهوى أحياناً . ولذلك قابلها بعض العلماء بتشكك . وشامت الأقدار ألا يهتم الغرب لنشاط رييرا الجدير طيلة نصف قرن إلا بعد العمل الذي قام به عالم روسي كان التلميذ الأصغر لروزن . وبدأ المتخصصون في الدراسات الرومانية

يذكر أن ابن قزمان مهم لهم أيضا كما هو مهم للمستعربين . وكان هناك تليذ آخر لروزن ومتخصص مشهور في الدراسات الأسبانية هو د . ك . بيتروف كان قد شغل في آخر أيام حياته بمخطوط ابن قزمان . لكن سرعان ما انطفأ هذا النور قبل أوانه . أما الشكل العربي للديوان يعني الحروف العربية فلا تعبر عن صوتياته إلى بصورة رديئة حالت أحيانا دون الدخول إلى معرفة قانون صوتيات وعروض الديوان . أصبح الأمر أوضح إذا غير شكله إلى اللاتيني ؟ . لقد نفذ هذا العمل فعلا عالم متخصص في ناحيتين : فهو مستعرب من ناحية ومتخصص في الدراسات الرومانية من ناحية أخرى . إنه التشيكي « نيكل » الذي كان وقتنا طويلا أستاذا للغات الرومانية في جامعات أمريكا الشمالية . وكان ظهور ديوان ابن قزمان في الصورة اللاتينية مدعاة لاستجابات حية في أوروبا وأمريكا . وأظهرت هذه الاستجابات أن محاولة نيكل وإن كانت تعتبر متسعة سابقة لأوانها من ناحية النظرة العلمية الجدية ، قد حققت على كل حال غرضا بالغ الأهمية . وكانت طبيعته هي المرحلة الثانية بعد غينيسبورغ في خلق « أدوات العمل » على أزجال ابن قزمان .

وقد استمرت التأليفات عن ابن قزمان تنمو دونما توقف . وكان لا بد من تقديم ملخص عام عنها . وهناك في المجلد التكميلي للطبعة العالمية « لدائرة المعارف الإسلامية » ، التي صدرت بثلاث لغات ، ظهرت المقالة الثانية عن ابن قزمان . والمقالة الأولى موجودة في مجلد أساسي كان قد كتبها علامة ألماني ، في ذلك الوقت الذي بدأت فيه فقط دراسة ابن قزمان ، وظهر أن مؤلف المقالة الثانية هو رائد الاستشراق العلمي في يوغوسلافيا بيرقترافيتش الذي كانت تتوحد في استعداده جامعتا فينا والجزائر . ولا يقل دلالة أنه بعد ٦٠ سنة من مقالة روزن الفرنسية الأولى المتعلقة بالمخطوط ، ظهر بحث تحليلي دقيق عن بعض أشعار ابن قزمان . وكان كاتبه باللغة الفرنسية البليغة أويغو تؤوليو المستعرب الفنلندي الموهوب والمتخصص في الدراسات الرومانية . وطبعاً فإن البحث الأساسي النهائي عن الشاعر القرطبي لا يزال طي المستقبل ، لكن العمل عن ابن قزمان يقف الآن على قدم ثابتة لا تتزعزع بفضل جهود كثير من العلماء من مختلف الأجيال عنها .

هناك في إحدى لوحات العرض بالمعرض الدائم لقسم مخطوطات معهد



أسامة بن منقذ. كتاب المنازل والديار. ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م. عنوان مخطوطة
معهد شعوب آسيا لدى أكاديمية العلوم السوفيتية.

الاستشراق — وريث المتحف الآسيوي القديم — كان يوجد لمدة طويلة مخطوط متواضع بسيط بورق مائل إلى الصفرة وغلاف شرقي رديء من الورق المقوى بألوان مختلفة انطفأت من تأثير أشعة الشمس ، وفي كل مرة كنت أمر فيها أمام المخطوط كنت أتوقف قريباً منه بشعور خاص يسيطر على : إن هذا الكتاب هو مخطوطنا المفريد المشهور لديوان ابن قزمان ! وبدأ لي أن المخطوط يملك قوة جذابة بالنسبة للعلماء . فإن كثيراً منهم من تطلع باهتمام بل وسنوات طويلة في هذه الأوراق المصفرة أو في صورها الفوتوغرافية . ومن هؤلاء العلماء : الانجليز والفرنسيون والروس والهولنديون والاسبانيون والالمان . وكان أحياناً كل من اليهودي والتشيكي يحاولان فك رموز سطورها الملغزة باصرار لا يقل عن إصرار الصربي أو الفنلندي . إنها أمانة العلم حتماً يوحدها هدف واحد أو بأى امتاع ترن كلمات العالم الفنلندي الأخيرة ، في عمله عن ابن قزمان التي أملاها وهو على سرير المرض في آخر أيام حياته أثناء فترة قصيرة ما بين الحربين اللتين عذبتا وطنه الصغير : « أيها العمل السلي العالمى ! ليتك تستطيع أن تستمر وتتصل بصرف النظر عن كل ما يهددك يوم بالدمار ! » ، Habent sua fata manuscripta — (إن المخطوطات أقدارها) فإن قوتها السحرية التي توحد العلماء الكثيرين في اندفاع مشترك ، تطرد نهائياً في يوم من الأيام أرواح الظلام الشريرة التي ترمى إلى التفرقة بين الناس والشعوب .

٣ — معاصر أول غزوة صليبية

(١٩١٩ — ١٩٢١)

في أعوام ١٩١٨ — ١٩٢٠ كان المستعربون في بيتروغراد يحيون حياة نقاسية . وكانت المدينة بأسرها هامة جائعة . وكان على المؤسسات العلمية أن تقطع أعمالها مع حلول ظلام المساء . وانزوت المحاضرات الجامعية عن الاستعراب في أحد أركان المكتبة ، ولكن درجة الحرارة كانت هناك أيضاً لا تزيد عن ثلاث درجات مئوية . وأحياناً كان الحبر يتجمد . وقد تماسكت صحة المستعربين الصغيرة على متانتها . إلا أن هذه الصحة كانت حزينة على فراق أصدقائها :

ذلك أن أحسن مخطوطات المتحف الآسيوى انتقلت سنة ١٩١٧ إلى مدينة ساراتوف . وفى الوقت نفسه كانت كثيراً ما تعاودنى رغبة فى التطلع إلى صديق قديم من هذه المخطوطات ، وأن أتصفح أوراقه المألوفة لى ، وأن أتحقق من الفكرة التى تلالأت فى ذهنى لأول مرة .

وقد شعرت بكل هذا شعوراً قوياً عندما أسس مكسيم غوركى داراً للنشر « الآداب العالمية » . وتمكن المجمع الاستشرافى لهذا الدار من توحيد جميع المستشرقين الموجودين فى عمل جذاب ذى برنامج واسع لأول مرة . وكان قد أعد برنامج كبير من الكتب العربية التى يلزم ترجمتها . وفى الدور الأول جاء « كتاب الاعتبار » وهو ذكريات الأمير السورى أسامة بن منقذ (١٠٩٥ — ١١٨٨) . معاصر الغزوات الصليبية الأولى . ولأول مرة كان على القراء الروس أن يتعرفوا مع صورة حية لكل ذلك العصر ، صورت بأسلوب بسيط حتى فى ذكريات ابن منقذ ذلك الكاتب القصاص القديم والفارس الصياد .

وفى مراجعتى لترجمة ابن منقذ وإعدادى لمقدمتها ، فكرت من جديد فى المؤلفات الأخرى لذلك الأمير الأديب . وكان قد كتب عن هذه المؤلفات أكثر من مرة . لكننى رأيت بدهشة كبيرة أنه لم يوجد من وجه اهتمامه إلى مقالات فرين القديمة التى كتبها فى العقد الثالث من القرن الماضى . وكان فرين قد أشار إشارة خاطفة عابرة إلى مؤلف بخط شخصى لأسامة بن منقذ هو « كتاب المنازل والديار » المخزون فى المتحف الآسيوى وقد وجدت هذه الإشارة صدقة أيضاً فى بحث خليفة فرين وأعنى به دورن المدير الثانى للمتحف الآسيوى . وإننى أعترف بأننى لم أصدق للتو فى هذه الإشارة . فقد بدا لى أن ذلك أمر أقرب إلى الاستحالة . ذلك لأن العلم الأوروبى وبخاصة المستشرق الفرنسى ديرانبور الذى قضى نصف حياته تقريباً فى دراسة أسامة ، لم يعرف شيئاً عن هذا المخطوط الذى كتب بخط يد فارسه — أسامة . وبالطبع فإن مكانة فرين العلمية كانت ضخمة جداً . وعلى هذا كان من الواجب الاستماع إليه حتى فى ملاحظاته العرضية . على أن فرين كان يكتب منذ أكثر من مائة عام وفى ذلك الوقت لم تكن تعرف أى مؤلفات أخرى لأسامة بن منقذ ، وكان من الممكن أن يخطئ ويخطئ

بين هذا المؤلف لأسامة وبين مؤلف آخر له كان معروفا قليلا في ذلك الوقت . لكن كيف استطاع فرين أن يحدد أن هذا المخطوط هو بخط شخصي للمؤلف ؟ لقد حاولت دونما فائدة أن أجِد أية إشارة في مصادر ومراجع أخرى يمكن أن تجيب عن هذا السؤال فلم أحصل على شيء ، وبدون فائدة اذن كان تحطيم رأسي من أجل هذا العمل في ليالى الشتاء القاسية لعام ١٩٢٠ عندما كنت أقف على حراسة بوابة المنزل .

لم تعد المخطوطات ثمانية إلى منزلها إلا في صيف ١٩٢١ . ولعل أول ما خطر لي من أفكار في ذلك الوقت ، عندما كنا نفك أربطة هذه المخطوطات ، هي عن المخطوط الذى كتبه أسامة بخط يده . وحملت صناديق المخطوطات إلى البناء القديم للمتحف الآسيوى المؤلف بهيئة إدارته الصغيرة آنذاك . ومن جديد ، وكما هي الحال في كل مرة ، ارتعشت يداى عندما وقعتنا على مجلد ضخيم نسبياً برموز مكتبية ضرورية . وتملكنى الرعب من فتح هذا المجلد : فقد فكرت رغم تشككى — « لعلى سأرى حقاً داخل هذا المجلد سطوراً كتبت في حياة صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد بيد معاصريهما الشريف صديق الأول وعدو الثاني ! » — إلا أن أول انطباع عن هذا المجلد كان مخيباً للأمل . فجلده الأسود غير جميل وعديم الذوق وربما لا يرجع قدمه إلى أكثر من صاحبه الأخير الذى كان لديه قبل أن يصل إلى المتحف الآسيوى وأعنى به الفرنسى روسو الذى عاش في بداية القرن التاسع عشر . وفي النهاية وبإرادة دتوترة حملت نفسى على فتح هذا الكتاب . ذى الجلد الأسود . وتبعاً لرد الفعل العادى لدى المتخصص في المخطوطات فإننى أخذت في هذه المرة أتطلع في نهاية المخطوط وبدايته بعطش شديد . وكانت خيبة الأمل أكبر . فقد ظهر أن المخطوط ناقص في بدايته ونهايته . ذلك أن نهايته كانت غير موجودة وبدايته معاد كتابتها في فترة متأخرة جداً عن كتابة الجزء الأساسى . وهى مكتوبة بخط آخر وعلى أوراق جديدة . وبالرغم من أننا نعلم جيداً أن المخطوطات تضيع منها في الواقع أوراقها الأولى والأخيرة بصفة خاصة — وذلك تبعاً لنظام تخزينها في وضع منسطح وهو المتبع في الشرق وليس في وضع قائم كما هو متبع لدينا — فإن تحقيق المخطوط يقتضى دائماً التساؤل عن أصالته . وكثيراً ما كان يحدث أن مالك المخطوط أو أى تاجر الآثار القديمة .

يقوم بتقليد بداية ونهاية المخطوط حتى يعطى له شكلاً أكثر قدماً أو ينسبه إلى
أى مؤلف مشهور . وقد مررت مروراً سريعاً — بحزن وتشكك — على
السطور الأولى للمخطوط المعاد كتابتها وفيها : « قال أسامة بن مرشد بن علي بن
مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى غفر الله ... » . وقد كان الوضع القائم لنفس هذه
السطور المكتوبة بخط مغاير ، غير باعث على اقتناعى . وتساءلت من جديد :
لماذا قرر فرين أن هذه النسخة هى بالخط الشخصى للمؤلف .

على أننى عندما فتحت المخطوط من منتصفه بلا أمل أودع معين شعرت
فجأة بأن خيبة أملى قد اعتراها الضعف والشحوب وأخذت أتصفحه وأنا تحت
سيطرة مد انفعالى جديد ذلك أننى وجدت أن أوراقه وكتابته حسب الشكل
الخارجى ، يمكن أن ترجع إلى القرن الثانى عشر . وأحسست بثقة فى يد ذلك
الإنسان الذى يبدو أنه تعود كثرة الكتابة وصار واضحاً من نظام حركات
الإعراب وربط بعض الحروف ببعضها أن هذا الكاتب ليس خطأً مهيناً بل
أديباً عالماً . والانطباع الذى ولده المخطوط هو انطباع الدقة والجمال العظيم الخاص
به . وأخذت أتطلع فيه باهتمام أكبر ، وفجأة شعرت بانفعال مألوف لى يصحب
شرارة اشتعلت فجأة هى شرارة الاكتشاف العفوى . فقد بدا لى أن هناك
رعشة يد عجوزة فى كتابتها لبعض الحروف . فإذا كان هذا حقيقة خطأ شخصياً
لمؤلفه أسامة فهل كتبه — ياترى — بعد أن أصبح عجوزاً ؟

ومن جديد رجعت إلى المقدمة لا تحقق من وجود أى تلميحات عن سبب
تأليف المخطوط أو إشارات إلى التواريخ . فالمؤلف لم يكن يمت بأى صلة بالأدب
الجغرافى الأمر الذى كان من الممكن اقتراضه من عنوان المخطوط . وتبدأ المقدمة
بالحمد والتناء التقليدى على الله ورسوله محمد ومن عبارتها المقتضبة المسجوعة
أحسست بعنصر شخصى لمع من بين هذه الأشكال اللغوية التقليدية . وعندما انتقلت
إلى جوهر موضوع المخطوط اهتديت على الفور إلى خيط المؤلف . فقد كتب
المؤلف فى جمل قصيرة مصاغة بأسلوب بلاغى رفيع ، ترن بالأسى واللوعة :
« ... فإنى دعانى إلى جمع هذا الكتاب ما نال بلادى وأوطانى من الخراب . فإن

الزمان جر عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها حوله وحيله . . . قد دثر عمرانها ، وهلك سكانها فعادت مغانيها رسوما والمسرات بها حشرات وهموما ولقد وقفت عليها بعد ما أصابها من الزلازل ما أصابها . . . فما عرفت دارى ، ولا دور والدى ، وإخوتى ، ولا دور أعمامى وبنى عمى وأسرتى فبهت متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه وانتزاع ماخوله من نعمائه . ثم انصرفت فلا أثبك خيبتى رعى القيام أميس ميس الأصور وقد عظمت الرزية حتى غاضت بواذر الدموع وتابعت الزفرات حتى أقامت حنايا الضلوع . وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار دون هلاك السكان بل كان هلاكهم أجمع ، كارتداد الطرف أو أسرع . ثم استمرت النكبات ترى من ذلك الحين وهلم جرا فاسترحت إلى جمع هذا الكتاب فجعلته بكاء للدار والاحباب وذلك لا يفيد ولا يجدى ولكنه مبلغ جهدى وإلى الله عز وجل أشكو ما لقيت من زمانى ، وانفرادى من أهلى وإخوانى واغترابى عن بلادى وأوطانى .

وكان التلييح على الزلازل بمثابة شعاع ساطع أضاء أمام عيونى على الفور تاريخ الكتاب . ففى آب (أغسطس) ١١٥٧ ثارت الطبيعة ثورة عارمة اجتاحت كل شمال سوريا ودمرت ثلاثين مدينة كبيرة من بينها مدينة شيزر موطن أسامة بن منقذ . ركان أقاربه جميعا موجودين فى قصر أحدهم فى احتفال عائلى . وهلكوا جميعهم تحت الانقاض . واتضح لى أن المقدمة لا تعكس هكذا ببساطة صوراً بلاغية بل حدثا واقعيا . ولاشك فى أن مؤلف الكتاب هو أسامة بن منقذ الذى صدمت نفسه بفاجعة كبرى خلقت ورائها آثاراً أبدية لا تمحى . لكن إذا كان هذا الكتاب حقيقة بخط أسامة نفسه ففى إذن كتبه ؟ فى عام ١١٥٧ كان عمر أسامة ٦٢ عاما وهى سن كبيرة ؛ إلا أنها لا تعتبر هرما كبيرا لمن عاش ثلاثة وتسعين عاما عندما ترتعش اليد فى الكتابة .

وقد أعطانى المخطوط الإجابة على هذا السؤال وذلك بفضل التقاليد الطبية عند محبى الكتب من العرب الذين تعودوا كتابة ملاحظات فى بداية ونهاية الكتب التى وقعت فى حوزتهم . وإحدى هذه الملاحظات على الصفحة الأولى

للخطوط ترجع إلى أديب دمشق مشهور عاش في نهاية القرن السادس عشر .
ووضح منها أن الصفحة الأخيرة من المخطوط كانت موجودة في ذلك الحين وأنه
كتب عليها بيد أسامة بالذات أنه قد فرغ من كتابة المخطوط في حصن كيفا
في جمادى الأولى ٥٦٨ (أى كانون الأول — ديسمبر ١١٧٢) . ومن جديد
أضام لنا تقاطع هذا الشعاع مع الشعاع السابق ، لإحدى فترات تاريخ حياة
أسامة . ذلك أنه كان مدة عشر سنوات من حياته (من ١١٦٤ إلى ١١٧٤) ضيفاً
على أحد الأمراء في حصن كيفا على نهر دجلة غير بعيد عن ديار بكر . وكان
الكبر قد أخذ منه كل مأخذ . وفي هذه الفترة من تاريخ حياته ، قلما سمع عن
اشتغاله بالمعارك والقنص وإنما كان أكثر ما يسمع عنه هو اشتغاله بالأدب .
وينتسب إلى هذا الوقت جزء من تاريخ حياته . ففي هذا الوقت نفسه ، سنة ١١٧٢
قام بكتابة المخطوط الذي ظالمنا أثارنى . وكان له من العمر آنذاك ٧٧ عاماً ،
وإذن فمن المستبعد أن أكون قد خضعت لإيحائى الذاتى في تفسير الرعشة الموجودة
في كتابة بعض الحروف .

عاش أسامة آخر أعوام حياته في دمشق يشاهد مآثر صلاح الدين متذكراً
أيام شبابه هو . وأغلب الظن أنه حمل فيما حمل إلى دمشق مكتبة من حصن كيفا
كما فعل منذ أعوام كثيرة عندما رحل من مصر إلى سوريا . إلا أن تلك المكتبة
التي حملها من مصر تلفت إذ ذاك مع جميع أملاكه في البحر الأبيض المتوسط .
ويذكر أسامة أن تلف الكتب وحده ظل في قلبه جرحاً لم يندمل مدى الحياة .
لكن رحلته من حصن كيفا إلى دمشق تمت بسلام . ومن هنا ظهر في دمشق
مخطوط بخط شخصى لأسامة هو « كتاب المنازل والديار » .

في نهاية القرن السادس عشر كان هذا المخطوط هناك في سوريا كاملاً تماماً .
إلا أن الحاشية التي كتبت في النصف الثانى من القرن السابع عشر تشير إلى أن
آخر أوراقه قد فقدت . وفي القرن الثامن عشر وقع هذا المخطوط في مركز آخر
من مراكز الأدب العربى في ذلك الوقت وأعنى به حلب ، وهو ما يشير إليه
حاشية أخرى ، كتبها عام ١٨١٠ مالك جديد للمخطوط هو شاعر حلب وشخصية
اجتماعية . وكان صديقاً لروسو الفرنسى المعروف لنا ؛ وربما كان هذا الشاعر

قد أهدى المخطوط نفسه إلى روسو . ثم وجد المخطوط لنفسه طريقاً إلى المتحف
الآسيوى ضمن المجموعة الثانية لروسو فى عام ١٨٢٥

وقد حاولت بظماً المحموم أن أفهم كل تلك الحواشى التى كتبت بخط جميل
تارة وبصورة سريعة تارة أخرى والتى وضعت بالأسلوب الشعرى طوراً
وبأخطاء كثيرة طوراً آخر . وتداعى فكرى عفويّاً ، فتذكرت كيف أن فرين
نظر قبلى بمائة عام فى هذه الحواشى باهتمام مائل لما أوليته إياها . والآن أصبح
واضحاً لى تماماً خط سير أفكاره الذى كشف عن أن هذا المخطوط كتب بخط
الأمير أسامة . وكانت إشارة فرين إلى كشف المخطوط بدون أى تهليل ،
بل أشار إلى ذلك بتواضع وفى سطرين صغيرين فى فهرس غير مطبوع . وكانت
إشارته الأخرى فى مقالة صحفية اختفت . وقد ظل الاستعراب الأوربى مدة
مائة عام لا يعرف شيئاً عن هذا الاكتشاف . وكان المتحف الآسيوى القديم —
الذى خزن بعناية هذا المخطوط الفريد — شاهداً على هذا الكشف الثانى للمخطوط
فى حياة الجيل الرابع من العلماء بعد فرين . والآن حملت موجة جديدة
للاستعراب إلى بحر العلم الزاخر ، معلومات عن هذا المخطوط . وقد تدعمت هذه
المعلومات فى « دائرة المعارف الإسلامية » وفى كتاب بروكلمان الذى يفوق كل
تقدير والآن ، كيف لا يرد مرة أخرى ذكر الحقيقة القديمة القائلة بأن « للكتب
أقدارها » ؟ والواقع أن هذا القدر لا يبدو هكذا واضحاً فى كل مراحله يمثل
ما بدا فى مراحل هذا المخطوط الناقص فى بدايته ونهايته والذى ظهر أنه كتب
بخط الأمير السورى معاصر أول غزوة صليبية .

٤ — ربان فاسكو دى جاما

إن الاشتغال بدراسة المخطوطات يحمل فى ثناياه السرور والحزن معا ،
شأنه فى ذلك شأن أى شيء فى الحياة . إلا أن المخطوطات غيرة : فهى تطمع
دائماً فى أن تستحوذ على كل اهتمام الإنسان . وعندئذ فقط ، تعرض أسرارها
وتكشف عن روحها وروح أولئك الناس الذين كانت مرتبطة بهم . أما السطّلع
العابر فإنها تظل خرساء لا تنبئ عن شيء . وهى كأزهار « الست المستحجة » ،

تثقل أوراقها عندما تلمس بدون حذر . وهي لا تفضى بشيء إلى من يتطلع إليها بنظرة موحشة ملولة . وبالتالي لا يرى أى شيء فيها ، اللهم إلا تلك السطور المتشابهة غير الواضحة والتي تكون عادة على ورق ردىء رخيص يحتويها جلد بال ممزق .

ولكن المتخصص فى دراسة المخطوطات ، تظهر له أفراح الأعياد أيضاً عندما يتلأأ أمامه أى اكتشاف يلح فى البداية كشرارة صغيرة . بل يظل المتخصص متوجساً خيفة أن تكون هذه الشرارة ليست إلا خداع بصر . وعندما يغمر الاكتشاف كل شيء بشعاعه الساطع لا يبقى هناك مجال للشك أو التردد . لكن لما كانت كل دقيقة من البناء العلمى نحتاج لسنوات من التحليل فإن هذه الأعياد لا تكون إلا مكافأة على ذلك العمل اليومى الطويل الذى انقضى فى التطلع بدقة واهتمام فى عشرات ومئات النسخ المملة المتشابهة للمخطوطات قد تكون من النوع الثانى أو حتى من النوع الثالث . وقد يتولد لديك تحامل شخصى ضد بعضها ، وقد تتناولها فى يدك بتهديدات عندما يدركها الدور ، أو عندما يسوقها اليك القدر بالمصادفة .

وتتنمى إلى مثل هذه المجموعة من المخطوطات — التى هى أشبه بابن زوجتك — مجموعات تتضمن مؤلفات كثيرة ، ومعظمها مقالات تقليدية تعليمية كان كل دارس نشيط قد قام بجمعها لنفسه فى كراسة عامة شاملة . وهذه المجموعات تتكرر وتتردد بكميات لا تشابه مع بعضها ولا تختلف إحداها عن الأخرى إلا قليلاً . ومنذ عصور سابقة رنحت قوانين ثابتة فى كل علم سواء فى النحو أو فى الفقه أو فى المنطق أو فى الحساب ، ولم تتغير تقريباً ، ومن هنا فإن هذه الكراسات لا تختلف عن بعضها إلا من ناحية الحجم ومن ناحية مستوى الدقة الكبير أو الصغير للطالب الذى قام بجمعها .

ومن حسن الحظ ، وإن كان هذا نادراً ، أنه كان هناك أحياناً مجموعات ذات طابع آخر يبدو أنها مؤلفة حسب الموضوعات وقد استهدف فيها المتخصص بجمع المؤلفات اللازمة له . ومن هذا النوع ما قام به أحد أطباء العيون العرب فى القدس

في منتصف القرن الثاني عشر إذ ألف مجموعة من عشر مؤلفات علمية لفائدته الشخصية،
تختص بطب العيون من ناحية تشريحها ، ووظائف أعضائها ، وأمراضها ، مع
صور ورسوم مختلفة . وكان هذا الطبيب نفسه علامة كبيرة وظهر أن مخطوطه
جد قيم وثمين وعندما وقع هذا المخطوط الرائع في المتحف الآسيوي ضمن مجموعة
البطريك غريغوريوس أحدث ضجة لا في أوروبا فحسب بل وفي البلاد العربية.
وقد قامت كلية الطب بجامعة القاهرة بطبع بعض مقالاته كان قد أعدها م. ميرهوف،
أحسن العارفين في هذا الموضوع ، والعالم المؤرخ في ميدان العلم ، الذي عاش
في مصر منذ زمن بعيد .

وتظهر أحيانا قيمة تلك المجموعات التي كان من الصعب أن نجد فيها محورا
محددا والتي جمعها ، مع ذلك ، هاو ومحب ذو معرفة وذوق جميل . وبهذا الصدد
تجدر الإشارة إلى مخطوط من مدينة قازان يتضمن بعض مقطوعات من مراسلات
أبي علي بن سينا وكلمات الملاحد الحلاج الذي صلب في القرن العاشر . ويتضمن
أيضا المقالة الفريدة المجهولة حتى الآن عن لعبة الشطرنج . كل هذا جمع في نسخة
دقيقة جداً يبدو منها أن جامعها خبير ومحب للكتب .

لكن كان من النادر جداً التصادف مع مثل هذه المجموعة وعلى وجه العموم
يمكن اعتبار هذه المجموعات قليلة الأهمية والباحث لا يتناول هذه المخطوطات عادة إلا
بحكم وظيفته وما أن يأخذها حتى يحاول بأسرع ما يمكن أن يطلق سراحها ويتخلص
منها ومن هذا العمل المتعب قليل النتيجة . ويهبط المستوى المزاجي أكثر من ذلك
عندما يحىء الدور على مخطوطات تتضمن مقالات بلغات مختلطة أكثرها بالعربية
والفارسية أو بالعربية والتركية . ومع تخصص العلم في أيامنا كان من النادر
أن يقوم بوصفها شخص واحد . وأن وجود أجزاء تركية في المجموعة ، يظهر
للمستعرب أن المقالات العربية هي من فترة متأخرة وهذا يعني أنه لا يوجد بها
غالباً أى شيء يتمتع من الفترة الكلاسيكية المزدهرة في الأدب العربي . وكان
المستشرق في الدراسات التركية ، ينظر بدون إرتياح إلى الأجزاء العربية في
المخطوط ، وكان يفترض أن الأجزاء التركية ما هي إلا شرح لها أو تعليق عليها .
وهذا ما كان يوجد مراراً في مخطوطات الدراسات العامة ، . وهكذا بقيت .

هذه المجموعة المسكينة مدة سنوات طويلة « كالصنفر » لا تنتمي في تبعيتها إلى أحد . ولو اتفق لآى متخصص أن لى هذه المجموعة على طريقة ابتعد عنها متفاديا إياها . ولكن المجموعات تتطلب هى أيضا قدراً كبيراً من الاهتمام . فالخطوط تكون أحياناً غدارة وتود أن تثار لنفسها على نحو غير متوقع ، من جراء إهمالها . وبهذا الصدد أريد أن أتحدث عن واقعة حدثت معى .

كنت فى بداية عملى فى المتحف الأسيرى أحلم أكثر من مرة بمواصلة ما قام به روزن من وصف مجموعات الخطوط القديمة . وقد تناولت بيدي مجموعة عربية تركية لم تجذب انتباه أى شخص من قبل . وكانت هناك فى الفهرس ملاحظة خطية عن هذه المجموعة لا يعرف كاتبها ، وهذه الملاحظة قليلة الأهمية . وكانت الأجزاء التركية تحتل مركز الصدارة فى المجموعة وهى مكتوبة بخط جميل يمكن أن يرجع إلى أوائل القرن السادس عشر ، أى إلى فترة تعتبر قديمة من وجهة نظر المستشرق فى الدراسات التركية . وقد استطاع مضمون هذه الأجزاء أن يحمل ما هو ممتع . فهناك مقالة مبهولة عن الموسيقى . وقد استطاعت هذه المقالة بعد أبحاث فارمر أن تحصل على مكانها فى العلم . وهناك أيضا صورة أخرى لقصة رومانتيكية حزينة عن سلطان جم ، ومن المحتمل أن تكون هذه الصورة من عصر قديم نسبياً . والسلطان جم هو ابن محمد الغازى . وكان قد أراد بعد موت أبيه أن يجلس على سرير المالك ، لكن أخاه بايزيد الثانى تمكن من هزيمته ففر أولاً إلى مصر إلى السلطان المملوكى قايتباى . ثم حاول مرة أخرى أن يسيطر على الدولة العثمانية من شمال سوريا لكنه فشل ثانية ، فهرب إلى جزيرة رودس عام ١٤٨٢ . إلا أن رئيس الفرقة الدينية العسكرية المعروفة بفرسان القديس يوحنا خشى من التأزم السياسى فأرسله من رودس إلى فرنسا أولاً ثم سلبه بعد ذلك إلى البابا . ووضع السلطان جم فى الأسر بناء على رغبة أخيه بايزيد الثانى الذى قدم فى سبيل ذلك مبلغاً من المال . وفى آخر الأمر مات السلطان جم مسموماً عام ١٤٩٥ . وربما كان دس السم له بناء على رغبة أخيه أو بناء على رغبة مبهولة للبابا الاسكندر السادس . وبعد أربعة أعوام حمل جثمانه إلى مدينة بروسا حيث دفن هناك . والخطوط التى يتحدث عن مصيره ، قريب ، على ما يبدو من هذا الحدث . ولعل فيه متعة للمستشرقين فى الدراسات التركية .

أما الأجزاء العربية فقد بدا لي أنها أقل أهمية وكانت مكتوبة بيد أخرى وبخط غير دقيق . وتمثل هذه الأجزاء بصورة رئيسية ثلاث أراجيز من أشعار شخص يدعى أحمد بن ماجد . وهي كما بدت لي وصف جاف جداً لطرق بحرية قرب جزيرة العرب . ولم أستطع أن أحدد شخصية المؤلف ، ولم يساعدني في ذلك بروكلمان أو حاجي خليفة وهما اللذان نستعين بهما في مثل هذه الأحوال . ولم أكن مصرأ على ضرورة تحديد أو معرفة شخصية مؤلف هذه الأشعار ، ذلك أن الانطباع الذي تركته في نفسي هو أنها مجرد حشد مجموعة أسماء من أجل غرض تعليمي غير واضح . وقد تناولت هذه المجموعة من المخطوطات في يدى عدة مرات إلا أن عملية وصفها لم تسر إلى الأمام .

ومع اقتراب منتصف العقد الثالث ، أخذت علاقاتنا الخارجية تتجدد رويداً رويداً . وابتدأت الكتب تأتي من الشرق والغرب لتسد تدريجياً ذلك الفراغ الكبير الذى سببته الحرب . وكنت أنا نفسى لا أعرف أحياناً أى خرق في معرفتى يلزم الإسراع برقعيه . فقد حملت هذه الكتب معلومات كثيرة ممتعة . فانقضت على الكتب المصرية بسرور عظيم وآمنت بأن القصة والمأساة العربية (الدراما) — وهما لم تكونا موجودتين من قبل تقريباً — قد استطاعتا أن تنموا خلال تلك السنوات الانقطاعية في فترة الحرب . وانقضت أيضاً على الاستعراب الأوروبي والتمت كتبه الجديدة بنصوصها القديمة (الكلاسيكية) ومقالاته عن الاكتشافات الجديدة . وقرأتها بسرعة وأمتعنى منها فنية المستشرق الفرنسى فران Ferrand في بنائه لفصل ممتع — كان مجهولاً من قبل — عن الجغرافية البحرية في القرن ١٥ . وقد تمكن ذلك بفضل معرفته بلغات الشرقيين الأدنى والأقصى وباللغات الهندية ولغة الملايو وقد أدى ربطه بين الأصول الشرقية والغربية إلى نتائج ثابتة . وابتدأت تتضح له معالم الرمان العربى لفاسكو دى غاما . وقد كان معروفاً منذ زمن بعيد أن رماناً من العرب كان يصاحب فاسكو دى غاما في رحلته الأولى من ملندى إلى كلكتا عام ١٤٩٨ . لكن الأصول البرتغالية تردد أسماء غير واضحة لهذا الرمان مثل « مالميو كاناكا » أو « عربى من الكجرات » . وعندما ربط فران بين هذه المعلومات البرتغالية وبين المعلومات العربية والتركية استطاع آنذاك أن يحدد الاسم العربى الحقيقى لهذا الرمان وأن يوضح مسقط رأسه . وإلى جانب هذا أمكن

اكتشاف مؤلفات شخصية لهذا الربان نفسه في المكتبة الوطنية بباريس في تلك الفترة التي انقطعت فيها الصلة بين علمائنا وبين العلم في الخارج . ولم يكن هذا الربان البحرى على معرفة بالناحية العلمية لحسب بل وبالناحية النظرية أيضاً . وعلت وجهى ابتسامة ساخرة نوعاً عندما قرأت أن مؤلفات الربان البحرى هذه ظلت ملقاة في المكتبة الوطنية ، غير معروفة حتى عام ١٩١٢ مع أن إحدى مخطوطاته كانت موجودة هناك منذ العقد السادس للقرن التاسع عشر .

وفي هذه اللحظة بالذات شعرت بحمرة الخجل تصعد إلى وجهى . آه ، أحمد بن ماجد ! إن هذا الاسم هو اسم مؤلف الأراجيز الثلاث التي توجد في تلك المجموعة التي تناولتها يدي مراراً بنظرة تضجر وسأم ! وبشعور تليذ مذنب . أو ربما بشعور جرو ومضروب تناولت في يدي من جديد مخطوط الأراجيز الثلاث الذى سخر منى شامتاً من تعالى عليه وإهمالى اياه . ولم يكن هناك أى احتمال للشك . فالأراجيز من ناحية الشكل والمضمون مشابهة تماماً لتلك الأراجيز التي اكتشفها زميل فران في باريس . وبالطبع فإن هذه الأراجيز التي كانت في يدي آنذاك ليست بخط هذا الربان المشهور نفسه ولكن ، حسب كل احتمال ، يمكن أن تكون هذه النسخة قد كتبت في وقت قريب منه . والأراجيز الثلاثة جميعها عبارة عن وصف لطرق بحرية مع إشارة إلى مراحلها المختلفة وبعض المعلومات العامة عن الطرق . وتتعلق أولاً بالبحار عن طريق البحر الأحمر والثانية بالبحار عن طريق المحيط الهندى والثالثة وصف الطريق من هذا المحيط إلى أفريقيا الشرقية . ولما كانت هذه الأراجيز غير موجودة في مخطوطات المكتبة الوطنية ، أسرعت بالكتابة إلى فران طالباً منه أن يخبرنى عما إذا كان يعرف أى مصدر آخر يتضمنها . وكان جوابه بالنفى ، ورأيه فيها أنها فريدة . على أن دراسة وتحليل هذه الأراجيز دون إعداد سابق لها لم تكن عملية ليست سهلة أو بسيطة . ورغم كل ما كان لدى من رغبة فقد صرفتنى عنها في ذلك الوقت واجبات أخرى فلم أستطع القيام بهذا العمل ، اللهم إلا في كلمة لي بالجمعية الجغرافية عرضت فيها على الشاشة صورة من الصفحة الأولى لاحدى هذه الأراجيز . وقد استمتع بحارتنا بمشاهدة هذه الصورة وحازت إعجابهم . ثم أن فران أخذ على عاتقه تنفيذ اقتراحى بالعمل على تحقيق هذا المخطوط واعداده للنشر . ولم أدر ما إذا كان قد استطاع أن يبدأ

العمل فيه فعلاً أو لا . ذلك أنه بعد ذلك بفترة قصيرة وصلني عام ١٩٢٨ خبر قصير مطبوع — بحسب تلك العادة الغربية الحسنة — يفيدني بوفاته . وكان لا يوجد في فرنسا من يواصل هذا العمل من بعده . ومن جديد بقي هامداً على الرف مخطوطنا عن الطرق البحرية الثلاثة لربان فاسكو دي غاما .

إلا أنه بعد عدة أعوام ظهر لي تلميذ موهوب أظهر تحمسا ذاتياً نحو الجغرافيا والخرائط العربية . وتعرف بسرور كبير على هذه الأراجيز البحرية وقدر أهميتها حق قدرها . وكنت أشاهد بعين الرضا كيف أنه تغلب بإصرار على صعوبات المصطلحات وكيف أنه باصرار أيضاً أوجد تحديداً للسميات الجغرافية . وأنبأ حماسه الذي لم يعرف الوهن عن نتائج حسنة . وكنت أراه ينمو أما عيني . لكن القدر لم يمهله ، وحطم عمله العلمي في أول بدايته .

وهكذا ظلت هذه المجموعة الرائعة تنتظر دراستها وتحقيقها . ولكن الشيخوخة أصابت يدي بالوهن شيئاً فشيئاً ، ولم تعد تستطيع بالتالي تناول أى شيء أو الدنو منه . ولا يسعني إلا أن أردد عبارة ذلك الموسيقي حين قال : « كان في رأسي أيام الشباب ألحان كثيرة لكنني لم أملك أن أسطرها والآن أستطيع بسهولة أن أسطر لكن لا أعرف أى لحن أختار » . ومع ذلك كان يتملكني أحياناً حتى في ليالي السهد حلم وأمل . « ألا ليت خمسة من المستعربين من مختلفي التخصصات والاتجاهات يجتمعون من أجل وصف المخطوطات ! عندئذ لأمكن أن تقسم مجموعات مخطوطاتنا بحسب نظامها الموضوعي . ولأمكن ، في مدة لا تتجاوز عمر الإنسان ، وضع فهرس كامل يحمل إلى المجال العلمي مادة هائلة ومهمة . وعندئذ لما قدر لمخطوط أراجيز ربان فاسكو دي غاما أن ينتظر مائة عام أخرى حتى يشير اهتمام شخص ما فيعمل على نشره » . لكن ويحك ! إن المثل العربي الشعبي يقول . « كلمة ياريت ما تعمر بيت » .

على أنه في عام ١٩٤٨ أسعدني القدر بعض الاسعاد . ففي كلية الاستشراق بجامعةتنا نوقشت رسالة لدرجة المرشح في العلوم كانت قد بدأت بحمد في بحث ودراسة أراجيزنا واعدادها للنشر .

* نشرت في سنة ١٩٥٧ في موسكو بتحقيق تيودور شوموفسكى ، ذلك ال « تلميذ الموهوب » لكراتشكوفسكى .

هـ - فى المكتبة الجامعية

١ - المكتبة وأمنائها

(١٩٠١ - ١٩٣٠)

من وراء الحائط ... عبر نافذه صغيرة ... من حجرة المستخدمين ، وصل إلى مسمعى صوتان . وفى هدوء الليل بالمكتبة تمكنت من تمييزهما جيداً . أما الصوت الأول فهو للاستونى أرى اللاتقى ايفان الذى لقبته منذ زمن بعيد بالمتفائل . وأما الصوت الثانى فهد صوت جهورى أجش لشخصية جديدة بنفس القدر فى المكتبة هى شخصية بيوتر ، كان الوقت يقترب من التاسعة ، موعد اغلاق المكتبة ، وعندها ينتهى عملهما الليلى . وقد كانا - وهما الصديقان القديمان المتجادلان دائماً - يتجادلان فى هدوء وسلام كما هى العادة عن الموضوعات المكتبية التى لا حياة لهما خارجها منذ أكثر من عشرين عاماً .

وكان الحديث العرضى يعكس بوضوح طبع كل منهما : وبصرف النظر عن صداقتهما فإن أحدهما لا يشبه الآخر فى شىء . فايفان ، المتفائل ، قصير القامة ، سريع الحركة ، ذو شعر مائل إلى الصفرة ، هاش باش دائماً ، كثير الكلام وخاصة عندما يكون تحت تأثير خفيف من الكحول ، الأمر الذى كان يحدث معه مراراً . كان يعتبر عمل كل واحد من العلماء الوافدين إلى المكتبة كباراً وصغاراً عمله هو ، وتراه بدون تعب يحمل الكتب اللازمة لهم من أعلى ومن أسفل . وكان يفعل ذلك دون اللجوء إلى مساعدة أمناء المكتبة أو إلى فهارسها . فهو يعرف الحروف اللاتينية جيداً ويعرف اللغة الألمانية إلى حد ما ، ويمكنه ذلك من الاعتماد على ذاكرته فى معرفة أماكن مختلف « محاضر الجلسات » بما فى ذلك المحاضر الخاصة بمجمع فيينا العلمى ومجامع علمية أخرى . ولم يكن يعترف بالدرجات أو الرتب . وكان يقدر الناس على حسب علاقتهم بالسكتب وعدد مرات زيارتهم للمكتبة . فذات مرة عندما كان فى الطبقة السفلى للمكتبة دخل الأستاذ ف. ف. مارتينس النجم اللامع فى للقانون الدولى الذى كان مراراً

رئيسا لمحكمة العدل الدولية بلاهاي ، فوجهه ايفان إلى مدير المكتبة قائلا له وهو في طريقه : « هنا في الطبقة السفلى ، لا يوجد أى عمل لكم . فها يشتغل العلماء ، . وإلى جانب هذا ، كان ايفان يستلطف بعض الأشخاص سواء كانوا من بين مساعدى الأساقفة الشباب أو من بين الذين أنهموا الجامعة وأبقوا للعمل فيها . وعندما كان المستلطفون يظهرون فى القاعات الداخلية للمكتبة ، يقوم ايفان بمساعدتهم بصورة لا تقل عن مساعدة أى أمين من أمناء المكتبة ، ويقدم لهم دون تفتير شايًا بالسكر من الشاي المخصص رسمياً ، لموظفى المكتبة . على أنه يجدر القول بأنه نادرًا ما كانت تخطئ عيناه ، فقد لاحظ مرهوبين كثيرين فى عصره قبل أن يعترف بهم العلم الرسمى .

أما بيوتر المتشائم ، فهو لا يشبه زميله . فهو طويل القامة ، نحيف ، يخالط شعره المشيب . ما زال يحتفظ ببعض عاداته العسكرية ، فهو صارم دائماً ، لا يكثر من الكلام ، ومع ذلك فهو الآخر يعرف المكتبة جيداً من قديم ، وهو مهذب وخدم . إلا أن المرء كان ينجل من أن يتوجه إليه بطلب مفضلاً أن ينتظر حتى ينزل ايفان من الطبقة العليا . وايفان عزب أما بيوتر فأرمل ، وكما يقال أنه ابتداءً يشرب الخمر منذ وقت ترملة ، لكن لم يكن أحد يراه سكران فى المكتبة : فهو لا يشرب إلا عشية الأعياد ، وفى منزله فقط . ولم يكن لديه إلا ولد راشد كان يعمل هناك فى المكتبة كمعاون . وكان يقوم بتسليم الكتب للطلبة فى قاعة المطالعة . وكان أبوه يعامله بنفس الخشونة والجفاف . ويبدو أن بيوتر لم يكن يكثر من الحديث إلا مع ايفان .

ووصلت آنذاك إلى مسمى ملاحظة قصيرة بصوته الأجلش فى الرد على عبارة ايفان المتقطعة بصوتها الهادىء وخطوها التلفظى غير قليل . فلم أميز كل شئ فيها ولم أصغ إليها . وكنت جالسا طول اليوم فى المكتبة من أجل الاقتباسات النهائية اللازمة لرسالتى المقبلة . ولم أترك العمل إلا ساعة واحدة ذهبت فيها للغذاء . وتعبت عينائى . وعن قريب ستقفل المكتبة أبوابها . ونسيت أمر الاقتباسات . وتحت « الأماجورة » الخضراء ، وسط رفوف الكتب ، أخذ فسكرى يدور لا حول رسالتى أو سفرى القريب إلى الشرق ،

ولما حول ذلك الحديث ، الآتى من وراء الجدار ، يصحب أفكارى . وسمعت فجأة ذكر اسمى يتردد . وبدأت استمع الحوار ، من وراء الجدار . قال ايفان المتفائل ، :

— ها هو كراتشكوفسكى صار يأتى فى المساء ... واليوم يجلس من جديد .

— رأيته ... — قالها بيوتر غير راض — طول النهار لا يكفيه . . .

— لا بد أنه متعجل — استرسل ايفان كأنه لم يسمع — عن قريب سيذهب إلى الشرق ، إلى العرب فى مهمة رسمية . فليدرس هناك أيضا ويتعلم .

— أما أنه يأتى إلى المكتبة فهو يأتى ، لكن أية فائدة من هذا ؟ — قالها بيوتر غير راض وبصوت أجش وكما لو كان يريد التحرش بزميله .

— لماذا لن تكون فائدة ؟ — قالها ايفان وما زال هادئا — يأتى إلى هنا فى المكتبة ثم يكتب رسالته ثم يناقشها ويحصل على درجة الماجيستر . إن المستشرقين مثل الكلاسيكيين (المتخصصين فى الأدب اليونانى واللاتينى القديم) . هم أناس حقيقيون ، وليسوا كعلماء القانون . عالم القانون يأتى إلى المكتبة مرة واحدة فى الشهر وبعدها يكون قد ألف كتابا . هل هذا عمل ؟ لكن ها هو العالم اللغوى أو المستشرق يجلس كل يوم لمدة سنتين . هذا هو العمل الحقيقى .

— أما أنه يأتى المكتبة فهو يأتى — قالها بيوتر وهو لا يريد أن ينسحب — لكن أية نتيجة سيحصل عليها ؟ لقد أتى رودنييف أيضا إلى المكتبة . وماذا كانت الفائدة ؟ رسالة ؟ لا توجد رسالة ... وشعره تساقط من على رأسه . انظر ، هذا ما قد يحدث مع كراتشكوفسكى ، .

ولقد سرنى هذا الكلام لتوه ، وبصورة عفوية أخذت أفكر لا فى الرسالة وإنما فى شعرى الذى قد يحدث له فجأة أن يأخذ فى التساقط . وهذه الحالة حدثت فعلا منذ وقت قريب لزميلى الأقدم المستشرق فى الدراسات المونغولية رودنييف .

وكان ذلك بسبب إصابته بمرض عصبي مجهول . ولكن هذا بالطبع لم يعقه وبالرغم من نبوءة ذلك « المتشائم » فقد أصبح مع الوقت عالماً كبيراً مشهوراً . على أننى لم أسمع لإجابة « المتفائل » . ومرت دقيقة سادها . على ما يبدو ، الارتباك والصمت وبعدها سمع صوت مغتاض « تفوا ! » وخرج ايفان من الحجرة خابطاً الباب خلفه بشدة . ومن جديد افترق الصديقان فى الآراء .

ولم تكن نهايتهما واحدة . وفى فترة الحرب العالمية الأولى ذهبت إلى المكتبة صباح يوم من أيام الاثنين فوجدت ايفان وقد انتفخ وجهه من الدموع . « بيوتر ... آه .. بيوتر . » — هكذا لم يستطع أن ينطق سوى هذه الكلمات فسأله فى قلق : « ما الأمر ؟ » — « مات يوم السبت ، فقد ذهب إلى البيت بعد العمل ووضع على المنضدة زجاجة صغيرة وشرب كأساً صغيراً ثم صب الثانى وبعدها مات وهو على المنضدة . ووجدته ابنه هناك والكأس الصغير ما زال ملآن . يا لها من ميتة سعيدة ! » — هكذا أنهى كلامه على غير انتظار وأخذت دموعه تنهمر من جديد . ومنذ هذه اللحظة بعد أن فقد ايفان صديقه الملازم له والمتجادل معه ، صار يشعر بالوحشة أكثر فأكثر ، واندفع بقوة إلى تعاطى الكحول . وفى عام ١٩١٧ بعد ثورة شباط (فبراير) رجع إلى وطنه وعمل هناك فى مكتبة كبيرة ، على حد ما سمعت .

ولم أتمكن من أن أحصل بسرعة على مكانى هذا الذى سمعت منه ذلك الحديث البالغ الدلالة . فقد كان المسكان على الطبقة الأولى بين الرفوف حيث تقوم منضدة كبيرة كانت تحت أمرى تماماً . وبالقرب منه كان يوجد القسم "O" (Orientalia) (« قسم الاستشراق ») القريب من قلوب المستشرقين . وكان من السهل أن أحمل منه كل ما يهمنى آنذاك من المطبوعات الشرقية ، وفى طرف آخر من هذا المسكان كانت تقوم رفوف خشبية صفراء تحتوى على المخطوطات التى أقدر جوهر محتوياتها إلا مع مرور الزمن . وكان العمل هناك مريحاً . وكان يوجد فى هذا الطابق كله منضدتان كبيرتان أو ثلاث من أجل العاملين . وكان الهدوء يكاد يكون تاماً ، ولم يكن يقطعه إلا تلك الأصوات الخفيفة الصادرة عن خطوات المستخدمين فى المكتبة عندما كانوا يأخذون الكتب أو يعيدونها على الرفوف . والنافذة تطل

على حديقة الجامعة التي ترتدى في الشتاء لباساً ثلجياً ناصع البياض متراكماً فوق الأغصان . وفي الصيف والخريف تكسوها خضرة كثيفة ترتاح العين لمنظرها . وعلى المنضدة في المساء كان يضيء مصباح تحت « أبا جورة » خضراء . وعندما كنت أمر أحياناً في « شارع الجامعة » في يوم لم أتمكن فيه من الذهاب إلى المكتبة ، كان في وسعي أن أحدد ، من خلال أشجار الحديقة ، مكان منضدتي بضوئها الأخضر الذي ينعكس منها . وكانت هذه المناضد والحق يقال مخصصة فقط لعمل المستخدمين المكتبي . ومن يريد أن يعمل عليها من غير المستخدمين كان لابد له الحصول لا على موافقة إيفان فحسب بل كذلك على موافقة الآخرين ذوي المناصب الأكبر . إلا أن ذلك كان يتحقق على نحو غير ملحوظ وبدون أية رسميات .

وقد اتفق لنا نحن المستشرقين أن نعرفنا على المكتبة منذ الصفوف الأولى . فقد كنا في حاجة إلى الكتب التعليمية ، والمصادر الأخرى ، وخاصة المعاجم الشرقية ، التي كانت دائماً بلغات أجنبية . وكان من الصعب إيجادها في محلات البيع . وكان ثمنها خيالياً بالنسبة للطلاب إذا أريد الحصول عليها من الخارج وكانت المكتبة جيدة الترتيب . وكان الطلبة المستشرقون يتمتعون بحق استعارة لا ستة كتب بل ١٢ كتاباً في وقت واحد . وكان هؤلاء السعداء الذين يفاجئون في أخذ الكتب قبل فترة « التهافت العام » ، يستعيرون المعاجم أحياناً إلى بيوتهم أما الآخرون فكان عليهم أن يعملوا في قاعة المطالعة . ولم يكن هناك أي تعب أو إزعاج بالنسبة لي من العمل بالمكتبة إذ كنت أعيش في مبنى من مباني الجامعة مقابل فناءها .

وكنا نتسلم الكتب من خلال نوافذ القاعات الداخلية للمكتبة حيث كان يعمل صغار أمنائها من ناحية وظائفيهم لا أعمارهم وكانوا يتفرسون فينا ويحددون بسرعة وزن كل طالب بلا خطأ . وفي صمت نما معدل الاستعارة لأكثرية الطلاب حتى ١٨ كتاباً بل أنه كان يزيد على الأماناء في ظروف الحاجة الملحة . وسرعان ما عرف هؤلاء الأماناء احتياجاتنا العادية . وعندما كانت جاكيتي تظهر على النافذة يرن من هناك صوت أمين مكتبة غير مرئي في الظلام : « أيلز ملك اليوم » « سوبلمانت "Supplement" » ، أو « يا قوت » ؟ وبعد جوابي كان يظهر ،

أى معجم دوزى المشهور أو معجم البلدان لياقوت بأجزائه الستة وبشهرته التى لا تقل عن سابقه لدى الطلاب المستعربين الذين قاموا بكتابة بحث اجازى ، بدلا من الامتحان للنقل من السنة الثالثة إلى الرابعة .

وقد مرت ظروف أكثر صعوبة إلا أنها كانت عادة تحسم ببساطة . وذات مرة جذبني عنوان ممتع لكتاب جديد وصل إلى المكتبة حديثاً هو "Provincia Arabia" لبريرونوف ودوماشيفسكى . فطلبت لنفسى هذا الكتاب الذى لم أكن أعرف ماهيته . وفى اليوم التالى وعلى غير انتظار عاد إلى أمين المكتبة لا بالكتاب وإنما ببطاقة الاستعارة وقال لى : « إن للكتاب لا يعطى للطلاب ، لأن فيه كثيراً من الخرائط والجداول ، ولهذا فإن كريسبيرغ يطلب منكم مراجعته بهذا الخصوص » . وانتابتنى الحيرة من هذه الأمور غير المتوقعة وسرت وراء المستخدم لأول مرة فى تلك القاعات الداخلية المكتبة حيث كان يجلس هناك على منضدة عادية فى قاعة عادية أيضاً كبير أمناء المكتبة آنذاك الذى لم يحصل بعد على لقب مدير ، وهو الكسندر رومانوفيتش كريسبيرغ . وقد عين فى هذا المنصب ليواصل تقاليد زاليمان . وزاليمان هذا هو مؤسس العصر الحديث فى حياة المكتبة الجامعية وقد أصبح فيما بعد عضواً فى الأكاديمية ومديراً للتحف الآسيوى ومكتبة أكاديمية العلوم .

وقد قال عالمنا المستشرق فى الدراسات التركية ف. د. سميرنوف الذى لم يكن يحب الألمان وكان يسخر منهم ومن عاداتهم فى طبع كل الفهارس تحت عناوين لاتينية ، أنه كان يسيطر على المكتبة من قبل زاليمان الريفيل (نسبة إلى مدينة ريفيل) ويسيطر عليها الآن كريسبيرغ الديربرى (نسبة إلى مدينة ديربت) . على أنه ينبغى الإشارة إلى شيء واحد هو أن نظام المكتبة صار عظيماً بفضلها . ومنذ تلك السنين صارت المكتبة تحمل طابعاً أوروبياً كاملاً . وفى تلك الفترة ابتداء كريسبيرغ — الصارم الجاف العجوز القصير القامة — يقاسى من شدة مرضه بالضيق الصدرى ومن مرض آخر يشبه السرطان . وسرعان ما حملته المرض إلى القبر . وقد كانت عاداته أن يدور مرة كل يوم وفى ساعات محددة ، على جميع طوابق المكتبة محدثاً أثناء سيره صوتاً موسيقياً رتيباً يسمع دائماً على يعد

عدة حجرات . ولم يكن يخيف أحداً ، ولكنه كان رسمياً إلى حد ما . وكان لا يغير حلقه الرسمية . وكان الجميع في المكتبة يطيعونه دون أية مجادلة .

ومثلت أمام الرئاسة . وأنا ما أزال غير فاهم السر في استدعائي أنا بالذات . وفجأة رأيت على المنضدة مجلدين كبيرين كتب على كعب غلافهما بخط مضغوط "Provincia Arabia" . وعندما لاحظ كريسبيرغ اتجاه نظري سألني : " أتريدون أخذهما إلى المنزل ؟ ، وبالطبع فإن هذا لم يخطر ببالى . وكنت أريد أن أطلع على الكتاب فقط في قاعة القراءة . وإزاء هذه المفاجأة غير المنتظرة . لم أتمالك نفسى من أن أتمم بكلمات غير واضحة ، واصل كريسبيرغ لم يفهمنى . فقد قال : " إن الكتاب لا يعطى للطلاب ، لكن قولوا ، حتى يسجلوه بإسمى وتأخذوه . واستغربت من ثقته في من النظرة الأولى . وعلى كل فقد أخذت الكتاب إلى المنزل وأخذت هناك أدرس المطبوع اللطيف النادر عدة أسابيع ودونما تسرع .

وكان عملى في المكتبة كباقي الطلبة في قاعة المطالعة المخصصة للطلاب والتي كانت تقع في الطابق الثانى . وكانت نوافذها تطل على فناء الجامعة . وهناك كان الجو هادئاً وخاصة في المساء . وكان الطلاب الذين يجلسون على المناضد للعمل قليلين ، وكان أكثرهم لا يأتون إلا لتسلم الكتب أو تسليمها . وهناك جمعت مادة لبحثى السنوى ولبحثى من أجل المدالية الذهبية لعامى ١٩٠٤ — ١٩٠٥ . وغرقت لأول مرة مع المؤرخين والجغرافيين العرب الذين انهالوا على بأعدادهم الغفيرة من بطون الكتب المطبوعة بالطبع . على أن صغار أمناء المكتبة — الذين كانوا يعملون عند النوافذ المعروفة الخاصة باستعارات الطلبة — لم يكونوا دائماً ملهين لطلباتى .

في الحالات الصعبة كان يظهر من قلب المكتبة أحد كبار أمناء المكتبة هو س. ف. لاريونوف الذى كان إنساناً فريداً من نوعه وكان معروفاً جيداً لدى المستشرقين لأنه كان يعتبر في المكتبة خبيراً أساسياً بالفهارس الشرقية ، وكان يعرف بعض اللغات الشرقية . وقد كتب بخط يده معظم البطاقات الفهرسية للطبوعات الشرقية . كان انطباع الطلاب عنه هو أنه غريب جداً . إلا أننى ،

بعد أعوام كثيرة ، عرفت إلى حد ما قصة حياته . إنها حياة أحد الفاشلين في تاريخ استشرافنا الذين كانوا يلتقون آنذاك لا في المكتبات فحسب بل وفي إدارة الرقابة الحكومية أو إدارة الضرائب . وكان يبدو عليه دائماً بعض الضيق وكان شديد الخجل قليل الكلام ، وكان يسكن خارج المدينة ، كما يبدو ، في ضاحية لينغوفو . وكان يسافر من هناك كل يوم إلى عمله . وعلى ما يخيل لي لم يكن له بين زملائه أصدقاء مقربون إليه . ومنذ وقت بعيد تخرج بامتياز من معهد لازاريف للغات الشرقية في موسكو . وكان لا بد له من أن يشغل في المستقبل كرسى اللغة الفارسية ثم أرسل بعد ذلك إلى الخارج في باريس حيث درس بنشاط في مدرسة اللغات الشرقية الحية حيث كان يتعلم فيها تقريباً كل اللغات التي كانت تدرس هناك حتى اللغة الحبشية . وقد دافع بنجاح عن رسالة بالفرنسية élève diplômé (للدبلوم العالي) في مجال الأدب الفارسي . وقد نشرت هذه الرسالة في "Journal Asiatique" (المجلة الآسيوية) . وظهرت هذه الرسالة كأنما هي مؤلفه الوحيد المطبوع . لكن لماذا انقطع امتداد نشاطه العلمي بعد رجوعه إلى روسيا ؟ ولماذا قضى كل حياته في المكتبة الجامعية دون أن يحس به أحد ؟ ولماذا كان منظورياً على نفسه ؟ كل هذا كان غير معروف لي . وهو لم يتحدث عن الماضي مطلقاً ، وكان يلوذ بالصمت دائماً أزاء كل الأسئلة التي توجه له عن فترة وجوده في الخارج لكنه كان يتحدث بالفرنسية بطلاقة مع الأجانب في زياراتهم النادرة للمكتبة . هذا بالرغم من أن خجله المألوف يتزايد في مثل هذه الظروف إلى درجة غير معقولة . وكان يعمل في المكتبة كثيراً لكنه ينصرف دائماً إلى إعداد فهرس وبطاقات . وقد قام بكتابة بطاقات الفهارس للمكتبة الموقوفة المعروفة باسم ف. ر. روزن ، في تلك الفترة التي كنت موجوداً فيها في الشرق . وعاش مدة طويلة وكان أحياناً ما يحتفل في الجامعة بذكرى تاريخ خدمته . وكان من المؤسف في وقت الاحتفال رؤية هذه الشخصية المتضايقة الخجولة . وقد واصل العمل في المكتبة بعد الثورة وكان الانطباع الذي يثيره بين الجيل الثالث من أمناء المكتبة يذكر بالفيل المنقرض في العصر الثلج القديم أو بآخر رجل من قبيلة المونغول من الهنود الحمر .

وفي فترة تلهذتي كان هذا المستخدم الخفي الغريب إلى حد ما هو الوحيد الذي وضع كل الأشياء المكتبية غير المفهومة والتي تتعلق بالمطبوعات الشرقية . وبعد ذلك عندما تعرفت مع مخطوطات مكتبة الجامعة وجدت من جديد البطاقات التي كتبها بيده . وقد مات في العقد الرابع من هذا القرن مصاباً بالشلل ومنسياً من الجميع عدا واحد أو اثنين من معاصريه من المستخدمين .

وعبرت من قاعة القراءة للطلاب إلى قاعة الأساتذة التي تقع في الطابق نفسه ، إلا أن نوافذها تطل على الحديقة ، وهي مجاورة لغرفة تسليم الكتب ذات النوافذ الصغيرة . وكان عبوري هذا في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٦ مصحوباً بأشياء غريبة ممتعة نوعاً ما .

ذلك أنني كنت قد أدت الامتحانات الرسمية في كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٠٥ . وقال لي ف. ر. روزن أنه قد تقرر أن أبقى للعمل بالجامعة . وأني سأكون مسجلاً في عداد هيئة المعلمين من أول كانون الثاني (يناير) . إلا أن مجلس الكلية لم يتخذ القرار الرسمي إلا في منتصف هذا الشهر . ومنذ أول زيارة لي للمكتبة في كانون الثاني (يناير) برز سؤال شكلي : بأي بطاقة أستطيع أن أستعير الكتب ؟ بطاقة الطلبة أو بطاقة الأساتذة كباقي العاملين في الجامعة ؟ وآنذاك كان كريستبرغ مريضاً دون أمل في شفائه وحل مكانه كبير أمناء المكتبة م. ا. كودرياشوف تلك الشخصية العجيبة أيضاً في كثير من الأحوال . ونحن نعرفه جيداً منذ أيام التلهذة ذلك لأنه كثيراً ما كان يظهر عند نوافذ تسليم الكتب . مساعداً صغار أمناء المكتبة خاصة في تلك الأوقات التي ساد فيها «التهافت العام» . وعلى كل فقد أوصولني من جديد إلى مكتب المدير الذي كان كان يجلس عليه شخص صغير هو م. ا. كودرياشوف . ونظر إلى من فوق نظارته الكتعاء المتسقرة على أرنبة أنفه وسألني بحمد وبصوت جهوري أجش كعادته : « من أنتم ؟ طالب ؟ ، فأجبت : « لا — إنني انتهيت من الامتحانات في شهر كانون الأول (ديسمبر) » . « من أنتم إذن ؟ يعني استبقيتم للعمل في الجامعة ؟ » . وإلى هنا أصابني شيء من الخجل وأجبت بالنفي موضحاً له أن عملي بالجامعة قد تقرر ، إلا أن مجلس الكلية لم يصدقني على هذا بعد . واستغرق في التفكير مدة دقيقة وهو على سابق جده ثم

انهى هذا الحوار القصير قائلاً : « يعنى أنتم — لا شيء . خذوا الكتب مسجلة باسمي ، . وهكذا تخطيت ببساطة مشاكل الرسميات وجلست في قاعة القراءة للأساقفة غير متأثرة تماماً من أنني « لا شيء » . وبعد شهر تقريباً كان قد صدق على قرار عملي بالجامعة من الوزارة .

وبدأت الفترة الثانية لعملي بالمكتبة . وآنذاك أمكنتني أن أبحث بنفسى في المهارس وأن أمشى في كل الحجرات وأتسلم بنفسى الكتب بكميات غير محدودة . وكان يلزمنى مراراً أن أنزل إلى أسفل في الشعبة الشرفية ، ورويداً ورويداً استطعت أن أحصل على عطف « المتفائل » إيفان وذلك عندما رأى أنني لا أستعد لإمتحان دراسات الماجيستر فحسب بل وأفكر أيضاً في رسالة الماجيستر .

وبدأت الدروس مع ف . ر . روزن . وقد حملتني هذه الدروس على أن أحيط نفسى بالمعاجم العربية منها « تاج العروس » ، بأجزائه العشرة و « لسان العرب » ، بأجزائه العشرين وكلها كانت تحت يدي دائماً . وقد أوجد إيفان « لسان العرب » ، خزانة صغيرة خاصة تسير على عجلات وذلك عندما رأى أن المنضدة لا تكفى لأكوام الكتب الضخمة المتراكمة . وكان من الصعب على في الفترات الأولى أن أستخدم هذه الكتب الضخمة وكنت أجلس أحياناً قرابة خمسة أيام لأعد بطريقة مرضية لحد ما عشرين بيتاً من أجل عملي مع روزن كل يوم اثنين . وآنذاك صارت الكتب القريبة إلى قلبي تجذبني إلى جوانب أخرى أيضاً . ولقد أردت بحموية الشباب أن أقرأ كل ما يتعلق بالإستعراب في المجلات الخاصة منذ وقت تأسيسها . ولقد نظرت وقرأت بظلم عشرات الأجزاء لمختلف المطبوعات الدورية التي كانت موجودة بأكلها آنذاك في المكتبة . لكننى سرعان ما وجدت أنني لا أستطيع أن أستحوذ أو أحيط بكل هذه السكتل فأخذت أحدد لنفسى مصادر متسلسلة تتعلق فقط بدراسة الشعر العربى وما عدا ذلك كنت أسجله في بطاقات مكتبتى التي كانت تنمو باستمرار . وكنت أجلس طول الأيام في المكتبة لا في الصباح فحسب بل وفي المساء أيضاً عندما لا يوجد عمل لى مع روزن . وعرفنى كل أمناء المكتبة وعرفتهم جميعهم وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من المكتبة مرتبطاً بكل همومها وشؤونها .

وبعد وفاة كريسيبرغ أصبح المدير بالطبع م . ا . كودريا شوف الذى كان مساعداً له مدة طويلة وتليده في التخصص بالمكتبات . وبه ابتداء عصر المديرين الروس للمكتبة . وهو من الولهة الأولى يشير في النفس لانطباعاً فكاهياً إلى حد ما : فهو قصير القامة ذو رأس كبيرة يزينها شعر منقوش وتراه باستمرار يلتقط نظارته الكتعاء برباطها الطويل التي لا يستقر لها قرار على وجهه . وهو يتكلم دائماً بلهجة الجد وبصوت أجش منخفض ، ولكن غالباً ما كانت تشع في عينيه شعلة فكاهة طبيعية . وكان من الصعب التسليم بأنه لا يخلع على نفسه رداء الجدية . ولقد كان رجلاً خيراً ليس الجانب ، استطاع مع ذلك أن يمسك في يديه بزمام النظام في المكتبة عملاً بوصية زاليان وكريسيبرغ . على أنه كان عزباً يعيش في وحدة تامة ولم تكن لديه عدا المكتبة أية هواية أخرى . وكثيراً ما كان يمكث فيها طول الليل قبل أن يعهد إلى مستخدميها بالحراسة الليلية بمدة طويلة . وكان يمشى الليل مرتدياً ثيابه نائماً على أريكة صغيرة ، تتناسب مع قامته القصيرة ، قائمة في أحد الأركان بين الخزائن في الطابق الثالث . وفي تلك الأمسيات كان يسمح لي بالعمل في المكتبة كما أريد . ذلك لأنه كان يبقى هناك حتى الصباح ويفلق الباب بنفسه بعد انتهائي من العمل . وكم تحاورنا معاً في تلك الأمسيات حول كثير من الموضوعات التي تتعلق بالمكتبة وبالعلم وبموضوعات أخرى جد متنوعة . وكان حوارنا هذا بصفة خاصة فيما بعد في سنوات الخراب والدمار عندما بدأت كل الحياة تذبل ، على ما يبدو ، من البرد والجوع . وقد مات هو نفسه من الجوع والضعف العام . وولى غير آسف على نفسه بل على المكتبة وعلى حياة مستخدميها الذين هلك الكثير منها أمام عيذه لهذا السبب نفسه .

كان كودريا شوف فاشلاً في حياته العلمية مثله مثل س . ف . لاريونوف . وقد قام في سنوات التلهة بنشر أحسن المحاضرات التي أعدها وألقاها الأساتذة على الطلبة وترجم في شبابه إلى الروسية « أغنية عن النييلونخ » بوزنها الشعري الأصلي . وهو عمل يعتبر ضخماً وجدياً وإن كان ليس بالغ العبقرية إلا أنه جيد الصنعة . وقد أعطته أكاديمية العلوم — عن جدارة — مكافأة عن هذا العمل . على أن المكتبة امتصت كودريا شوف منذ وقت بعيد ولم يعد بعد ذلك إلى

ممارسة عمله التخصصى . وقد يكون ولعه بالشراب جعل الخمرة تفعل مفعولها .
ويحذر القول أن ولعه بالشراب كان أشد قبل تعيينه مديراً للمكتبة .

وخلفه ، لوقت قليل حقاً ، أمين المكتبة الممتاز . أعنى ا . ب . مورزين ،
الذى لم يكن يصلح قط للدور الإدارى . كان يسبقنى فى الجامعة بسنتين أو ثلاث
وأذكره جيداً كطالب كان فى قسم قليل الطلبة هو القسم الكلاسيكى بكلية التاريخ
واللغة والأدب . وكان من رفاقه المؤرخ المتخصص فى العالم القديم البولونى ك . ف .
هيلينسكى والثانى هوا . ا . تولستوى العارف بالأدب اليونانى . وقد تمتع كلاهما
فيما بعد بشهرة كبيرة فى العلم . أما مورزين فلم يتغير اللهم إلا إذا أخذنا بعين
الاعتبار تغييره لحالة التلهذة الرمادية بحلة أخرى سيئة نوعاً لا يجمعها تناسق
أو ترتيب . ومنذ شبابه كان يبدو فى شكل عجوز : فهو قصير غير مكترث بالشباب
ذو شعر منفوش ، قصير البصر جداً . وهناك فى المكتبة حيث التحق بالعمل
بعد انتهائه من الجامعة مباشرة كان يبدو قزماً قبيحاً . وكان أحياناً يهرول على طريقه
فى غرف المكتبة اختصاراً للوقت . ولم يكن عارفه يعجبون لهذا ، أما الطلبة
فى دهليز الجامعة الطويل فكانوا يقفون مندهشين من منظره العجيب وهو يجرى .
وكان بعد انتهاء عمله بالجامعة يتوجه إلى عمله الليلى بمكتبة الجمعية الجغرافية حيث
سرعان ما شغل منصب مديرها . كان مناسباً تماماً لهذا المنصب من ناحية أن هذه
المكتبة خاصة وصغيرة وكانت هيئة مستخدميها مؤلفة من شخصين أو ثلاثة . وقد
كان موضع تقدير كبير من رئيس الجمعية يو . م . شوكالسكى الجغرافى المشهور .
وكان مورزين كبير أمناء المكتبة الجامعية قد صار بالصدفة مديراً لها بعد أن
رفض الآخرون أن يتولوا هذا المنصب . والأدهى من ذلك أنه كان مديراً للمكتبة
فى تلك السنوات الصعبة جداً وكان هو نفسه فى حيرة ولم يستطع أن يسيطر بيد
قوية على دولاب العمل الضخم . وكان مستخدموه يحبونه على طريقتهم لكنهم
كانوا ينظرون إليه دائماً نظرة سخرية واستهزاء . وكان لا يتمتع بأية سلطة أو
نفوذ سواء فى داخل المكتبة أو خارجها . وهو نفسه كان يشعر بهذا وقد قدم
استقالته من هذه الوظيفة عند أول فرصة مواتية . وأصبح من جديد لا يحس
بوجوده أحد . ولكنه مع هذا ظل أمين المكتبة الضرورى فى الجامعة وفى الجمعية .

هكذا كان وهكذا أنهى حياته سنة ١٩٣٩ مقاسياً في آخر أيامه مثلاً بسيطاً. وكان من الصعب تصور وجوده خارج المكتبة . وكان هو نفسه لا يستطيع العيش بدونها . وكان في شبابه قد داعبته مختلف الأحلام والآمال . فتارة أراد أن يكون قسيساً ، وتارة أخرى فكر في أن يكون معلماً ريفياً . لكن هذه كلها كانت أحلاماً على طريقة بعض أبطال قصص تشيخوف . وطبعاً لم يكن ليذهب من المكتبة لا إلى هنا ولا إلى هناك حتى ولو استطاع ذلك . ولم تكن لديه رغبات عالية يمكن أن تقلقه أو تعكر عليه صفوه لكنه لم ينس اللغة اللاتينية كمتخرج من الجامعة . وأحياناً ما كان يدعى لتدريسها لطلبة الطلب وعلم النبات. وكان يستطيع في المناسبات تأليف رسالة ترحية لأي احتفال تذكاري بهذه اللغة. وكان قادراً على التحادث بها وبصفة خاصة مع ا. ا. ماليين أستاذ اللغات القديمة. وإلى جانب ذلك كان له في المكتبة نفسها مسامر آخر يتمثل في شخصية برونسيلاف أغناتيفيتش أبياخ — شيلو الذي كان « كبير أمناء » المكتبة الأخير ، الذي أذكره جيداً منذ سنوات التلمذة .

كان أبياخ — شيلو يمثل شخصية لا تقل طرافة ، واسكنه كان على النقيض من الآخرين متعدد الجوانب على طريقته . وكان قصيراً ، سميناً ، كروى الشكل ذا شعر نافر مقصوص بعناية ، وكان لطيفاً نظيف الملبس دائماً على عكس الآخرين في المكتبة بل كانت تبدو عليه سمات الأناقة التي تتوفر أحياناً لدى العجوز العزب . وكنت قد سمعت عنه وأنا ما أزال بعد تلميذاً في المدرسة الثانوية . إذ كان يأتي أحياناً إلى مدينة فيلنو لبعض أعماله الغلية في المكتبة العامة وفي قسم المخطوطات. وكانت هذه الأعمال تتعلق بصورة رئيسية بتاريخ الإقليم الغربي . على أنني تصورت أن الجزء الأول من اسم عائلته — « أبياخ » هو اسمه وعجبت كثيراً لهذا الترابط الغريب بين الإسمين . وكان جميع الطلبة الراغبين بالدراسة في مكتبة الجامعة يمرون عليه قبل كل شيء ، إذ كان يجلس إلى منضدة عند نفس المدخل ، وكان يقع عن عاتقه ملء بطاقات الاستعارة . وكانت تملسنا الدهشة دائماً بسبب تمهله ودقته المعتادة في الكتابة . لكن خطه كان حقاً على درجة فنية لا تضارع ، وبخاصة عند توقيع اسمه غير العادي بإمضاء ملتو ما كر ، وكان من حيث تحصيله عالماً لغوياً كلاسيكياً وكان يقوم بتدريس اللغة اليونانية باللاتينية في الأكاديمية الروحانية الكاثوليكية

الرومانية التي كانت تقع آنذاك على الشارع الأول في جزيرة فاسيلينسكي بطرسبورغ وفي منزل كان تابعاً من قبل الأكاديمية العلوم الروسية . لقد عرفت بعد ذلك أنه كان يعتبر أيضاً خبيراً بمجالات أخرى غير عادية أحياناً، إذ لم ينقصه، في عداد ما يدرسه ، غير تاريخ الأزياء الدينية الكنسية . وقد عرفت على أحد جوانب نشاطه عن كثب ، مع أنه حاول في حدود الإمكان ألا ينشر أي معلومات عنها . وذلك لإعتبارات مفهومة تماماً في ظروف ذلك العصر . فقد كان شخصية بارزة في نهضة الأدب البيلوروسي . وكان على معرفة عظيمة باللغة البيلوروسية سواء في لغة الحديث الحية أو آثارها القديمة . وكان هو نفسه قليلاً ما يكتب في الصحافة أو المطبوعات لكنه كان يساعد بكل الطرق قضية النشر باللغة البيلوروسية . والبيلوروسيين الموجودين في بطرسبورغ . وكان الشاعر البيلوروسي يانكا كوبالا الذي ذاع صيته فيما بعد غالباً ما يقضي الليالي عنده في سنوات الدراسة تآمماً على صندوق في دهبين شقيقته الضيقة . ولم يكن يانكا كوبالا وحده المدين له ، بل كان ثمة بيلوروسيون آخرون مدينون بالفضل لأمين المكتبة هذا ، الذي كان لا يعرف أمر مساعدته للنهضة البيلوروسية إلا الأقلون . وكان أخوه ينطوي أيضاً على هذه الحماسة للحركة البيلوروسية ، وقد كان مستخدماً في إدارة الضرائب أو الرقابة . وقد قدم هو وأخوه ، كهواة ، تمثيليات باللغة البيلوروسية الأمر الذي كان حدثاً كبيراً جريئاً بالنسبة لبداية القرن العشرين . ولكن القدر لم يكافئه على كل هذه الأعمال البطولية المتقانية . ولقد دعى إلى مدينة مينسك في وقت ما للعمل في تأليف معجم بيلوروسي . ولكن حدث له أن غادر عاصمة بيلوروسيا بسرعة عائداً إلى لينينغراد كملا عجزاً حيث مات هناك بعد أن عاش بائساً عدة أشهر رغم المساعدات التي نالها من مساعديه وأصدقائه القليلين في المكتبة الذين ما زالوا يذكرونه .

ولم يكن لنا نحن الطلبة علاقة مع كبار أمناء المكتبة فحسب بل وبصورة أكبر مع صغار أمناء المكتبة الذين كانوا يقومون بتسليم الكتب عند النوافذ . وكان صغار أمناء المكتبة مجموعة خاصة من شخصيات جد مختلطة حوبدون تحصيل عال عادة . وكان أكثرهم من أبناء الأمناء الصغار أو مستخدمي المكتبات . وكان لي من بين جيلهم الأكبر بصفحة خاصة ذكريات مع شخصين —

ايفان كيريلوفيتش سادكوف وصديقه الدائم فوقى بافلوفيتش خريبتوف . ولقد عرفناهما نحن الطلبة تبعاً لأعمال أخرى أيضاً . وكانت الخدمة في المكتبة الجامعية تعتبر غاية في السوء من ناحية المرتبات . ولم يكن يستطيع أن يعيش بدون مساعدة من عمل آخر إلا العزاب الذين يعيشون بمفردهم أمثال م . ا . كودرياشوف . وكان الصديقان سادكوف وخريبتوف يتوجهان بعد انتهاء عملهما اليومي في المكتبة إلى حديقة الحيوانات في الحى البيتروغرادى . . . وهناك في شباكين متقابلين عند بوابة الحديقة كان يتبعان تذكراً الدخول حتى آخر الليل . وكانت حديقة الحيوانات آنذاك مشهورة لانبجواراتها الخصب بل وبمطعمها أيضاً . وكان يتسنى لبعض الطلبة المتوجهين إلى هناك أن يتقابلوا مع معارفهم من أمناء المكتبة في موقف غير عادى . . . وكان خريبتوف عابساً وأكبر سنًا وغالباً ما كان يقع تحت تأثير بخار الخمر . كان فيما مضى يعمل في المكتبة الخاصة بالقسم التعليمى للغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية وكان يحاول التأكيد على بأن البارون روزن . عند تأليفه لفهرس المخطوطات العربية والفارسية في القسم ، قد قام ببساطة بنقل ما فى فهرس المخطوطات الموجود هناك ، الذى أعده المدير السابق البارون ديميزون . أما كيف ألف مثل هذه الأسطورة الخيالية . فقد ظل هذا الأمر غير مفهوم عندى .

أما سادكوف فكان يبدو فى شباب دائم ، وفى الوسع القول أن عيونا لم تلاحظ أى تغير طراً عليه مع إنه سرعان ما ظهر بين صغار أمناء المكتبة اثنان من أبنائه وكان على الدوام هادئاً مؤدباً حسن الملبس ، وكان الانطباع الذى أثاره كأمين مكتبة هو أنه إنسان واسع الثقافة . وكان مصدر غمه الدائم أنه لم يحصل على تعاليم عال الأمر الذى كان سبباً فى الحيلولة بينه وبين الترقى فى سلم الوظيفة . وعند تأسيس الجامعة فى مدينة برم ، دعى إلى تنظيم مكتبتها ويقال أنه قام بهذا العمل على خير وجه .

وكان هن بين صغار أمناء المكتبة أشخاص طريفون . فى الطابق الأول كان يجلس الدكتور فريدولين ، لكتابة البطاقات النهائية ، وقد تعرفنى فى ذلك الوقت عندما كنت انتقل من قاعة الأساتذة إلى الأسفل . وكان لا يستطيع أن يتحدث عن شيء إلا عن علم الأجناس البشرية . وكان يرى .

الأصل الوحيد لكل العلوم هو قياس الجماجم البشرية ، وهو ما كان يستحوذ على كل قوته تقريباً . وكان نزولي إلى أسفل المكتبة — حيث سمعت ذلك الحديث السابق بين اثنين من المستخدمين — دون أو يشعر به أحد . وكان قد أجهز لي الدخول إلى هناك دون أية ضجة . وكانت هذه الأجازة لا من إيمان فحسب بل ومن جميع كبار رجال الإدارة بالمكتبة . وكان هذا في تلك الفترة التي بدأت أشعر فيها لأول مرة بقلب القسم الشرقي بالمكتبة أى مخطوطاته التي كانت هناك في الخزائن في نهاية غرفة المكتبة التي كان يجلس في مواجهتها ، الدكتور فريدولين ، . ، وكانت منضدتي وسطهما تقريباً . وكان كل من الشعبة الشرقية بمطبعاتها والخزائن بمخطوطاتها قريباً مني وعلى بعد واحد . ومن الصعب على الآن — وقد سحرتني المخطوطات بكل قوة — أن أميز أحيانا : أيهما يقوم أشد وضوحاً في ذاكرتي ؟ البشر أم الكتب التي أرتنى أناسا راجلين منذ وقت بعيد وصورتهم أمامي كما لو كانوا أحياء ؟

هناك اكتشفت لأول مرة ، وشعرت تماماً بالشيخ الطنطاوي الذي كان يعمل منذ زمن بعيد مضى في كرسى الاستغراب . بل لقد شعرت بسلفه المصري من القرن السادس عشر ، الشيخ الشعرائي الذي تكشفت معالمه أمامي وضاعة لامعة حين عثرت بصورة غير متوقعة على التاريخ الفريد لقصة حياته . وكان روزن قد نسي ، مصادفة ، في هذا المخطوط ، الأوراق الخاصة بملاحظاته عنه والتي تتحدث عن عمله الذي لم يعرفه أحد . كنت سعيداً في مواصلة هذا العمل وحاولت على أساس مسودة ملاحظات روزن أن استعيد سير أفكاره . ومخطوط المجموعة المغربية الذي ضاعت نهايته قد جذبني بالغازه وبخيوط أفكاره الحقيقية التي ربطتني لا بالعرب القدماء في الأندلس بل بالمستعربين الأسبان المعاصرين . وفي تلك السنوات الباردة ، بعد الخراب والتدمير ، كنت ألقى المحاضرات وسط الرقوف بما عليها من الكتب ، هناك في الطابق الثالث من المكتبة ، التي خست بعطفها على تلك الطائفة الصغيرة من المستعربين ، بجوها الذي ترتفع فيه درجة الحرارة عن الصفرة على كل حال . وشعرت بصفة خاصة بهذه العلاقة الخالدة بين الناس والمكتب حيث لا يمكن عزل المخطوطات عن الإنسان الحي .

فلتجد مخطوطات الجامعة انعكاساً لها على صفحات ذكرياتي : لقد دخلت هي

أيضاً في حياتي بقوة وغالباً ما كانت تثيرها بأشد ما تثيرها الحوادث الخارجية . وكانت تنفذ أحياناً إلى ذاكرتي إلى الأبد لدى أول لقاء لي معها بصورة أقوى من لقاءتي التي أذكرها مع الناس .

٢ — معارض رسالة ماجيستر لأول مرة

(١٩١٤)

إن المخطوطات تقرب بين الناس . والتعرف بها يشبه الغوص في أعماق الطبيعة أو فهم الفن وتمثله . وهي بهذا توسع أفق الإنسان وتشرف كل حياته وتجعل منه عضواً في الحركة الإنسانية العظيمة في طريقها الثقافي . فالمخطوطات إذن كالطبيعة وكالفن يجب أن تكون ثروة لسلك الناس الذين يفهمونها ويحسونها . ويجب أن تكون مفتوحة أمام كل العلماء . فعلى الناس الذين وهبهم القدر مؤقتاً وفي حدود حياتهم أن يكونوا أصحاباً أو خزاناً للمخطوطات ألا يندسوا هذا . وعليهم أيضاً ألا يصبح مثلهم مثل الفارس البخيل . وأنه لمن المحزن أن نرى كيف أن النزعة الشريرة في الطبيعة الإنسانية تجعل المخطوطات أحياناً سبباً للشقاق . وكيف تقوم حواجز بين البشر أو تغدو حتى أدوات للضائقة . وفي هذه الحالة فإن قدر العالم قد يسوقه على غير انتظار إلى مواجهة ابتلاءات صعبة . لسكن مع الإرادة الحيرة يمكن التغلب عليها . وعلينا أن نذكر دائماً أننا كأفراد لسنا إلا ضيوفاً على هذه الأرض . أما العلم فدائم وخالد . ولا بد من التفكير لا في أنفسنا بل في حركة العلم إلى الأمام . وليس مهماً لها دائماً من هو بالذات الذي أسهم بقسط في تقويتها . وأنني لأذكر في شبابي إحدى الحوادث مع مخطوط استطاع بسهولة أن يحدث تصدعاً في العلاقات بين عالمين : أستاذ وتلميذه . وها أنا الآن بعد ثلاثين عاماً أشعر بارتياح لأن كلا منهما استطاع آنذاك أن يبقى على مستوى العلم والإنسانية كما كان يفهمانها .

ففي بداية أيلول (سبتمبر) ١٩٠١ ، وفي يوم قصير قاتم من أيام بطرسبورغ ، كان طلاب الصف الأول بكية اللغات الشرقية ينتظرون أول محاضرة عن اللغة العربية . وكان منظر السكينة يبدو غير عادي . ومع أنه كانت قد خصصت

للمحاضرات أرحب قاعة هي القاعة السادسة ، إلا أنها كانت مكتظة ولم تكف مقاعدها . ففي هذه السنة كان قد التحق ٥٦ طالبا بشعبة واحدة من الكلية هي الشعبة العربية الفارسية التركية التتارية . أما من قبل فلم يحدث تقريباً أن كان مثل هذا العدد . وكانت المحاضرات الأولية في اللغة العربية إجبارية ولبعض الشعب الأخرى أيضاً . وعلى هذا فإن قاعة المحاضرات التي كان لا يدرس فيها غالباً أكثر من شخصين أو ثلاثة أصبحت الآن تطن كعش الزنابير . ولم تكن المناضد هي المكتظة فقط بل حواف التوافذ أيضاً . وكان بعض الطلبة يقفون في الممر . وتوجه أكثرهم شطارة في وفود إلى خادم الكلية ، سافيلي ، بطل معركة شيكا الذي كان يقف دائماً في وضع ثابت عند المدفأة في غرفة تعتبر مراً يسميها الطلبة « مدخل الحمام » الذي يطل على « بئر السلم » من أحد الجوانب ، وعلى ممر ضيق لقاعات التدريس من جانب آخر . وفي تلك الحجرة كان الطلبة يقضون استراحتهم بين المحاضرات أو ساعات فراغهم .

وحين طلب الطلبة من سافيلي وضع منضدة أخرى ، اكتفى بالابتسام والقول : « انتظروا ، بعد أسبوع ستكون غرفة التدريس خالية تماماً » . وقد ظهر أن قوله صحيح . ففي المحاضرة التالية صار عدد طلاب أقل . أما الصف الثاني فلم ينتقل إليه من كل هذه الكتلة سوى ٢٤ طالبا و ١٢ فقط هم الذين استطاعوا أن يخرجوا من الكلية مدخلين في الحساب « الشيوخ » أي أولئك الطلبة الذين لحقونا من الصفوف العليا . وقد كان هذا منظرأ عادياً في كلية اللغات الشرقية ، ولم يكن المعلم مذنباً في انصراف الطلبة عن تلك المحاضرات الأولية . وكنا في تلك الفترة ننتظر معلنا في أول محاضرة . كنا نعرف فقط أنه أستاذ محاضر يسمى ا . ا . شמידت .

ودخل حجرة التدريس رجل في ريعان الشباب ، عمره يقارب الثلاثين ، في حلة مدنية جيدة كانت مألوفة في ذلك الوقت . فأعجبنا لأول نظرة بجماله الخاص ، لا سيما عيذه البراقتين التي لا يمكن نسيانهما . وسار إلى المنصة نجلا بعض الشيء ربما من منظر حجرة التدريس المكتظة . وبدأ المحاضرة بتمهيد إلى النحو العربي ، ووجهه لا يفتأ يحمر كل دقيقة . وكان كل شيء في المحاضرة

واضحاً مفهوماً . ونسينا للتو سابق فشلنا الذى كدرنا فى الدرس الأول عن علم الخطوط العربية . وكان المحاضر تتارياً من القرم . كان خطاطاً مشهوراً حقاً كما عرفت فيما بعد . وقد كتب أمامنا على السبورة أشياء غامضة ولم يستطع أن يوضح لنا بالروسية لزوم ما كتبه ولا ماذا ينبغى علينا أن نعمله . ولقد نسيت محاولتى الفاشلة فى الفوز بدراسة اللغة العربية بمساعدة كتاب أساسى فى جزئين عن القواعد العربية لسيلفستردى ساسى الذى طبع فى بداية القرن التاسع عشر . وكانت هذه المحاولة فى سنوات التلمذة بالمدرسة الثانوية . وها أنا الآن قد تغلبت بسهولة على أسرار الحروف العربية وعلى أوزان الأفعال وهو الشيء المرعب للكثيرين . ولم أكن أظن أن هذا القائد اللين شيدت الذى كانت له « عينا ظي مرتعب » على حد تعبير أحد أصدقائى ، والذى كان دائماً يستمر فى خجله أكثر منا نحن الطلاب ، أقول لم أكن أظن أنه سيصير مع الزمن واحداً من أصدقائى الأقربين . ولم تشب عاطفتنا المتبادلة أية شائبة حتى موته عام ١٩٣٩ .

على أن ١ . ١ . شيدت لم يقيم بالتدريس لنا فى الصف الثانى . وانفصلنا عنه قرابة عام . فقد كان من النادر جداً أن نقابله فى الكلية . وطول هذه السنة كان هناك انطباع وحيد مرتبط به يلعب بوضوح . فى أول كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٣ كان ن . ١ . ميدنيكوف يدافع عن رسالته لدرجة الدكتوراه . وقام بدور المعارضين له (فى المناقشة) كل من ف . ر . روزن وا . ١ . شيدت . وقد أشار هذا الأخير فى عرضه للملاحظات إلى مطبوع عن معجم عربى فى تراجم الأدباء . وكانت مفاجأة لنا بصفة خاصة أن روزن اعتدل فى جلسته آنذاك وسأل بحيويته المعروفة عن مكان طبع هذا المعجم . وقد رفع هذا مكانة شيدت عالية أمام عيوننا الساذجة . ذلك أن شيدت ظهر أحياناً متمكناً من معرفة أشياء ما زالت بجهولة لروزن نفسه . وشعرنا فيما بعد بفخر ليس بالقليل عند سمعنا أن شيدت كان تليذا لا لروزن فحسب بل وتليذاً أيضاً لغولدنزيهر المستشرق البودابستى المشهور فى الدراسات الإسلامية .

ولم يكن لقاءنا مع شيدت إلا بعد عام عندما كنا فى الصف الثالث حيث قام بتدريس الفقه الإسلامى . ولقد فوجئنا بالتغيير الذى طرأ عليه . فقد صار



الأكاديمي ح. ح. ح. (١٨٥١ - ١٩٨٢)



١.١. شحات (١٨٧١ - ١٩٣٩) الأستاذ المحاضر
في كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبورغ .

أشيب الرأس ، يسير متوكئا على عصا ، ويبدو عليه الإنهاك . وعرفت فيما بعد أن تلك السنة كانت شديدة القسوة عليه ، بسبب ما أصاب عائلته من غم وكدر وكذلك بسبب مرضه وضرورة احتماله لعمل شاق مرهق لأعصابه لم يكن راضيا عنه كل الرضا . ولم تكن وظيفة الأستاذ المحاضر تكفل له من الحياة حتى المطالب البسيطة المتواضعة لرجل رب عائلة . وكان على شميدت أن يتحمل أعباء عمل إضافية آخر . وقد عرفنا بدهشة أنه كان يعمل مفتشا بمدرسة القيصر الكسندر الثانوية وبعد انتهاء عمله هناك كان يتوجه لعمل آخر هو أمين تحرير جريدة « أخبار سانت بطرسبورغ » التي نشرها الأمير أوكشومسكى الذى كان رحالة مشهورا في عصره ومن المهتمين بثقافة الشرق الأقصى . كل هذه الأعمال التي كانت على عاتق شميدت ارتبطت ارتباطا سيئا مع الاستشراف الإسلامى والأدب العربى كليهما . ولم تبق لديه وقتا للعمل فيهما وألقت خمولا دائما على إنسان يسعى نحو أعمال خلافة واسعة في العلم وكان لديه لذلك موهبة غنية . ومع مرور الزمن فقط صار مفهوما لنا السر في أن شميدت كان ينظر بوجل إلى أسئلتنا العلمية الخارجة عن نطاق البرنامج المحدد للدراسة . ذلك أنها كانت تمس عنده جرحا لا يندمل (في حبه للعلم) وكانت الإجابة تتطلب أحيانا الرجوع إلى بعض المصادر ولم يكن لديه وقت حتى لهذا . وكان نادرا ما يأتى إلى المحاضرات في صفنا الثالث ، ولكنه ، عند لقائى معه ، كان يبدى نحوى رغبات خيرة طيبة على الدوام .

وفي عطلة صيف ذلك العام اتفق لى أن قرأت القرآن كاملا ، وبمساعدة معجم كركاس للقرآن بالطبع الذى لا يستغنى عنه ، وبمساعدة ترجمة سابلوكوف إلى الروسية . وقد وصلت إلى شميدت اشاعة عن هذا . وفي الحريف حيانى بابتسام ملقبا آياى ، بالحافظ ، . وفي الصف الرابع انقطع من جديد لقائنا النادر في الجامعة ، ذلك لأن تدريس الاستعراب وقع في صفنا على عاتق روزن . طول هذا الوقت انجذبت انجذابا شديدا نحو شميدت الذى شعرت نحوه شعورا غريزيا بأنه ذو موهبة علمية كبيرة وروح خيرة عظيمة . إلا أننى كنت أخجل من أن أتوجه إليه بالسؤال لشعورى بأن هذا يولد لديه أحيانا ألما ورغبة في أن ينكمش في قوقعته . ولقد عرفنا أنه منذ وقت بعيد يعد بحثا علميا كبيرا عن

عالم صوفي مصرى من القرن السادس عشر هو عبد الوهاب الشعرانى . وكان من المتوقع أن يغدو هذا البحث دراسته لدرجة الماجيستير ، لكننى بعد عدة أعوام عندما انتهيت من الجامعة وواصلت دراستى مع روزن سألته بدافع حب الاطلاع عما إذا كان شميدت سيناقش عما قريب رسالته . فبرز روزن يده بحزن . وقال : و ايه ! لقد ضاع الكسندر ادواردوفيتش (شميدت) . قلت له من قبل أن عليه ألا يتزوج بسرعة هكذا : إنه رجل جد موهوب ، وبدأ روزن بحموية يقص ما قاله صديقه غو لنزيهير الذى اعتبر شميدت واحداً من أحسن تلاميذه الذين أتوا إليه فى وقت ما من أوروبا وأمريكا . وقد تأملت لهذا المسكين شميدت أكثر من دى قبل وحاولت فى حدود قوق الضعيفة أن أفتح قلبه وأجعله أكثر قرباً إلى اهتمامات الحياة العلمية . وبدأ لى أحيانا أن كل شىء سيصير على ما يرام ، إلا أن موت روزن كان بالنسبة لـكلينا ضربة قاسية . وعندما كنت فى بلاد الشرق شعرت مو رسائله أنه يعيش من جديد تحت وطأة كمد شديد ، حتى أنه رفض أن يلقى محاضرة عن روزن فى الجلسة التى أقيمت بمناسبة ذكراه . وكان فى استطاعته أن يقوم بهذا العمل خيراً من جميع المستعربين .

وأثناء رحلتى فى الشرق حاولت أن أعيد إليه الحياة ، ونقبت فى القاهرة عن أى مادة علمية ولو بسيطة عن محبوبه الشعرانى حتى لا يترك دراسته عنده . ورجعت إلى بطرسبورغ ، وكان فرق العمر بيننا إذ ذاك أقل ظهوراً مما فى الماضى . وكان كل منا قريباً إلى الآخر تماماً بفضل عملنا معا فى كرسى الاستعراب . فحملته على أن يبدأ فى آخر الأمر بطبع رسالته وأن يتغلب على عدم الثقة فى نفسه وقوته . وهو المرض الذى أصابه . وكان عملانا يسيران فى خطين متوازيين . وفى وقت واحد طبعت رسالته وطبعت رسالتى عن الشاعر الوأواء .

ولقد كانت الحوائل كثيرة والأمر تتحرك فى بطنه وكان شميدت يتأرجح مراراً ويقوم أحيانا من جديد بطبع كل المادة الجاهزة التى أعدها . وكان فى رسالته للماجستير نص عربى صفت حروفه فى هولندا فى مطبعة بريل المعروفة لدى جميع المستشرقين . وقد تطلب حجم العمل نفسه وقتاً كبيراً ، وكنت أقوم بتصحيح جميع تجارب الطبع لرسالة شميدت .

ونادرا ما كانت تحدث معركة بيني وبينه بسبب بعض مسائل ثانوية بحثة ،
وأذرتة انذار الأصدقاء بأننى سأقص حكاية هذه المعركة عندما أقوم بمعارضته
فى مناقشة رسالته . ولم ينقطع عملنا بقيام الحرب العالمية الأولى .

وأخيراً فى بداية خريف ١٩١٤ كانت كلتا الرسالتين جاهزتين . وقررت
بإصرار أننى لن أسلم رسالتى إلى الكلية رسمياً إلا عندما تتخطى رسالة شميدت
كل إجراءاتها الرسمية .

وحدد يوم ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٤ موعداً لمناقشة رسالته
وأعددت نفسى لهذه المناقشة بجدية كاملة . وكان مجال الاستشراق الإسلامى يقف
بعيدا عن اختصاصى المباشر فى الأدب العربى . لكننى أردت بحكم الشبـاب
ألا الطخ وجهى بالوحل . وأردت أن أعرض لذلك الجمهور الذى كان يقبل
بكثرة نسبية على المناقشات العلمية فى ذلك الوقت ، كل أهمية عمل شميدت بالنسبة
لمجالنا العلمى . ولا أخفى أن بعض الزملاء فى الكلية الذين لا يحسنون معرفة عمق
علاقتنا الودية ، ونظرتنا إلى العلم ، كانوا ينتظرون نوعاً من المشاهد المسرحية
من المرجح فيها أن يقوم إثنان من شباب العلماء : أستاذ وتلميذه بمعارضة كل
منهما الآخر ويقوم كل منهما بمحاولة إغراق الآخر . إلا أنهم كانوا على خطأ
فى هذا الأمر . وقد تذكرت بابتسام حكايات روزن عن الصداقة الأكيدة التى
ربطت بينه وبين معلمه كركاس منذ الشباب وكيف أن أعضاء بعض الكراسى
العلمية الأخرى وبخاصة كرسى الدراسات التركية ، الذين كانوا يناصبون بعضهم
العداء الدائم . كانوا ينتظرون اليوم الذى يحدث أن تهب فيه عاصفة بين كل
من روزن وكركاس .

وكنت أعرف جيداً رسالة شميدت . فقد قرأت تجارب طبع جزئها الأساسى
ولم يكن عندى أى شك فى أن الرسالة تمثل حدثاً كبيراً فى مجالنا العلمى الوطنى .
وتعد خطوة كبيرة فى مجال العلم العالمى . لكننى فى نظرتى إلى الرسالة وضعت
لنفسى هدفاً يتطلب أموراً أكثر من اللازم . فقد قررت أن أتحقق منها آنذاك
وفقاً لكل الأصول والمصادر التى تحتويها . لكننى وجدت كل شئ فى هذه
الناحية على ما يرام . وبالطبع كانت أحياناً تكشف أشياء بسيطة تافهة وأشياء

أخرى غير منسقة نجمت من جراء طول مدة دراسة الموضوع وطول مدة طبع الرسالة . أما الأصول العربية للرسالة فقد وضح أنها مدروسة دراسة كاملة ولم اكتشف أى نقصان فيها . وهكذا ظل عملي حتى منتصف أيلول (سبتمبر) عندما بقي ما يقرب من شهر على مناقشة الرسالة .

وبينما كنت أستعد لمعارضة رسالة شميدت كنت في الوقت نفسه أراصل عملاً آخر شغفت به في ذلك الحين . فقد كنت أحلم بتأليف فهرس مسلسل للمخطوطات العربية التي كانت في مكتبة الجامعة . وقمت بالتدريج باختيار المؤلفات التي اهتمت بها بدرجة كبرى من الفهرس الذي قام بطبعه زاليمان وروزن في وقت مضى . وذات مساء ، فيما كنت أستريح من تعب اليوم ، غرقت من جديد في هذا العمل . وابتدأت يدي تكتب آلياً عنواناً غير معروف . فأصابتها فجأة رعشة كما لو مسها تيار كهربائي . ولم تكمل يدي كتابة الكلمة وانساب القلم عفويّاً ساحباً ذيل الكلمة على الوريقة كلها . فقد وجدت أنه قد كتب في الفهرس بخط واضح عنوان كتاب غير معروف لدى هوذة كرة أولى الألباب في مناقب الشعراء سيدي عبد الوهاب . وهذا المرجع لم يكن في رسالة شميدت . فما معنى هذا ؟ في الصباح أردت أن أحل هذا اللغز فتوجهت إلى الخزائن الخشبية المألوفة لدى بمخطوطاتها الشرقية في مكتبة الجامعة . لم يكن هناك مجال لسوء الفهم ، فقد اتضح كل شيء بسرعة . ذلك أن مجموعة الأستاذ الشيخ الطنطاوي التي آلت إلى مكتبة الجامعة كانت تتضمن فعلاً سيرة واسعة نسبياً عن حياة الشعراء وأجداده وأحفاده حتى القرن السابع عشر . وقد قام بتأليف هذه السيرة شخص يسمى بالمليجي الذي كان متولياً على مسجد الشعراء بالقاهرة حوالي عام ١٧٠٠ . وقد عرف جيداً التراث الذي يرتبط بأهل بيت الشعراء . والمخطوط نفسه مكتوب عام ١٧٢٣ . وليس المخطوط ببالغ الأهمية لكنه يكشف عن ترجمة فريدة لحياة هذا الصوفي ، ويحتوي على فهرس كامل لمؤلفاته ، ويحتوي على تفصيلات عديدة مجمعة على وجه العموم — عن تاريخ القرنين السادس عشر والسابع عشر . وعلى الفور اتضح لي أهمية هذا المخطوط لدراسة شميدت . ولكن كيف استطاع هذا المخطوط أن يفلت من يده ؟ لقد ظل هذا السؤال يبدو لي لغزاً وخاعاً في جزء واحد منه . فالمخطوط نفسه يبدو أنه فريد بدون شك ويشير إلى ذلك

عدم وجود أية إشارة لا إلى المؤلف ولا إلى المخطوط في كتاب بروكلان المعروف لدى جميع المستعربين . وبروكلان لم يستخدم تقريبا فهرس مخطوطات مكتبة جامعتنا . ويمكن أن شيدت لم يوجه لهذا السبب اهتمامه إلى هذا المخطوط . فيما بعد لعبت سخرية الأقدار دورها ، الولوعة غالبا بالسخرية من العلماء . فإن شيدت الذي جمع بانتظام مادة لعمله الطويل من برلين ومن ليبزيغ وليدن لم يفكر بأن ينظر في فهرس كان تحت يده من قبل لمخطوطات مكتبة الجامعة في بترسبورغ حيث كان يعمل دائما في هذه المكتبة وحيث كان يوجد المصدر الأصلي الأساسي الذي على أساسه طبع أحد مؤلفات الشعراني في ملحق رسالته . وحتى أستاذنا روزن لم ترجمه سخرية القدر . لقد ظل أعواما كثيرة يتحدث مع تلميذه عن الشعراني ، فكيف لم يتذكر طول هذه الأعوام الكثيرة مخطوط تاريخ حياة الشعراني الذي أدخله روزن بنفسه إلى الفهرس في وقت ما . إن هذا الأمر قد ظل إلى الأبد بالنسبة لي واحدا من الألغاز في تاريخ علمنا ، المرتبط على ما يبدو غير قليل من الارتباط بالمصادفات والمفاجآت .

ولقد ذهلت عدة أيام ، لكن الأمر كان يتطلب حلا سريعا بسبب اقتراب مناقشة الرسالة . ولما كنت أعرف طباع شيدت فقد شعرت بأن أخباره بهذا الموضوع مباشرة ، يعني لديه استعداد نوبة من اليأس وقد يكون ذلك إلى الأبد مدعاة لعرقلة عودته إلى العمل العلمي بعد أن بدأ يستقيم عودها . وفي الوقت نفسه لم يسمح لي ضميري العلمي بأن أخفي خبر هذا الاكتشاف إلى ما بعد مناقشة الرسالة . وأخيرا وجدت مخرجا من هذا الأمر . فقد كان واضحا لي أن المؤلف الذي طبعه شيدت يمثل دون شك مكسبا للعلم . فإن هذا العمل بالطبع هو أكبر مما يستحقه بجهود لدرجة الماجستير . وأما ذلك المرجع الذي اكتشف مصادقة فيمكن دراسته مع الزمن . وقد ظهر لي أن النتائج الأساسية التي بناها شيدت على أساس مواد أخرى لن تتأثر أو تتغير . وكان يلزم بالطبع أن أخبر شيدت قبل مناقشة الرسالة .

وسرعان ما هدت عندما وصلت إلى هذا الحل ، إلا أنني بدافع من شبابي ، سمحت لنفسى . قبل الكشف عن هذا السر لشيدت ، بأن أقوم بلعبة صغيرة . وكنت آنذاك أتقابل معه كل يوم تقريبا فبدأت ألسعه بالأسئلة التي أمدني بها

مخطوط الجامعة : كم زوجة كانت عند الشعراني ؟ كم كان طول قامته ؟ هل كتب .
هو هذه الموضوعات أو تلك ؟ ولم يستطع المسكين شميدت أن يجيب عن هذه .
الأسئلة بناء على المصادر المعروفة لديه ، فكان يزداد اهتماماً بمعرفة من أين حصلت
على هذه المعلومات . وبعد أسبوع كشفت له وحده عن اكتشافى مشفقاً عليه من
طول المقاساة . وكان رد الفعل لديه هو بالضبط ما كنت أخشاه .

فقد أراد من أول انطباع لديه أن يأخذ رسالته من الكلية وأن يؤجل
حصوله على درجة الماجيستر . وكانت مشكلتى الكبرى فى اقناعه بالعدول عن
هذا ، بترك الأمور تسير فى مجراها .

وأوشكت مناقشة الرسالة أن تؤجل لسبب آخر . وكما كان يحدث لى مرارا
فى الظروف المهمة فى حياتى ، حدث أن مرضت أسبوع قبل مناقشة الرسالة
وارتفعت درجة حرارتى حتى كادت تقارب الأربعين . ورقدت هامداً
وابتداً شميدت يقول من جديد أنه واضح أن القدر لا يريد أن تناقش رسالته
فى وقتها . ولكن حدث ، لحسن الحظ ، أن الطبيب المنزلى الذى طلبت منه أن
يجعلنى أقف على رجلى ولو ليوم واحد ، أعطانى على حد تعبيره « دواء يعطى
للحصان » . وتوجهت من على الأريكة مباشرة إلى مناقشة الرسالة فى « ردنجهوت »
كما هى العادة آنذاك وكان هذا الردنجهوت بالإيجار . وقد أحسست أثناء المناقشة
بشعور غريب ، إذ سمعت صوتى بنفسى وكأنه ليس منى وكما لو كان المتكلم
شخصاً غريباً .

وعلى كل حال ، جاء كل شيء على ما يرام . واستهللت كلمتى العادية —
كعارض « رسمى » فى المناقشة — بيت من الشعر العربى : « أعله الرماية كل
يوم فلها اشتد ساعده رمانى » . فنظر إلى شميدت — وهو فى ردنجهوته أيضاً —
من على منبره وابتسم ابتسامة طيبة . وكان هو الوحيد من بين الحاضرين الذى
يعرف ما أقصد ، وعن أى شيء سيكون كلامى . ولم أخف اكتشافى . لكننى
ألقيت عليه الضوء بالصورة التى رأيت أنها مناسبة للظرف القائم . وركزت
كلامى على النواحي الأساسية الجديرة فى عمل شميدت . وحرمت أولئك

الزملاء الفضوليون من « المسرحية » التي كانوا ينتظرونها وانتهت المناقشة
بسلام .

لم يكن الجميع متفقين معي في وجهة نظري . ولم يكن الجميع فاهمين لها أيضاً .
وقد حدث أن سيدة من بين الحاضرين قليلة المعرفة بنظام المناقشات العلمية ،
لجعت بما تخيلته أنه هجوم على شميذت ، وعبرت عن غضبها بصوت مسوع .
لكنها هدأت قليلاً فيما بعد عندما أوضح لها شميذت حقيقة الأمر بعد جهد كبير .
وعلى كل حال فقد كان لدى بعضهم من عدم الرضا ما هو أكثر من هذا .

وفي اليوم التالي ، في باحة الجامعة ، قابلت معلمي المحترم الأستاذ تورايف .
وكان غاضباً لأن السكينة قبلت رسالة ينقصها أحد المراجع الأساسية ولم أسلم أنا
أيضاً من غضبه . وحاولت أن أشرح له وجهة نظري ولكن محاولتي . كما
اتضح ، كانت فاشلة . وأنا لست من أنصار المبدأ القائل « لتحقيق العدالة . وليهلك
العالم » ، فإذا هلك العالم فأين إذن ستظهر العدالة ؟ إن العلم يتحرك بالأحياء من
الناس ، وإذا نحن لم نفكر في هؤلاء الناس فإن العلم نفسه قد يتوقف . ولذلك فإنه
يبدو لي الآن وبعد ثلاثين عاماً أننا كنا على حق مع شميذت . وقد أوضح هذا
امتداد حياتنا . ولم يكن بدون داع آنذاك أنه في العقد الرابع من هذا القرن —
عندما كاه يصل إلى لينينغراد من طومشند حيث كان قد رحل إليها سنة ١٩٢٠ —
غالباً ما كان يطيب أن أتذكر معه كيف عثرت على مخطوط ترجمة حياة الشعرائي
وكيف كنت ألسعه بأسسلي . وقد تذكرنا مؤامرتنا الصغيرة عندما وقفت لأول
مرة أعارض رسالة علمية ، وتذكرنا خيبة أمل بعض زملائنا الذين كانوا
ينتظرون أن يروا : أينما سيبدأ بان يقول للآخر أشياء غير طيبة .

على أن قصة المخطوط المكتشف لم تقف عند هذا الحد بل واصلت دورتها .
وفي هذه المرة كان من نصيبي بعض من سخرية القدر « لكي لا يصيبني الغرور » —
وهي العبارة التي فضل أن يقولها أحد العلماء الهرمين من خارج العاصمة . فقد
انتهيت من مقالتي عن مخطوط الجامعة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ وعبرت
فيها عن أملتي بأن تكون النسخة الثانية لهذا المخطوط موجودة في وطن الشعرائي
في مصر . إلا أن هذه النسخة اكتشفت على نحو أسرع جداً وفي مكان أقرب جداً

مما كنت أتوقع . فقد اتفق في تلك الأعوام أن كان عند في الجامعة طالب
مؤهوب تبرز بوضوح شخصيته الخاصة وهو بلغاري ابن حداد واسم عائلته
هو من الأسماء الشائعة في بلغاريا وأعني به شيشمانوف . وكان هذا الطالب يتميز
بنوع أدنى كبير ودقيق . وكان يعزف مجموعة ضخمة من اللغات ، وكان في ذلك
الوقت شديداً لاجذاب نحو محبوبتي الشاعر الفيلسوف أبي العلام ، وترجم ما يقرب
من مجموعة كاملة من أشعاره الدرعية . وقد اعدان باتجذباته الكثيرة المتعددة
وقتما معا بعد وقت متأخر قليلاً بترجمة رواية « اينديميون » لورثر فون
ميدينستام من اللغة السويدية إلى الروسية . وقد جرت حوادث هذه الرواية
في دمشق .

وفي صيف ١٩١٤ رجع هذا الطالب إلى وطنه ، فأوصيته بأن يبحث
في المكتبة العامة في صوفيا عما إذا كانت ثمة أية مخطوطات عربية . وظهر أنه
توجد هناك في قسم تحت عنوان « الأرشيفات التركية » كل مجموعة « مكتبة
نانا بازفانت أوغلو » وهي شخصية بلغارية تركية مشهورة عاشت في بداية
الزمن الحديث . والمادة الأساسية لهذه المجموعة مؤلفة من أقلية من
المخطوطات التركية وأغلبية من المخطوطات العربية التي خزن معظمها آنذاك في
حالة جيدة .

وقد أرسل لي شيشمانوف الفهرس المختصر للمخطوطات التي اعتبرها طريفة
جدا . وكانت دهشتي عظيمة عندما وجدت أن من بين مجموعة الفهرس نسخة
أخرى لترجمة حياة الشعراني بقلم المليجي . وعلى هذا النحو فإن هذا الأثر لم يكن
بعد مسجلاً في أية مجموعة ، وغدير المعروف حتى في وطن الشعراني . مصر ،
قد عثر عليه في مخطوطين جيدين في بلدين سلافيين في وقت واحد . من الصعب
أن تفسر جميع هذه المصادقات في تاريخ المخطوطات العربية ولكن من الواضح
هذه المصادقات ستتكرر بالطبع فترة أخرى طويلة من الزمن . فعلينا لم يزل
في مهده . وبلغاريا لم تدرس تماماً من ناحية المخطوطات ، ولعلها تخفي أشياء
كثيرة غير متوقعة أما كنا لا نعرف شيئاً حتى هذه اللحظة عن مخطوط

« نزهة المشتاق » للإدريسى . هذا المخطوط الذى يوجد فى مكان ما فى مدينة شوملا والذى تسرب عنه خبر فى أحد المجلات الجغرافية . هذا مع العلم أن المخطوطات القيمة للإدريسى فى جميع أنحاء العالم يمكن أن تعد على أصابع اليد الواحدة . على أنه فى مستهل العقد الخامس من هذا القرن عثر فعلاً على مخطوط آخر لترجمة حياة الشعرائى ، بل وفى القاهرة هذه المرة .

٣ — من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو فى بطرسبورغ

(١٩١٦ — ١٩٣٠)

منذ أكثر من مائة عام ، فى ٢٢ آب (أغسطس) ١٨٤٠ ظهرت مقالة غير عادية تماماً فى جريدة « أخبار سانت بطرسبورغ » . وكان « شارع نيفسكى الرئيسى » يلعب دوراً خاصاً فى ذلك الوقت بالنسبة لسكان بطرسبورغ الذين كانوا يتذكرون قصة غوغول المرتبطة باسم هذا الشارع . بدأت المقالة بعبارة « رنانة بطريقة رومانتيكية عالية : « تسألنى من هذا الرجل الوسيم فى حلته الشرقية ، وعمامته البيضاء ، ولحيته السوداء كالقطران ، وعيونه الحية المتقدة شراً ، ووجهه المعبر الذى المحترق لا يشمسنا الشمالية الباهتة . لقد قابلته مرتين من قبل ، يسير مختالاً على الجانب المشمس من شارع نيفسكى الرئيسى وكعضو دائم فى نيفسكى الرئيسى فى ذلك الهواء الجميل ، سرعان ما تراد ، لا بد أنك تريد أن تعرف من هو » . ويبين الكاتب أنه هو الشيخ محمد عياد الطنطاوى الذى رحل من « شاطئ النيل » ليشغل الكرسى الخالى للغة العربية فى معهد اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية . « الآن تستطيعون ، تماماً أن تتعلموا التحدث بالعربية دون أن تسافروا من بطرسبورغ » . هكذا انتهت المقالة . وكان كاتبها عندئذ تلميذاً شاباً للمستعرب سينكوفسكى هو سافيليف الذى صار فيما بعد عالماً معروفاً فى الآثار والنقود القديمة .

ومع الزمن ، وبعد عشرين عاماً ، عرف قليل من قراء « أخبار سانت بطرسبورغ » أن قبراً جديداً ظهر قرب قرية فولكوفو فى المقبرة « التتارية » . عليه شهادة حسنة مكتوب عليها بالعربية وبالروسية . والنص الروسى يقول : « الأستاذ بجامعة سانت بطرسبورغ والمستشار برتبة عقيد ، الشيخ محمد عياد » .

الطنطاوى . مات فى ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦١ وله من العمر ٥٠ عاماً .
هنا انتهى طريق سيرة طويل وغير عادى مبتدئاً قبل نصف قرن فى قرية صغيرة
قرية من طنطا . هناك فى مصر .

فيا لها من زهرة نادرة تلك الشخصية التى تلالأت فى روسيا القديمة ! وهام
المعاصرون يتحدثون عنها — عفو الخاطر — فى هالة رومانتيكية . وأن النعمة
الرومانتيكية ترن فى مقالة « أخبار سانت بطرسبورغ » ، وفى قصة أحد تلاميذ
الشيخ الطنطاوى أنه عند استعداده للسفر إلى روسيا ، اشترى جارية من قبيلته
وأرسلها إلى باريس لتتعلم ثم تزوجها بعد ذلك . واستطاع المعاصرون جيداً
أن يعرفوا شكله وهيئته بفضل الصورة الرائعة التى رسمها له بيده فى نهاية ١٨٥٣
الفنان المشهور مارتينوف والتى توجد فى مجلد صور شخصيات العلم المعاصر . وقد
ساعدتنا هذه الصورة على فهم ذلك الانطباع الذى تحدثت عنه مقالة « أخبار
سانت بطرسبورغ » . ويبدو من هذه الصورة على ثيابه الشرقية وسام القديسة
« أنثا » (حنة) وبهزيمة ضحك هو نفسه على هذا فى بعض أشعاره :

إنى رأيت عجباً فى بطرسبورغ وأنه

شيخ من المسلمين يضم فى الصدر حنة .

على أنه سرعان ما غاب الشيخ الطنطاوى عن عيون إخوانه فى وطنه ، وحتى
فى نهاية العقد التاسع للقرن ١٩ لم يعرف الكثيرون منهم ما إذا كان حياً أم ميتاً .

ولعل هذه الشخصية الشرقية من أسلافنا ستبقى إلى الأبد بالنسبة لنا ، نحن
المستعربين الروس أيضاً ، فى صورة رومانتيكية سائحة معتمدة لو لم توجد مخطوطاته .
فخالباً ما استطاعت المخطوطات أن تعرض المرء بصورة أحسن من معاصريه .
فهناك فى مكتبة الجامعة عند تلك الخزائن من الخشب الفاتح ، شعرت لأول مرة
بالتنطاوى الحقيقى . ماملاً حياته فى التماهرة وفى بطرسبورغ . وفهمت من الأوراق
التي كتبها بيده تلك المأساة الثقيلة التى أصابته فى آخر أعوام حياته . ولعل
هذه الأوراق هى وحدها التى تعرف أمر هذه المأساة . ولم أدر منذ البداية
كيف جذبتنى غريزياً هذه الشخصية الفريدة فى تاريخ بجالنا العالى . وسرعان

ما عجزت عن أن أعزل فكري . وما كانت التنقيبات والبحث المتواصل لتضيء عادة إلا قطعاً لتطعيم هذه الصورة . لكن الاكتشافات السعيدة والمصادفات غير المتوقعة غالباً ما كانت تضيء بنور ساطع امتداد الطريق إلى الأمام وسلوك الطريق إلى الخلف . وغالباً ما حملت على تذكر المثل القائل : « عند الصيد يستسلم الوحش بنفسه » . وقد سار هذا العمل كما هو دائماً إلى جانب أعمال أخرى . واقضى الأمر خمسة عشر عاماً من العمل حتى تجمست على تأليف كتاب صغير ضمته خلاصة معلومات هذه السنين التي استطعت أن أعرفها عن الشيخ الطنطاوى : إن القصة قد تحكى بسرعة ، أما تأليفها فعمل طويل .

في عام ١٩١٩ احتفل بالذكري السنوية المئوية للجامعة سانت بطرسبورغ . وكان قد بدى في الاستعداد لهذا الاحتفال مبكراً ، قبل الثورة . وفي ١٩١٦ كانت قد راودت الجامعة فكرة عن كتابة تاريخ الكراسى المختلفة فيها . وقد انفتحت لنا ، نحن المستعربين ، صورة عجيبة مشوقة . فأول أستاذ كان الفرنسي ديمانج (١٨١٩—١٨٢٢) . والثاني هو البولوني سنكوفسكى (١٨٢٢—١٨٤٧) ؛ المعروف بلقب البارون برامبيوس . والثالث كان عربياً هو شيخنا الطنطاوى (١٨٤٧—١٨٦١) . وإذا كان لم يذكر عن الأستاذ الأول أى شيء لأنه لم يترك أى أثر في مجال العلم سوى ما ينسب إليه على غير أساس . من مآثرة تعليم الكاتب الروسي الكبير والديبلوماسى المعروف غريويديروف اللغة الفارسية . وإذا كانت توجد كتب كثيرة عن الأستاذ الثانى ، حقاً بوصفه كاتباً لا بوصفه مستعرباً ، فقد وجدت ، فيما يتعلق بالشيخ الطنطاوى ، أن المواد المطبوعة تنطوى على بعض الأخطاء الناتجة عن سوء الفهم كما وجدت ببساطة غياب بعض المعلومات الهامة عنه . فكان لابد من بناء هذا كله من جديد . فتوجهت نحو الدرب المختبر : نحو المخطوطات .

كان معروفاً لدى أن الشيخ الطنطاوى جمع بنفسه مجموعة من المخطوطات تقارب المائة والخمسين مجلداً آلت كلها إلى مكتبة الجامعة . وكنت أعرف أن بينها آثاراً أدبية ممتعة ليست بالقليلة وأن جزءاً منها دخل نطاق الاستخدام العلمى ،

لكن ليس هذا ما كان يهمنى إذ ذاك. فما كنت فى حاجة إليه هو استيضاح ما إذا كانت المجموعة الأخرى من مخطوطات الطنطاوى تنطوى على أية مواد عن تاريخ حياته أو ملامح نشاطاته العلمية والأدبية . ولم ينبأ أملى : ففى أوائل هذه المخطوطات عثرت على مؤلفات . لم يرها أحد ، بقلم الشيخ الطنطاوى نفسه ومخطوطات لمؤلفين آخرين كان قد نسخها فى شبابه . وعثرت على مخطوطات فيها ملاحظات وإضافات وتعليقات له . وقررت أن أنظر وأفحص فى بطء المائة والخمسين مجلداً جميعاً صفحة صفحة . وقد زاد هذا العدد عندما وجدت أن بعض مخطوطات مجموعة الجامعة ، التى وصلت إلى المكتبة قبل الطنطاوى ، تتضمن أيضاً ملاحظاته . كان العمل فنياً حقاً يتطلب الدقة والتمهل . ولكن هذا العمل وحده استطاع أن يعطى قاعدة ثابتة وأن يمنح بسخاء فى مقابل الجهود الصعب الطويل ، لا رضى النفس فحسب بل ونتائج حقيقية . ورويداً رويداً وخطوة خطوة ارتسم أمامى بالتدريج كل المجال العلمى والتعليمى لمعاصرى الطنطاوى . وبرزت أمامى اهتماماته الشخصية البعيدة عن نطاق هذا المجال ، ومحاولاته الأولية الوجلة فى جمع مواد تهيب على استفسارات أصدقائه وطلبته الأوربيين . وقد ساعدت ملاحظاته وتعليقاته على صفحات المخطوطات فى إيضاح المراحل المتتالية من حياته . فأول جزء من مخطوطاته اشتراه عندما كان طالباً ثم معلماً فى الأزهر . والجزء الثانى يتضح من ملاحظاته عليه أنه قضى معه وقت فراغه غير الاختيارى فى الحجر الصحى الطويل فى أزمير أو استانبول ، وقت رحلته إلى روسيا . وواضح من ملاحظات الجزء الثالث أنه يطير بأفكاره إلى وطنه من غربته البعيدة حيث أنهى حياته . وبالتدريج وضحت القاعدة الزمنية لتاريخ حياته وابتدأت صورته الرومانتيكية الغائمة ترخر بألوان حياته الناصعة .

وكان العصر الجديد لسكل عملى هو عام ١٩٢٤ . فقد بدأ مواطنو الطنطاوى يتذكرونه عندما تيقظ اهتمامهم نحو الفترة القديمة من حياتهم . وبدأت تظهر منذ ذلك الوقت (١٩٢٤) إشارات عنه فى أخبار المجمع العلمى العربى بدمشق وفى مجلات القاهرة . ووجدت أن وطن الطنطاوى لا يملك إطلاقاً ما أملاكه من الموارد التى جمعها . وبسعادة أسهمت بنصيبى فى الصحافة العربية للعمل على إحياء نموذج إنسانى لا تقل قرابته لنا عن قرابته للعرب . وهنا ربطنى القدر من جديد مع

أحمد تيمور باشا العالم والمحِب للكتب . وكان أفقه العالمى واسعاً . فلقد استطاع أن يفهم جيداً أيضاً الشاعر الفيلسوف الأعمى في القرن الحادى عشر أبا العلام الذى انجذبنا إليه معا . وبنفس هذا الفهم كان تيمور باشا يعرف أحد مواطنى بلده في القرن التاسع عشر الذى عاش ومات بين الروس هنا في الشمال . وقدر تيمور جهودى ، وبعد موته ، عرفت من ابنه أن صورة الطنطاوى التى أرسلتها له كانت دائماً على منضدته . وابتدأت أوروبا أيضاً تهتم بالأستاذ البطرسبورغى الطريف . وفي هذا العام ١٩٢٤ نفسه كتب إلى محرر الطبعة العالمية المشهورة لدائرة المعارف الإسلامية التى تجدد صدورها بعد الحرب العالمية الأولى ، يسألنى أن أرسل له مقالة عن الطنطاوى . وإجمالاً لعمل استمر قرابة عشر سنوات . شعرت شعوراً جلياً بنداء داخلى يهيب بى بإصرار أن على أن أولف كتاباً عن الطنطاوى . وكما لو كان الأمر مكافأة على هذا القرار ، حمل إلى عام ١٩٢٤ . اكتشافاً مفرحاً .

فعندما كنت أنظر عدداً من إحدى المجلات الإستشرافية خرج لتوه من المطبعة ، عثرت فيه على فهرس دورى للمخطوطات العربية في مكتبات استانبول . وكان ينشر مثل هذه الفهارس من وقت لآخر واحد من العلماء الألمان ، هو مستشرق فاضل لم يكن له مكان في ألمانيا فالتقى مراسيه في استانبول على وظيفة معلم متواضع في مدرسة ثانوية . وبجاسه وعناده الكبير استطاع أن يجد وقتاً لينغوص في بحر كنوز المخطوطات . ومن هناك جذبت جواهر كثيرة . ورأيت في الفهرس فجأة أنه قد ذكر مع الآثار القديمة في جامع رضا باشا ، بروميلي حصار ، عنواناً حملياً على أن أنسى كل ما خلاه . والعنوان يقول : « تحفة أولى الألباب في أخبار بلاد روسيا للشيوخ محمد عياد الطنطاوى كتبه بخطه سنة ١٨٥٠ م / ١٢٦٦ هـ وأهداه إلى السلطان عبد المجيد » . ولم يكن لدى أية معلومات عن هذا المؤلف في موادى العلمية ولم يكن تصورى لماهية هذا المخطوط إلا من قبيل التخمين . وكان أسرع ما ورد على خاطرى هو أنه وصف جغرافى عادى . ولم أصدق تماماً أن المخطوط هو بخط الطنطاوى فعلاً . وخشيت أن يكون ثمة شيء من سوء الفهم . لكن اسم الطنطاوى مذكور في العنوان . ولم أعرف الهدوء ولا الراحة وكان على أن أنتظر مدة طويلة . وأخيراً في ١٩٢٧ سمحت لى العلاقات

الدولية آنذاك أن أتسلم نسخة من المخطوط . وكان الحكم الذى خرجت به بناء على الخط الذى كتب به هو أن المخطوط منقول أو منسوخ بواسطة تركى لا يحسن معرفة اللغة العربية ولم يكن ناجحاً دائماً فى فهم الأصل وبخاصة فيما يتعلق بالأسماء الروسية الصعبة أو المعقدة . لكن لم يبق أى شك فى أن المخطوط يرجع إلى الشيخ الطنطاوى . وأخذت عيني تنتقلا بانفعال على الصفحات ولم أستطع أن أفارقها شاعراً فوراً بأن هذا المخطوط هو أحسن مؤلفات الشيخ الطنطاوى . إلى جانب أنه قريب جداً لأنفسنا نحن الروسين . فهو يعكس بروعة طبيعة الطنطاوى المتطلعة واستجابته لكل مظاهر حياتنا كما يعكس نظراته الدقيقة ومزاجه اللطيف الخير . ولم يكن المخطوط إذن وصفاً جغرافياً عادياً كما تخيلته من العنوان ، أو بمعنى أدق لم يكن المخطوط مجرد وصف جغرافى . ففيه وصف الشيخ الطنطاوى بالتفصيل رحلته من القاهرة إلى بطرسبورغ متذكراً كذلك رحلته إلى وطنه سنة ١٨٤٤ . وتحدث بالتفصيل أيضاً عن انطباعاته عن روسيا والروسين مدة العشرة الأعوام الأولى من إقامته فى روسيا . وتحدث عن أسفاره فى العطلات إلى بلاد بحر البلطيق وفنلنده . وقد شرح لأهل وطنه بالتفصيل تاريخ روسيا فى العصر الحديث ورسم خريطة لمدينة بطرسبورغ فى عصره . كل هذا بإشارات حية ناصعة هى الآن بالنسبة لنا لا نقدر بثمن كما فى السابق . ولقد أسعدنى أن مخطوطاً آخر للطنطاوى أصبح معروفاً للعلم ولأهل عشيرته . على أننى ما أن انتهيت من الدراسة الجيدة لنسخة مخطوط استامبول حتى وهبى القدر مفاجأة أخرى مفرحة

ففى بداية خريف ١٩٢٨ دخل على ذات مرة تلميذى الموهوب الناشئ المتخصص فى الدراسات السامية الذى انطلقاً سراجاً مبكراً إذ حملته معها سنة ١٩٤٢ القاسية . وكان دائماً هادئاً ثابت الطباع وغالباً ما كان يزورنى حاملاً مختلف الأسئلة العلمية . ولكن فى هذه المرة شعرت فوراً أنه لم يأت من أجل مسألة بسيطة . ووجدته يمد يده إلى فى هدوء عادى بمخطوط غلافه من الورق المقوى العادى ثم قال موضحاً : « هاك ، وجدت هذا عند بائع كتب قديمة فى شارع ليتنى ويبدو أنه يتعلق بالجغرافيا . فقد تجدون فيه شيئاً ممتعاً لكم » . وما فتحت المخطوط حتى ذهلت . فلقد رأيت أمامى خط الطنطاوى فى نهاية العقد الخامس من القرن التاسع عشر وهو الخط المعروف لدى جيداً . ونظرت بانفعال فى الصفحة

الآخيرة منه فذهلت مرة أخرى : إن ما في يدي هو ذلك المخطوط الذي كتبه الطنطاوى بنفسه عن « وصف روسيا » وهذا المخطوط الذي في يدي هو المسودة . وبه تصحيحات وإضافات كثيرة جداً بخط المؤلف نفسه . وبالنسبة فإن صديق الشاب عرف جيداً أى كنز ثمين جمعه إلى ، لكنه لم يرد أن يحرم نفسه من الاستمتاع برؤية كيفية استجابتى إلى هذا المخطوط . وعندما تطلعت إلى الغلاف فهمت للتو كيف وقع المخطوط عند ذلك البائع للكتب القديمة . فعلى الغلاف مطبوع بالحروف اللاتينية I.N. « ا . ن . » وهو اختصار اسم إيريني نوفل ، وهو عربى من طرابلس كان خليفة الطنطاوى فى التدريس بالقسم التعليمى للغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية . وفى بداية القرن العشرين ذهبت مكتبة نوفل أدراج الرياح بفضل أبنائه الطائشين . وغالباً ما كان حطام هذه المكتبة — المأسوف عليها — يطفو فى أوقات مختلفة على سطح بحر السكيب فى بطرسبورغ وليفينغراد .

إن هذين المخطوطين المكتشفين — أحسن مؤلفات الطنطاوى — ليعطيان الآن إمكانيات كاملة لنشره وترجمته بطريقة جيدة . لكن هنا بدأ القدر قاسياً فكلما تليذى اللذان أخذنا على عاتقهما هذا العمل أحدهما بعد الآخر ماتا مبكرين قبل أن يصل العمل إلى نهايته . وما يعرفه العرب والروس حتى الآن عن مخطوط « وصف روسيا » هو فقط من مقالات صغيرة ومن الملخص العربى .

وإذا كانت نهاية حياة الطنطاوى قد اتضحت لى فى ختام دراستى له فقد تم ذلك أيضاً بفضل المخطوطات . فلقد عرفت من وثائق رسمية أنه من أيلول (سبتمبر) ١٨٥٥ — « عانى من شلل أصاب أطرافه السفلية » حسب تعبير اللغة الطبية الرسمية . أما ماذا عمل هو فى السنوات الخمس أو الست الأخيرة من حياته فقد كان من الصعب على تصويره .

وهنا ساعدتنى المصادفة من جديد . فقد كان وما زال فى كل مكتبة كبيرة ، قديماً وحديثاً ، عاملون غير ظاهرين ، كأنما فقدوا تماماً معالم الشخصية . وانصهروا مع المكتبة ، ومع تلك الأعمال التى تنشأ فيها . هم أنفسهم ليسوا مبدعين أو خلاقين ، بل ومن النادر أن يشغلوا بموضوعات علمية خاصة بهم . لكنهم

يعيشون في اهتمامات الآخرين كوحدة عضوية معها . وهم جد ضروريين للعلماء .
فجدونهم لا يمكن أحياناً أن تتم بعض الموضوعات أو تكتمل دراستها بطريقة
حسنة . كان أحد هؤلاء العاملين شاباً ولكنه غير طموح بسبب تشبعه بروح
المكتبة . وهناك على المنضدة لدى خزائن المخطوطات حيث كنت انجز دراستي
عن الشيخ الطنطاوى ، حمل إلى كوما من الأوراق الكبيرة المكتوبة التي ترجع
إلى منتصف القرن التاسع عشر . وهي مملوءة تماماً بسطور عربية وروسية متداخلة
مع بعضها . ولم تكن هذه الأوراق مسجلة في أى سجل . وكانت ملقاة في أسفل
خزانة من خزائن المكتبة حيث اكتشفها هذا المستخدم ذو الروح الخيرة نحوى .
والذى شعر بالفرصة أن لهذه الأوراق علاقة ما بشيخى الطنطاوى .

لم أستمع في البداية فهم أى شيء . فسكومة الأوراق تتضمن ما لا يقل مائة
ونخسين ورقة مملئة بخطوط كتلك التي يجب أن يرسمها الأطفال أحياناً على مساحة
بيضاء خالية أو كنخط مكسر غير واضح لشخص راشد يحاول أن يتعلم الكتابة
وبعد أن قمت بترتيب الأوراق حسب شكلها الخارجى وحسب أرقام الصفحات
التي وجدت على بعضها . بدأت أفهم حقيقة الأمر . وعلى الفور أصبح هذا الأمر
شيئاً مريباً . فقد بدا أن الأوراق تتضمن جميع الموضوعات القريبة إلى الطنطاوى ،
وهي تتضمن مجموعة أمثال باللغة العصرية ونماذج من التحايا والأغاني العامة
ومواد مختلفة عن البلاغة والنحو والألفاظ العربية . لكن كان من الواضح أن كل
هذا كان مكتوباً بعد أن أخذ ، شلل رجليه ، ينتشر إلى يديه . وكان من المؤلم للمرء
أن يرى كيف أن صاحب هذه اليد كان بالتدريج يتزايد صراعه في حربه مع
الكتابة . فلم يطاوعه لا القلم ولا الريشة . وكانا يخرجان الورقة عند كل حركة
في أثناء الكتابة . وكانت يده تحاول أن تحسن كتابة الحرف العربى أو الروسى
وفجأة تنقبض يده مرتعشة فيجرى منه القلم على ما يقرب من الصفحة كلها . كانت
المادة كلها حقاً حية وممتعة . ولكن إذا كنت قد فهمت الصفحات الأولى بصعوبة
فإن فهم ما بعد ذلك أخذ يتزايد سوءاً . فأحياناً كانت الحروف تلتحم معاً في صورة
خط اختزالى أو ما يذكر بكتابة الأعشى الذى سلبت له في يده عصاً يغمسها
فى لون للصباغة ليكتب بها . وهكذا استمر الأمر على عشرات الأوراق . وهذه



الشيخ محمد عياد الطنطاوى (١٢٢٥ - ١٢٧٨ هـ ١٨١٠ - ١٨٦١ م) .



رخامة على ضريح الشيخ محمد عياد الطنطاوي في مقبرة فولكوفو الاسلامية
في لينينغراد .

السطور توضح ببلاغة وبفطاعة أيضاً كيف أن الطنطاوى كان يحاول بإصرار أن يمسك بالسراب لأداء عمل عقل لم تمكنه منه يده الهامدة وهو الرجل ذو الطبيعة الحية التي لا تعرف التقهقر أو الاستسلام . ولو أنه وجد موضوع لرواية عن الطنطاوى في قصص المعاصرين فإن هذه الأوراق تتحدث عن مأساة قاسية لانطفاء حياته . وفي آخر فصول هذه المأساة ينسدل الستار على موت البطل محترقا بنار شريرة من التسمم الدموى . وهكذا فتحت المخطوطات لى كل فصول مأساة تلك الحياة التي بدأت في قرية مصرية صغيرة ، وفتحت في المراكز العلمية العربية في طنطا والقباهرة ، ثم عبرت إلى عاصمة روسيا سانت بطرسبورغ وانتهت في قبر ذي شهادة ، هناك في مقبرة فولكوفو .

وخرج كتابي عن الشيخ الطنطاوى في بداية ١٩٣٠ ولم يعجب الكتاب الجميع لسبب ما ، ولكن أفرحني أن المستعربين والعرب ، وبخاصة أهل وطن الشيخ ، قد قدروه وتحذثوا عنه بكلمات حارة . وقد قاسيت كثيراً عندما كنت أولف هذا الكتاب . وحتى هذه اللحظة عندما أسأل عن أعماله أعتبرها أثراً جديراً في العلم فإنني أشير دائماً إلى أربعة كتب أولها عن شاعر دمشق المرح الذي كان منادياً في سوق الفواكه . وثانيها هو عن أهجية دقيقة للحكيم الأعمى الشاعر والفيلسوف السوري . وثالثها عن بديع الشعر الذي ألفه أمير وشاعر وعالم لغوي رقيق كان لسوء حظه خليفة بغداد لمدة يوم واحد . وآخرها هو عن الشيخ المصري الأستاذ في بطرسبورغ . لكن يبدو لي أحياناً أنني أحب بالذات الكتاب الأخير وأفضله على الجميع . وغالباً ما كنت أفتحه لأتطلع إلى صورة ذلك الشخص الذي يدور حوله الحديث في الكتاب .

٤ - الأندلس وإلينيونجراد

(١٩٠٥ - ١٩٤٢)

إن المستعرب الناشئ الذي يريد أن يقتحم حقل غمار العلم ، يقف أمامه طريق معقد متعرج أحيانا . فلا بد لهذا المستعرب ، قبل كل شيء ، أن يسيطر على أدوات ووسائل مختلفة للعمل . ولعل في الصف الأول منها معرفة اللغات الأوروبية . ومع تقدم العلم يتزايد عدد اللغات اللازمة له . فقد انتهت إلى الأبد تلك الفترة من القرن الثامن عشر التي كان يستطيع فيها العالم أن يجد نفسه في نطاق اللغة اللاتينية . والآن وفي الخطوات الأولى فإن هذا المستعرب الناشئ يدرك أنه لكي يستفيد من المراجع الأساسية الضرورية ، عليه أن يعرف لغات ثلاث ، هي الإنجليزية والفرنسية والألمانية بل ولا بد أن تضاف لغة رابعة هي الإيطالية . فالدراسات الاستعرابية باللغة الإيطالية صارت في الصف الأول من العلم العالمي منذ النصف الثاني من القرن ١٩ ، وعلاقة أسبانيا مع العالم العربي واضحة للمستعرب من التاريخ المدرسي للقرون الوسطى لكنه يعرف حاليا أن المجموعة المتهاكمة للمستعربين الأسبان خلقت مدرسة جديدة منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وأن كثيراً من المسائل لا يمكن استيضاحها بدون الرجوع إلى أعمالهم . وعندما يقرر هذا المستعرب الناشئ أن يتعمق في مجال الدراسات الإسلامية الخاصة فإنه سرعان ما يسمع أن أحسن محاضرات في الفقه الإسلامي مطبوع باللغة الهولندية ، وكذلك في كثير من الأعمال العلمية الأساسية عن التاريخ الداخلي للإسلام . وأن المدرستين الأصليتين الممتعتين اللتين خلقهما المستعربون من السويد والدانمارك تحملانه على أن يعرف اللغات الاسكندنافية . وعليه أن يعتبرها مصادقة سعيدة له أن المستشرق المجري الكبير من الجيل السابق والمتخصص في الصناعات الإسلامية ، طبعت أكثر أعماله بالألمانية . والعلماء الفنلنديون يستعملون كثيراً اللغة السويدية ولغات أخرى أكثر سهولة . لكن هذا لا يكفي . فمن المخجل للمستعرب الروسي ألا يعرف الدراسات التي في اختصاصه والتي كتبت باللغات السلافية : فعليه قبل كل شيء أن يتعرف بالتراث التشيكي في كثير من العصور وأن

يتعرف على العلم البولندي الجديد الذي تمكن بقوة من تطوير علمه الاستشراقي بعد الحرب العالمية الأولى في سلاسل الكتب وبعض المطبوعات الدورية . ويجب عليه أن يعرف أنه توجد باللغة الصربية كتب كثيرة تتعلق بدخول الكتابة العربية إلى البوسنة والهرسك ، بل وأزه خلال عشرات الأعوام الأخيرة صدرت أعمال علمية كثيرة تتناول مسائل عامة في الاستعراب . ومن المفيد له أحياناً أن يعرف اللغة البلغارية ، بل واللغة الأوكرانية ليجد صورة حية عن العالم الإسلامي المعاصر ترجع إلى متخصص أوكراني كبير* . ويجد أيضاً بهذه اللغة ما لعله أحسن ما كتب في الأدب الفني وأعنى بهذا قصص بروتية ، و أغاني لبنان .

وهكذا تنسج قائمة اللغات الضرورية له أكثر فأكثر . ولو أن هذه القائمة فتحت كلها دفعة واحدة فقد تبدو شيئاً مخيفاً مرعباً ، ولكن الإنسان في تدرج حركة حياته يسيطر عليها دون أن يشعر بها هو نفسه .

ومفهوم المستعرب ذلك الخوف الذي تظاهر به المستشرق الهولندي المشهور سنوك هيورغرونيه — الذي سبق له أن زار مكة في صورة خفية سرية — عندما كتب إلى روزن في نهاية العقد العاشر من القرن الماضي من مدينة باتافيا في جزيرة جاوة يشكره بتهكم على إرساله المجلد الدوري لدراسات الشعبة الشرقية للجمع الروسي للآثار القديمة ، التي كانت تخرج دائماً في طبعة روسية فقط .

وقال أنه يترتب عن قريب على المستشرق الناشئ الذي يريد كتابة رسالة إلياجيستر أن يتعلم ٢٤ لغة تلزمه للتعلم في إختصاصه ، ولن تكون الروسية أو الهولندية من بينها فحسب ، بل وحتى لغة الملايو وأهل جاوة . ولحسن الحظ أنه ظهر أن كل هذا ليس في الحقيقة شيئاً مرعباً إلى هذا الحد وأن وزن مختلف اللغات ليس متكافئاً في مجال الاستعراب ، وليست الحاجة إلى كل هذه اللغات في درجة متساوية فيما يتعلق ببعض الموضوعات الخاصة القائمة بذاتها .

على أنه يكاد لا يوجد أي مستعرب أيا كان عمله المباشر لم ينجذب بقوة

* هو ١ . كريمسكي مستعرب ومستشرق فارسي وتركي .

إلى جرس كلمة «الاندلس» بالذات . وهو الاسم الذى أطلقه العرب على أسبانيا . ولا يوجد المستعرب الذى لم يتعرف دراسات دوزى الكلاسيكية لمقعدة بالرومانتيكية عن مسلمى الأندلس ، ومع أن هذه الدراسات قد ولى زمنها بعض الشيء فإن جمال فنها لم يذبل . ولم يتغير رنين نغمها الذى كان يناسب أسلوب منتصف القرن التاسع عشر . وأن أى مستعرب فى أية فترة من نموه العلمى ليشعر بنفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب (كما تسمى مجموعة أشعار مشهورة من القرن السابع عشر عن أسبانيا العربية) .

وأن أى مستعرب ليطير غفويًا إلى ما وراء جبال البيرينه لا بأفكاره نجيب بل وبشعوره أيضاً . وليس من قبيل المصادفة أن روزن عند إعداد كتاب القراءة — الذى لم تقتصر شهرته علينا — خصص جزءاً منه للشعر العربى الأسبانى ولم يستطع أن يقاوم رغبته فى نظم بعض الأبيات على وزن أشعاره فى الرثاء موجودة فى الكتاب كان قد ألفها شاعر وفارس عربى قديم فى الأندلس .

إلا أن الطريق من أسبانيا العربية إلى المستعربين الأسبان طويلاً ومتعرجة أحياناً . ولا مدعاة للعجب من أن جهود الاستعراب الأسبانى ظلت فى كثير من الأحوال محجوبة عن نظر العلم الأوروبى حتى الأزمان الأخيرة . وبهذا الخصوص كان حظى سعيداً . فقد سرنى أن امتداد الخط الأندلسى ، لاهتماماتى العلمية لم ينقطع مدة تقرب من أربعين عاماً . وعن طريق الكتب والمخطوطات نفسها تعرفت على المستعربين الأسبان ، ومنذ وقت مبكر أضيفت إلى هذه الكتب والمخطوطات مخطوطات أخرى هامة معاصرة وأعنى بها الخطابات والمراسلات التى انتعشت بالتدريج بصورة أصحابها . ولكن الأقدار شامت ألا أرى شخصياً أحداً منهم . وقادنى الطريق إلى الهدف ببطء .

عاش الاستعراب الأسبانى مدة طويلة فى ضربة كوكب نحس : ذلك أن حكم دوزى على بعض مثليه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان حكماً قاسياً وإن يكن عادلاً . وقد امتد هذا الحكم بقوة سمعة دوزى لينتشر بصورة مشؤومة على جميع الأعمال الجديدة باللغة الأسبانية . وكف الجميع عن قراءتها

إلا أنه قد وجدت لحسن الحظ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جهود صحيحة للجيلين من المستعربين المتحمسين عملوا بإصرار وتسلسل دون خوف من العناء ودون أى اعتراف بهم تقريبا في وطنهم ودون أن يحس بهم باقى أوروبا .
سوفى بداية القرن العشرين تغيرت الصور تماما وإن ظلت الجهود الأسبانية محجوبة عن الاستعراب في البلاد الأخرى وحملتني المصادفة على أن أفكر في هذا .

ففي عام ١٩٠٦ عندما كنت أستعد لطبع أو استعراض للكتب الاستعرابية الجديدة التي تتعلق ببعض المسائل الخاصة ، التقيت في مكتبة الجامعة بمصادفة بمجموعة تذكارية كبيرة . كانت قد طبعت قبل عامين تكريما لفرانسيسكو كوديرا . وكانت المجموعة لا تتضمن سوى مقالة واحدة ضرورية لذلك الاستعراض الذى كان مهما لى آنذاك . لكنني دهشت بالمجلد الرائع المطبوع فيما يقرب من ٧٠٠ صفحة . وكان مجرد ظهوره شرفا لا للدينة الأسبانية الإقليمية سرقسطة لحسب بل ولكل مركز استشرافى فى أوروبا . وإن عدد المشتركين الأسبان فى هذه المجموعة التذكارية والذين كتبوا عن موضوعات استعرابية ليشير وحده إلى جدية تلك المدرسة التى تكونت ، وكان أول ما أوحى إلى قائمة أعمال المحتفى به وصورته فى المجلد شعورا بمثابة هذا العامل العنيد ، الذى استطاع أن يجمع فى وثام ، بين كونه مؤرخا ومتخصصا فى النقود القديمة ، وبين كونه مهندسا زراعيا ، وبين تأميسه للطبعة عربية صغيرة فى مكتبه حيث كان عمال جمع الحروف هو نفسه مع من علمهم من تلاميذه المستعربين .

ولكن ظهر أن هذا الانطباع الذى أوحاه هذا المجلد كان انطبعا عابرا . ولعل هذا المجلد لم يكن ليبقى أثرا ملحوظا فى نفسى لو لم تسانده تأثيرات أخرى آتية من جانب آخر .

وكان على الاستعراض الذى كنت أقوم به أن يمر عبر يدي روزن فالتقى لفوره نظرة حادة على مقالة من المجلد الصادر تكريما لكوديرا ، وبحبويته المعهودة وبتعجب سألنى وكأنه منذهل : من أين عرفت هذا المجلد ؟ ، وكان

يجب على أن أعترف بأنني لقيته مصادفة في مكتبة الجامعة . وهذا عظيم
ولعلكم أيضاً تعلمون اللغة الأسبانية بالمصادفة في وقت ما ، وإنه لمن التوافق أن
عالمنا المتخصص في الدراسات الأسبانية يتعلم الآن عندي القواعد العربية .
ودار الحديث عن د . ك . بتروف المتخصص في الدراسات الرومانية ذي الشهرة
الكبيرة في ذلك الوقت ، الذي لم يخش أن يدخل في تعلم اللغة العربية مباشرة .
ومنذ تلك اللحظة ، كان روزن بحيويته المعروفة عنه ، يقاسم الأفكار عن حركة
عمل تليذه الجديد . وعرفت من روزن لأول مرة كتاب القراءة لليرتشنوندي
وسيمونيت الذي لا غنى عنه لأي مستعرب إسباني . وفي صيف عام ١٩٠٧
سافر د . ك . بتروف إلى الأستاذ زايبولد في مدينة تيوبينغن ، وكان
المستعرب الوحيد في ألمانيا العارف عن كتب المسائل الأسبانية . وكان في وقت
ما أمينا لدون بيدرو البرازيلي وقد قاما معا بترجمة « ألف ليلة وليلة » إلى اللغة
البرتغالية . على أن روزن لم يستلطف تماماً كون زايبولد قد حمل بفروذه بتروف
على أن يقوم بنشر « طوق الحمامة » وهو كتاب مشهور عن « العشق والعشاق »
للأديب العربي الأسباني ابن حزم من القرن الحادي عشر . واعتبر روزن أن
القيام بمثل هذا العمل على أساس مخطوط ليدن الوحيد هو عمل شديد الصعوبة
على مستعرب ناشئ .

وفي ١٩٠٨ مات روزن . ورحلت إلى الشرق . وهناك أيضاً توالى على
الانطباعات الأسبانية من جانب جديد . في ذلك الوقت عرفت لأول مرة أن
في البرازيل وفي أمريكا الجنوبية عامة جالية عربية ضخمة جداً وأن كثيراً من
العرب المقيمين هناك ظهروا كشعراء وغالباً ما يكتبون باللغة الأسبانية أو البرتغالية .
وقد حدث أن التقيت بكثير من اللبنانيين الذين كانوا هناك والذين يسيطرون
بطلاقة تامة على هذه اللغة أو تلك . كل هذا جذبني أيضاً إلى الأندلس . وفي النهاية
عطت عودتي إلى روسيا شكلاً واضحاً لهذه الرغبات الغامضة .

وكان بتروف المتخصص في الدراسات الأسبانية يواصل إعداد نشر طبعته
تلك عن ابن حزم . وبعد قليل وصلت أوراق تجارب الطبع . وباهتمام أسهمت
بدوري في هذا العمل . وكانت تحت أيدينا صور فوتوغرافية لمخطوط ليدن الفريد .

. وخلال تطلعي إلى سطور ه باهتمام ، دخلت تدريجياً حياة الأندلس وأذواقها الأدبية ، بصورة أعمق مما استطعت أن أحصل عليه من صفحات مؤلفات دوزي بفنيتها المجلوبة وبما يكسوها من الضباب الرقيق لرومانتيكية القرن التاسع عشر . وأخذت أسيطر على « وسائل العمل » شيئاً فشيئاً ، وبصورة طبيعية تطور نظام التبادل التعليمي بيني وبين بتروف . فقد بدأ يحضر لسماع دروسى الخاصة عن الشعر العربى حيث غالباً ما كان يشكل نصف المستمعين فى حجرة التدريس . وبالنسبة لنا نحن المستعربين فإن قلة عدد المستمعين لم تكن شيئاً غريباً . ودرسنا بحرارة شديدة المنتخبات الشعرية المشهورة « ديوان الحماسة » لآبى تمام من القرن التاسع ، ودرسنا بتأثر « المرائى » العربية القديمة . وحاولت ألا تفوتى محاضرات بتروف التى اتصل بأسبانيا ، ومع بعض المتخصصين الناشئين فى الدراسات الرومانية دخلت اللغة الأسبانية القديمة دارساً « التاريخ العام » — وهو تاريخ العالم أجمع لآلفونس العالم ، المشهور بصفة خاصة فى تاريخ الثقافة العربية الأسبانية — أو غارقاً فى دراسة المراجع العربية والأسبانية التى تتعلق بتاريخ الفتح العربى لأسبانيا والذى تحدث عنه بتروف فى دروسه . وهنا ، وفى نهاية نصف السنة الدراسية كانت قاعة المحاضرة تتشكل أيضاً من شخصين وكان الثانى رفيق الأصغر الذى كتب فى ذلك الوقت رسالة ماجيستر عن تاريخ الشرق ، والذى صار فيما بعد أحد منظمى الاستشراق البولونى بعد الحرب العالمية الأولى . وقد مات فى أعوام الشباب ، وكان أستاذاً بجامعة لفوف . ورويداً رويداً اتسعت دائرة « التبادل التعليمى » فقد أخذ يأتى إلى دروسى الأولى فى اللغة العربية مستمعون نشيطون من المتخصصين الناشئين فى الدراسات الرومانية من تلاميذ بتروف . وكنت أحضر بانتظام دروس اللغة البرتغالية التى كان يقوم بتدريسها فى الجامعة أحد هؤلاء التلاميذ . وفتحت آنذاك أمام عيني ولأول مرة الموهبة الأصيلة لعيسى دى كيروش . وقد جعلتنى بعض أعماله أطيّر بفكرى إلى الشرق العربى بمثل قصص « أيركولانو » التاريخية التى صورت عصر ازدهار الثقافة العربية فى أسبانيا . وهكذا ارتبط الأدب العربى القديم فى دروسى ، كوحدة عضوية مع الأدب المعاصر الأسبانى والبرتغالى كليهما . وكلا الاتجاهين ساعد كل منهما الآخر وأوضحا أشياء كثيرة كانت ستبقى محجوبة لو سرت فى اتجاه دون الآخر .

وفي عام ١٩١٩ عندما أنشئت دار طبع ونشر «الأدب العالمي» التي أسسها مكسيم غوركى، والتي لعبت دوراً ثقافياً كبيراً، شعرنا نحن «الشرقيين» بتلك الصلة التي لا تنقطع بين الشرق والغرب. شعرنا بها حية تماماً. وكان شغفنا بالقسم الغربى لمجلس دار الطبع والنشر لا يقل عن شغفنا بقسمنا الشرقى. وهناك كنا لا نعتر أنفسنا ضيوفاً وإنما أعضاء عاملين.

وقد قمت عن شغف بتحرير ترجمة لقصة فلسفية لابن طفيل ترتبط بالاندلس والتي أراد البعض أحياناً أن يرى فيها جد روبنسون كروزو. وبحسب لا يقل عن هذا، اشتركت فى عمل جاد عن ترجمة قصة أسبانية من عصر الموريسكيين هنريكة لاريت. ورغم جميع الصعوبات التي كانت تعانيها العلاقات الدولية في ذلك الوقت، ابتدأت تصلى بالتدريج أعمال المستعربين الأسبان الذين فتحوا أمام عيني عالماً جديداً وضاء لا تعرف عنه أوروبا إلا قليلاً.

وأصبح معروفاً لدى — ولو بعد تأخير كبير — ذلك العمل العلمى الجرى. الموهوب الذى ظهر سنة ١٩١٩ عن تأثر «الكوميديا الإلهية» لدانتى بالغيبيات الإسلامية. وقد استدعى هذا العمل ما يقرب من مائة تقرير في كل العالم. وفي هذا الكتاب تحدث المؤلف فيما تحدث عن خصائص «رسالة الغفران». لمحجوبى أبى العلاء. وقد استجبت على هذا بمقالة حاولت أن أعرض فيها إلى أن مؤلف الكتاب عبثاً يرى في هذه الرسالة الساخرة الرقيقة والممتعة عن التصورات الإسلامية للحياة الآخرة — مجرد قصة المعراج (للنبي محمد).

وقد تسربت إلى الخارج وبطرق مجهولة إشاعات عن اهتمامى بالموضوعات العربية الأسبانية. فتلقيت في نهاية عام ١٩٢٦ رسالة من محرر غير معروف لدى شخصياً هو محرر المجلة العالمية "Litteris"، التي كانت تطبع في السويد، وتختص بتحليل الأعمال الرائعة الصادرة بجميع اللغات الأوروبية في مجال العلوم الإنسانية.

وكان المحرر يطلب منى أن أرسل إليه تقريراً عن الكتاب الذى ظهر لتوه. لمستعرب أسباني ناشئ عن أحد مصادر قصة ابن طفيل، ويعتذر لى عن توجهه إلى، إلا أنه يضيف أنه لا يعرف مستعربين في أوروبا يتتبعون الدراسات.

التي كتبت باللغة الإسبانية . وفي ذلك الوقت لم يكن يتروف بين الأحياء . وكان هذا الكتاب معروفاً لدى تبعاً لشغفي آنذاك بهذا الموضوع . وقد أثار في نفسي انطباعاً عظيماً . وشعرت فوراً بتلك الموهبة الكبيرة في هذا العمل الذي لعله أول عمل لهذا العالم الناشئ . وبكثير من طيبة خاطر ، كتبت المقالة المطلوبة . وفي عام ١٩٢٩ تسلمت طلباً بمائلاً بخصوص عمل جديد قام به هذا المستعرب نفسه .

وفي تقريري هذه المرة لم يسعني إلا أن أدافع عن المؤلف الناشئ ضد ما استدعاه كتابه من هجوم بدأ لي غير عادل ، شنه رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق على العلم الإسباني عموماً . وعرفت بارتياح فيما بعد أن مثلي الصحافة العربية الجادة انحازوا إلى جانبي في هذه المناقشة العلمية الصغيرة الطارئة . على أنني لم أكن على خطأ في تحديدي موهبة ذلك المستعرب الناشئ العلمية . ذلك أنه سرعان ما حصل في مسابقة علمية صعبة على أحد كراسي الشرف الإسبانية الأولى من كراسي اللغة العربية : كرسى غرناطة .

وقد تلقيت رسالة جاء فيها أن تقريري لعباً بعض الدور في هذا ، وكان بمثابة جداً لي أنه أهداني في عام ١٩٣٤ عمله الجديد وفي بطاقة منفصلة في هذه الطبعة الجميلة ، إشارة إلى اسم غريب لعالم ما هناك في الشمال في لينينغراد ، لعله أثار انطباعاً غريباً لدى أهل وطن المؤلف في الأندلس .

هذا وقد ظهرت لي نتيجة أخرى مهمة جداً تتمثل في ارتباط صلتى تدريجياً مع العلم الإسباني . فمنذ تلك اللحظة صرت أتسلم كل جديد يخرج من الكتب الإسبانية يتعلق بالاستعراب . وكان مثل هذا السكرم مبعثاً لحيرتي في بعض الأحيان . وكانت الكتب تطبع عادة بطريقة عظيمة بل بطريقة نفخمة من وجهة نظر علمنا المتواضع .

ومن بين هذه الكتب وصلتني مراراً أبحاث ضخمة مثل ذلك العمل الذي خرج في أربعة أجزاء ضخمة عن أرشيف وثائق «المستعربين» في مدينة طليطلة .

(*) هي الطائفة المسيحية الإسبانية التي احتفظت دينها لكنها تكلمت العربية .

وبفضل ذلك الاهتمام الذي لم يتحول تسلمت ، عام ١٩٢٨ ، مجموعة مقالات في مجلدين لرئيس الاستعراب الإسباني في ذلك الوقت خوليان ريبييرا . وكان تلاميذه قد قاموا بطبع هذه المجموعة بمناسبة ذكرى مرور خمسين عاماً على أستاذه . وقد أعجبتني وأدهشتني هذه الهدية الجديدة بصورة لا تقل عن تلك المجموعة التي وقعت في يدي مصادفة قبل عشرين عاماً وهي المجموعة التذكارية الصادرة تكريماً لسكوديرا أستاذ ريبييرا . وفي هذا الكتاب الذي تسلمته أخيراً عن رئيس الاستعراب الإسباني ينفّج أمام القارئ لا التطور البالغ العبر لهذا العالم الكبير فحسب ، وإنما تنفتح أيضاً صورة خلاصة عن تطور الاستعراب الإسباني كله طيلة نصف قرن .

ولم أستطع أن أقف دون تأثر أمام الاستعراب الإسباني، وآلمني أن لا يكون حتى لدى المتخصصين في البلدان الأخرى إلا القليل من المعرفة عنه . وانتهزت فرصة بعض الفراغ في صيف ١٩٢٨ ، إذ استطعت قضاء شهرين في محافظة بولناتا على شاطئ نهر « بسلا » في بلدة بإسم رائع هو « جبل بوت » ، وهناك أعددت عرضاً مفصلاً عن مجموعة ريبييرا ذات المجلدين . ولم تستطع جدية الموضوع أن تحول بيني وبين دعاية صغيرة بإشارتي في نهايه مقالتي المطبوعة إلى اسم المكان الذي كتبتها فيه . وما يلتمس لي العذر في هذا أن روزن أيضاً سمح لنفسه بدعاية مماثلة . فقد كان قراء تقرّظ من أحسن تقاريظه ، يقفون أحياناً مختارين أماء كلمة « قلعة الجوع » وهو اسم المكان الذي كتب فيه تقرّظه . وكانوا يعرفون أنه لم يسبق له مطلقاً أن عاش في الشرق .

وقد عجز حتى المستعرب عن أن يخمن على الفور أن هذا الاسم ليس إلا ترجمة عربية مضبوطة للاسم الألماني لقرية « هو نغربورغ » حيث أمضى روزن الصيف في المنزل الريفي . فلنترك « كوه بوت » لا تحمل الآخرين على التفكير في الفرس أو الهند ، وليعلموا أنها ليست إلا التعبير الفارسي عن كلمة « جبل بوب » . وعندما كنت أولف باهتمام وشغف مقالتي التي كنت أحلم بأن أسدد بها بعض ما على من دين أمام الاستعراب الإسباني ، تذكرت هنالك في موقف « غوغولي » أن غوغول كتب في وقت ما عن الخليفة المأمون وأن لغوغول صفحات رائعة عن الثقة فا

العربية هي في الحقيقة صفحات فنان لا عالم . وعرفت فيما بعد أن مقالتي ترجمت
في أسبانيا إلى اللغة الأسبانية وازداد دعم الصلات بين مستعربي البلدين .
وبالطبع فإن تبادل المشاعر لم يكن يستمد وجوده من الكتب وحدها ،
وإذا كانت المخطوطات لعبت في هذه العلاقات دوراً أقل فذلك ، أغلب الظن ،
لأن في مجموعتنا آثاراً قليلة نسبياً من الأصول الأندلسية والمغربية . ولكن مخطوطنا
الفريد المعروف لابن قزمان غالباً ما كنت أقض مضجعه من أجل الرد على
استفسارات الأصدقاء الأسبانيين .

وكانت حيرتهم لا تقل عن حيرتنا بخصوص لوحة نحاسية مغربية مخزونة في
مجموعة لينينغراد . ولم يكن مفهوماً معناها آنذاك ، ثم قامت بنشر صورتها عامة
في علم خطوط الآثار القديمة^(٥) . ولم توجد لوحات مماثلة لها إلا في أسبانيا
لكنها بقيت في مستواها المفلز الغامض . وصارت تظهر بعض المخطوطات
التي لم تدرس من قبل في لينينغراد بفضل مسعى جديد المستعربين الأسبانيين .
فإن هؤلاء المستعربين الأسبان وضعوا بشجاعة في عام ١٩٣٣ بداية لتجربة
لم يشهدها من قبل تاريخ علمنا على نطاق واسع ، هي تأسيس مجلة خاصة بالاستعراب ،
وفي عمران المجلة ترن تلك الكلمة الساحرة ، الأندلس ، وكانت المجلة تتعلق بكل
الموضوعات الاستعرابية مع فهم واسع لها ومع اهتمام يميل بالطبع نحو أسبانيا
وبشمال أفريقيا . وكانت المجلة تطبع بطريقة منظمة ولطيفة وكانت صفحاتها المضيئة
مفتوحة دائماً أمام جميع العلماء من جميع القوميات ، وأمام المقالات المكتوبة
باللغات الأوروبية الأساسية . وسرعان ما صارت الكتب الخضراء له ، مجلة
الأندلس ، مجلة عالمية وأخذ يتوجه إليها المستعربون من جميع البلدان . وولدت
عندي بالتدريج فكرة عن تعريف الزملاء الغربيين في بعض مقالات متسلسلة .
بأهم مخطوطات مجموعتنا التي ترتبط مع الأندلس أو المغرب . وبدأت هذه
المقالات بمجموعة قريبة مني في مكتبة الجامعة هي مجموعة الشيخ الطنطاوي التي لم
تحرم من الأهمية في هذا المجال أيضاً .

(*) هي زوجة المؤلف الأستاذة كراتشكوفسكايا المتخصصة في هذا العلم بجامعة
لينينغراد .

وكانت أول مقالة هي عن كتاب أشعار مكتوب بخط مغربي عادي في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر وهو مخطوط تمتع بالنسبة لتاريخ الأدب في العالم العربي كله . وقد ضاعت بداية هذا المخطوط منذ وقت بعيد . ولهذا كان مؤلفه غير معروف . وبدأ لي أن هذا المخطوط فريد إلا أن مقالتي كانت دافعة لاكتشاف نسخة أخرى في مدينة « فاس » ، ولسكنه لم تظهر عنه معلومات أكثر من هذا فيما بعد . وقد حدثت للمقالة الثانية التي أعدها للعدد التالي من مجلة « الأندلس » ، مفاجأة ممتدة لها مشيلات كثيرات في حياتي كمستعرب . فقد كان أحد تلاميذي يواصل إعداد فهرس المخطوطات الذي كنت بدأت العمل فيه لمجموعة الطنطاوي نفسها فوجد صورة مختصرة لمؤلف كبير الأهمية لتاريخ الأدب الأندلسي . وفي رأيي أن هذا المخطوط كان فريداً بالنسبة للمجموعات الأوروبية .

ومؤلف هذا المخطوط قريب لي منذ وقت بعيد : فقد كان موظفاً كبيراً في الديوان في عصر المماليك بمصر ، وإلى جانب هذا وجد أيضاً وقتاً لأعماله الأدبية . وكنت قد اكتشفت في المكتبة الجامعية أيضاً مؤلفاً آخر له لم يكن معروفاً من قبل . ومن ذلك الوقت يرثى اسم ابن ممتق بصوت لطيف حان هو « ممتق » ، أي « أمي » ، وهو الاسم الذي أطلقه علي جد بن ممتق أطفال الشارع القاهريون الذين كان يطعمهم هذا الجد وقت المجاعة الشديدة التي نزلت بمصر . وكان وصفي لمخطوط ابن ممتق جاهزاً في ذلك الوقت الذي تسلمت فيه العدد الجديد من سلسلة الكتب الخضراء « مجلة الأندلس » ،

وكانت دهشتي شديدة عندما فتحت هذا العدد وعثرت فيه فوراً على مقالة لصديق الأسباني الناشئ الذي كان آنذاك أحد محرري المجلة . والمقالة هي عن وصف الصورة المختصرة لنفس ذلك المخطوط حسب مخطوط القاهرة الذي اعتبره كاتب المقالة مخطوطاً فريداً . وفقد مخطوطنا هالته ولسكن المقالة التي أعدها ظلت محتفظة بأهميتها فصدرت في العدد التالي من « مجلة الأندلس » ، سنة ١٩٣٥ . وقد أعددت مقالات أخرى للسلسلة التي قررت أن أواصل كتاباتها ، لكن سرعان ما اشتعلت الحرب في أسبانيا وتوقفت « مجلة الأندلس » عن الوصول إلى لينينغراد بل إن المجلة لم تعد تصدر بعد ذلك .

وبالطبع مازالت أفكارنا كسابق عهدها تتوجه إلى الأندلس . ويتضح
هذا من كتيب صغير هو « الثقافة العربية في أسبانيا » ، ومن مقالة عن الشاعر
العربي « البستاني » في الأندلس ومن كتاب كبير عن الشعر العربي في أسبانيا .
لكن كان الحزن يكتنف كتابتها وطبعها . ذلك لأنني عرفت أن الكتب ستبقى
غير معروفة لدى المستعربين الأوروبيين الذين قد يكونون أكثر الناس قرباً
وفهماً لها .

وإزداد حزني في ربيع ١٩٤٢ في لينينغراد المحاصرة ، عندما اكتشفت بين
منحدراتنا ترجمة حياة مجهولة لمؤلف كتاب أشعار « نفع الطيب من غصن
الأندلس الرطيب » . وتمثلت لي حياة تلك السعادة التي سيكون عليها محررو
« مجلة الأندلس » ، لو شاهدوا مقالة عن هذا المخطوط على صفحات مجلتهم ...
لكن لم الحزن ؟ إن كابوس الليل تزول آثاره مع خيوط الفجر . وستظل نفكر
في مجيء ذلك اليوم الذي يبدأ فيه من جديد جميع المستعربين الأسبان والروس .
عملهم المشترك في حقل بلا حدود هو حقل العلم الإنساني العالمي .

وسيجيء يوم تظهر فيه من جديد على مكتب المستعرب لينينغرادي ، سلسلة
الكتب الخضراء « مجلة الأندلس » ، قرة العين .

٦ - من سار على الدرب وصل

١ - لوحات برونزية صغيرة من بلاد ملكة سبأ

(١٩٣٠)

يفتغى المستعرب الجيل المعاصر ، من أول خطوات عمله الذائق أن يأخذ في الحسبان قانوناً ضرورياً هو قانون تصنيف العلم . وليس اليوم كالأمس . فلا يمكن له أن يتخصص في آن واحد في ثلاثة مجالات هي اللغة والأدب والتاريخ . ذلك أن كل مجال من هذه المجالات قد تطور واكتنز بمادة كبيرة إلى حد لا تكفي معه حياة الإنسان للسيطرة على هذه الثروة حتى ولو بالنسبة لمجال واحد منها . وبالإضافة إلى هذا التصنيف للعلم هناك اختصاصات جديدة وجديدة تكتسب بالتدرج وجوداً مستقلاً لها ولا يمكن للعالم أن يسطر عليها إلا إذا أعطاها كل حياته كاملة .

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ، وبفضل جهود الهولندي سنرك هيورغرونيه والمجري غولدميرر اكتمل تكون علم الاستشراق الإسلامي .

ويتطلب العمل الآن في مجال هذا العلم إعداداً جدياً طويلاً . وقد ابتدأت الدراسات الثانوية تحيا الواحدة تلو الأخر حياتها الخاصة في التاريخ ، وتمثل هذه الدراسات في علم خطوط الآثار القديمة ، وعلم الخطوط الأثرية ، وعلم النقود القديمة . وجميع هذه العلوم تتطلب السيطرة على مجموعة خاصة من المعارف اللازمة لها . وأخذ علم اللهجات منذ القرن العشرين ، يلعب دوراً مهماً في علم اللغة . وتلعب دراسة الأدب الحديث دوراً مهماً أيضاً في تاريخ الأدب وهي دراسة تستطيع أن تبتلع الإنسان تماماً إذا هو لم يرد أن يبقى هاوياً يلس الموضوعات المختلفة بالصدفة وبطريقة سطحية .

ومن بين الاختصاصات الضيقة المتعددة في الاستعراب ، انفصل منذ وقت بعيد ذلك الاختصاص الذي يمكن أن يسمى ، اصطلاحاً ، علم الدراسات السبئية .

وهذا يعنى دراسات اللغة والثقافة العربية القديمة فى الجنوب . وقد ارتبطت هذه الدراسات من حيث الزمن مع الشرق فى العصور الوسطى . الأمر الذى تتميز به المجالات الأخرى فى الاستعراب . فالفرق فى اللغة والحروف التى كانت أقرب إلى اللغة الحبشية منها إلى العربية نفسها ، وانعدام التأثير انعداماً تاماً تقريباً على الثقافة العربية الإسلامية تركا علم الدراسات السبئية إلى حوزة مؤرخى الشرق القديم أو علماء الاستشراق الحبشى . ومنذ نهاية القرن التاسع عشر نمت المادة العلمية فى ميدان الدراسات السبئية بسرعة كبيرة وذلك بفضل ظهور المطبوعات الجديدة التى نشرت الخطوط العربية الأثرية فى الجنوب . لكن لم تظهر فى هذا العلم الكتب التعليمية العادية : فلم يكن ثمة ، خلال مدة طويلة ، أى كتاب نحو أو قواعد .

وكتاب القراءة لم يظهر إلا فى العقد الرابع من هذا القرن بل لا يوجد حتى الآن أى معجم لغوى . وقد كانت أداة العمل الأساسية عادة فى هذا العلم . "Corpus" ، فهرس مجموعة الخطوط الأثرية باللغة السامية الذى يطبعه المجمع العلمى الفرنسى للخطوط الأثرية . وأخيراً ، أضيف فى السنوات الأخيرة إلى وسائل العمل فى هذا العلم "Répertoires" ، فهرس لكل ما طبع ونشر من الخطوط الأثرية العربية فى الجنوب ، وفيه إشارات إلى الأبحاث الهامة عن هذه الخطوط الأثرية . وظهر بالتدريج فى كل بلد تقريباً متخصص فى الدراسات السبئية وقد يقرب عددهم الآن من عشرة أشخاص فى العالم كله .

وكما يحدث غالباً فى العلم فإن أعظم العلماء لا يولدون دائماً فى أعظم البلاد . وحتى العقد الرابع من هذا القرن كان أعظم المتخصصين فى الدراسات السبئية من النمسا والدانمارك وبلجيكا وإيطاليا .

ولم يكن لدينا مطلقاً فى مجموعاتنا للآثار العربية القديمة فى الجنوب أية نماذج مهمة إلى هذا الحد أو ذاك . ولم يتسكن لدينا أى تراث فى هذه الناحية .

فقد كان مستعربونا مرتبطين دائماً مع الشرق الإسلامى أكثر من ارتباطهم

مع الشرق القديم أو مع الدراسات السامية . ولم تولد لديهم أية مبادرة من هذه الناحية أيضا .

ولم يكن يحمل أحيانا على التفكير في « العربية السعيدة » سوى تليجات غامضة من صدى الأساطير القديمة . لكن هذه التليجات لم تجد لنفسها إسناداً في مادة الآثار الحقيقية فذهبت دونما أثر إذ حجبها بالتدريج صور أقرب لنا من الثقافة العربية في عصر الخلافة .

هكذا كان الأمر معي أنا أيضا . وقد تمثل أُمّامي في سنوات التلذة بالمدرسة الثانوية وفي هالة من الرومانتيكية والغموض نموذج ملكة سبأ التي ذهبت في وقت ما إلى سليمان الحكيم لتختبر حكمته وتطلب منه حل بعض الألغاز .

وفيما بعد وجد هذا النموذج لنفسه قبسا من النور في قصة إسلامية عن الملكة بلقيس . وكنت قد عثرت على هذه القصة مصادفة في كتاب القراءة العربية الذي وقع في يدي عندما كنت في السنة الأولى بالجامعة . وقد مدت الدراسات الحبشية في تلك السنوات جسرا للعبور إلى جنوب الجزيرة العربية .

وعندما كنت أستعد لامتحان الماجيستر اعتبرت من المهم التعرف ولو قليلا مع كتاب خوميل للقراءة بلغة جنوب الجزيرة العربية المطبوعة بطريقة الليتوغراف . وكان هذا الكتاب هو المصدر الوحيد آنذاك .

ولم يكن هناك غداء جيد في حقل الدراسات السبئية . والتعويذة المعروفة من جنوب الجزيرة العربية وجدت في مجموعة ن . ب . ليخاتشيف المملوءة بمختلف العجائب . ولكن هذه التعويذة لا تتضمن إلا ستة رموز سبئية . وقد قمت بكتابة مقالة استهدفت منها اكتمال المعلومات بصورة أكثر من استهدافي اغناء المعرفة عن ثقافة جنوب الجزيرة العربية بصورة جدية .

وعندما كنت أطلع أحيانا في الصور أو الرسومات الأثرية المأخوذة في المتاحف الأوروبية لم أكن أفكر مطلقاً في أنه قد تأتي لحظة أفك فيها بنفسى رموز خطوط أثرية لم تقع في يد أحد من قبل ، وأن أحدد أهمية هذه الخطوط .

وقد حدث هذا في وقت متأخر جداً ، سنة ١٩٢٠ ، عندما نسيت كثيراً من المعرفة التي اكتسبتها أثناء استعدادي لرسالة الماجستير . ولم أكن أظن أن هذه المعرفة ستكون ضرورية في وقت ما لحل هذه المهمة غير المتوقعة .

وفي نهاية العقد الثالث من هذا القرن ارتبطت لأول مرة علاقاتنا الرسمية المباشرة مع اليمن . وكان مركز هذه العلاقات هو تمثيلنا التجاري في صنعاء العاصمة الحالية لليمن السعيدة .

وقد استدعت هذه العلاقات ظهور فيلم عن اليمن ، وظهور بضعة كتب صغيرة تحتوي وصف رحلات في هذه البلاد الغامضة فيما مضى والتي كان يصعب الوصول إليها . وإلى جانب هذا كان لهذه العلاقات بعض النتائج العلمية . لكنها لم تكن الأسف في ذلك الحجم الذي يريده المستعرب .

وقد قام الأشخاص ذوو التحصيل الاستشراقي الذين كانوا هناك لمقاصد خيرة بجمع مادة عن اللهجة اليمنية مبتدئين من الكلمات المفردة والأشكال النحوية حتى ألوان الحوار المتصلة . وجمعوا نصوصاً من الأدب الشعبي ، بل وحتى بعض القصص .

وقد جمعت كمية هائلة من هذه التسجيلات لكنها سجلت بدون سابق إعداد تخصصي ، وبدون معرفة لعلم اللهجات العربية ، وبدون المعرفة الأساسية لطرق التسجيلات المقررة في العلم . وظهر أن كل هذه المواد تقريباً ، هي بدون نتيجة للعلم وذلك لعدم إمكانية المراجعة الجدية لصحة هذه التسجيلات في أماكنها .

وهكذا كانت الصورة حزينة ، ومثلها كانت أيضاً تلك الصورة التي فتحتها الآثار القديمة ، التي اشتربت بكثرة من اليمن . ولا شك في أنه كان أكثر فائدة لو أن الذين سافروا إلى هنالك وضعوا لأنفسهم هدفاً يرمى إلى إكمال مجموعتنا الأثنوغرافية أو يرمى إلى شراء المخطوطات العربية التي كانت توجد هناك . عندئذ كان من المحتمل أن يكون الأسف أقل بدرجة كبيرة جداً . وواضح أن هواتنا لجمع الآثار القديمة لم يظنوا أنه تطورت في اليمن منذ وقت قديم حرفتها الخاصة

بتزييف الجديد حتى يبدو قديماً والأساس الذى يستند عليه هذا التزييف بصورة واسعة جداً هو الأساس التجارى .

ففى صنعاء نفسها بل وأكثر منها فى المدن الصغيرة والقرى المجاورة لها توجد بعض المحلات العجيبة للصناعة اليدوية . وفى هذه المحلات غالباً ما كان الصياغ أو الجواهرية أو النقاشون ، يقومون بتزييف الخطوط الأثرية على البرونز ، والحجر بحيث يصبح مشابهاً للتماثيل القديمة وللتعاويذ المختلفة . ولم يكن الإقبال على هذه التجارة فى صنعاء كبيراً ، لأنه كان يعيش هناك عدد صغير جداً من الأوروبيين . وإنما كانت هذه البضاعة تصدر بصورة أساسية فى صناديق كاملة على ظهور الجمال متوجهة بطريق القوافل إلى عدن حيث كان مهرة التجار يبيعونها بالمرفق للسفن العابرة للبحيطات التى ترسو بعدد كبير فى هذا الميناء .

وكان السياح من مختلف القوميات يقبلون بسعادة على شراء هذه الآثار الألفية من اليمن السعيدة ، بل وشكّلوا منها أحياناً مجموعات كبيرة أثناء عودتهم من رحلاتهم إلى الشرق الأقصى أو الهند أو حول العالم .

ولكنهم كانوا يصابون بخيبة أمل مريرة فى هذه المجموعات عندما يلقى أى متخصص نظرة عابرة عليها . ومع هذا ففن التزييف ما زال مزدهراً حتى الآن . وقد اشترى من هذا الإنتاج المزيف زبائن عابرون وكان بين المشتريين أبناء وطننا أيضاً .

ومنذ نهاية العقد الثالث بدأت تقع فى يدي عشرات من هذه الآثار بل وصناديق كاملة أحياناً . وكان أسنى هو على هؤلاء المواطنين الذين نقلوا إلى وطنهم أشياء حديثة ، متكبدين مصاعب وأموالاً كثيرة .

وكان ذلك مدعاة إلى تنمية تشاؤم قاس لدى ، فقد ابتدأت أتصور أن أى أجنبي عابر يسافر إلى اليمن فى القرن العشرين بدون استعداد تخصصى واستقصاء دقيق لن يجد أى شئ . ذا قيمة بالنسبة للعلم . إلا أننى وجدت ذات مرأى كنت مخطئاً .

ففي بداية عام ١٩٣٠ جامنى طبيب كثير الترحال ، أحضر بناء على طلب صديق له كان يعمل آنذاك فى تمثيلنا التجارى فى صنعاء ، لوحتين برونزيتين مكتوبتين بلغة جنوب الجزيرة العربية .

وكان من اللازم تحديد أهميتهما العلمية ووضعهما — فى حالة ثبوت أصالتهما — فى أنسب مجموعة لها من مجموعاتنا . ولعله يمكننى أن أميز التزييف على الفور إذا كان عاديا وغير دقيق وعندئذ يكون الأمر سهلا هينا .

أما بالنسبة لهاتين اللوحتين فقد ظهرت أمامى مشكلة كبيرة من الوهلة الأولى ، هى أنه إما أن يكون تزييفهما ممتازا وإما أنه ، لأول مرة طيلة هذه السنين ، وقع لدينا أثر حقيقى قديم من جنوب الجزيرة العربية . لكننى لم أصدق هذا الاحتمال الأخير مع أن اللوحتين لا تشابهان مطلقا من ناحية الشكل الخارجى مع كل ما رأيته حتى الآن من الآثار التى وصلت حديثا من اليمن . فالبرونز مخضر تماما وبعض الأماكن مغطاة بصدأ قديم شكله يذكر بالبرونز الصينى القديم والسطح الخارجى أيضاً بما عليه من رمل ملتصق كما لو كان يتحدث عن إقامة طويلة فى باطن الأرض .

وشكل الحروف بخطوطها الثابتة الرائعة يتميز تماماً عما وقع فى يدي من النماذج المزيفة . إلا أن حل هذه المسألة بناء على المعطيات الخارجية عملية فجأة جداً . وكان يلزم فى الدرجة الأولى تحليل وتفسير ما يتحدث عنه وكيف يتحدث . ومثل هذه العملية لم يحدث لى مطلقا أن قمت بها .

وكان دخول التجربة الأولى عملية مخيفة . وبالطبع كان من غير الممكن رفض القيام بها ، فهذا ما لا يسمح به شرف علمنا . وكان من غير المريح فى حقيقة الأمر أن نستمع إلى نصيحة بعض ممثلينا الذين أرادوا إرسال الخطوط إلى إيطاليا للتحقق من صحتها لعدم وجود متخصصين فى هذه الناحية لدينا . وهذه النصيحة عرفتها قبل أن أتسلم هاتين اللوحتين فى يدي ، لكنهما لم تكن مرضية لى إلى حد كبير . ولهذا دفعتنى بصفة خاصة إلى القيام بهذا العمل . وقررت ألا أتسرع ولا أنأثر قبل الألوان . وكانت إجابتى أن هاتين اللوحتين تبدوان لى ، من الانطباع الأول ، حقيقتين أصليتين لكن تحليلهما يتطلب بعض الوقت .

وكان من اللازم قبل كل شيء استيضاح ما إذا كانت توجد لوحات مماثلة لهاتين اللوحتين في المجموعات الأوروبية ، وإلى أية درجة تتفق هاتان اللوحتان مع هذه اللوحات المماثلة في المحتوى والمضمون . وكان من السهل العثور على اللوحات المماثلة ، بفضل فهرس مجموعات الخطوط الأثرية السامية (Corpus) المطبوع في باريس والموجود في مكتبتنا . وظهر أن اللوحات المعروفة حتى الآن هي أربع أو بمعنى أدق ثلاث ونصف ، لأن إحداها لا يوجد منها سوى النصف العلوى فقط . وأنه توجد إثنان منها في لندن وإثنان في فيينا . وهذا الواقع قوى تشككى . وكان من الصعب الافتراض أن مثل هاتين اللوحتين النادرتين استطاعتا أن تقعا بالصدفة في يد مشتر عابر . فإن تجمار الآثار القديمة الينيين يعرفون جيداً قيمة الآثار القديمة الحقيقية ، وكان يمكنهم أن يبيعوا هاتين اللوحتين بمزيد من الربح .

على أن الحل التدريجى لرموز النصوص لم يكشف لى عن شيء يمكن أن يشير إلى وجود تزوير . وأمكننى بسرعة أن أفسر معنى مضمون هاتين اللوحتين وذلك بفضل اللوحات المماثلة الموجودة في الفهرس . وهاتان اللوحتان كشيلاتهما من النماذج التى عرفت من قبل ، هما من اللوحات التى تعرف بما يسمى « بلوحات الاستغفار » التى كانت تعلق في المعابد وتتحدث للجميع عن تلك الذنوب التى ارتكبتها من قام بتعليقها .

ولما كان غالباً ما تتردد أسماء النساء فإنه أمكن الحكم بأنه من المحتمل أن المذنبات كن كاهنات في معابد جنوب جزيرة العرب . وأن ذنوبهن هي عادة أخطاء في القوانين أو الندور ، وأغلبها يتعلق بالمراسم والطقوس الدينية . على أن أسماء التائبات والمستغفرات (التى وردت في اللوحات) هي أسماء مختلفة ، أما المعبد فتغلب عليه تسمية واحدة .

وكان من الواضح أن أكثر هذه الخطوط يرجع في الأصل إلى مكان واحد . على أنه قد نشأت صعوبات عند تحليل هاتين اللوحتين ، لا سيما عندما صارت اللوحات المماثلة المعروفة لى غير كاملة وكافية . وبما حيرنى أنه ظهرت في اللوحتين أسماء آلهة وشخصيات مجهولة حتى الآن . ووجدت كلمات وتعبيرات غير معروفة

لدى أيضاً . ولم أكن أصدق تماماً أن هاتين اللوحتين اللتين ظهرتا عندنا تحملان ثروة كبيرة لمعلوماتنا لا من وجهة نظر ثقافتنا العامة فحسب . بل وتحملان أيضاً المعلومات الخاصة بمسائل محددة تتعلق بذخيرة الكلمات والأسماء الشخصية . ولقد اعتقدت أنه لما كانت قراءاتي عن الآثار باللغة السامية قليلة ، ولما كنت لم أحصل على هذه القراءات إلا في أثناء حركة عملي على اللوحتين ، لذلك فإن بعض الحقائق بقيت لي ببساطة غير معروفة .

وعندئذ قررت أن آخذ الأمر بطريقة مألوفة جيداً ، وأعني بها الروابط والصلات الدولية بين العلماء . وبدأت أتوجه إلى متخصصين كبيرين في النمسا واندانمارك من أجل الاستفسار عن الأسئلة التي تواجهني . كان أولهما قد تعرفت به عن طريق المراسلة . وقد اشتغل كثيراً بالشعر العربي في أعوام شبابه ، وقبل أن يتركز في الدراسات السبئية . وكان رأيه مهماً لي بصفة خاصة كعالم قريب من مجموعات فيينا ، وبالطبع كخبير بلوحات الاستغفار الموجودة هناك . أما الباحث الدانماركي فكان قبل ذلك بوقت قليل قد قام بنشر أول جزء من الفهرس الكبير للآثار العربية القديمة .

وسرعان ما ارتبطت المراسلات بيننا ، لكن الفرق في مزاج كلا العالمين كشف لي عن أشياء ممتعة جداً . ولعل الزميل من النمسا هو المستشرق الكبير الوحيد من اليونانيين . وقد حاول بطيبة خاطر تفسير النواحي التي لم أفهمها والتي يمكن أنها كانت تبدو له أحياناً أشياء أولية بسيطة . وقد دلني على الوقائع الماثلة والمختلفة وتقدم بأراء مغايرة ، وأيدني في اعتقادي حول أصالة اللوحتين . أما الدانماركي فكانت علاقته بي أكثر صرامة . ولعله لم يود أن يغرق نفسه في تفاصيل هاتين اللوحتين ، وأكد لي أنه يلزم أولاً توضيح ما إذا كانت هاتان اللوحتان البرونزيتان حقيقتين بالفعل أم لا . وهل تساويان أن نحطم عليهما رؤوسنا أم لا ؟ وأبدى استعداداً ، في حالة إرسال صور هاتين اللوحتين ، لإعطائها إلى أحد تلاميذه لدراستها ، وعلى حد تعبيره فإن هذا التلبذ اشتغل خصيصاً على مثل هذه المواضيع .

لكنني وجدت أنني لو عملت برأى هذا العالم الدانماركي فإن هذا يعني

الاعتراف بعجزى . والتخلي عن قصب السبق لعلينا قبل اختبار جميع الوسائل والطرق في بحث اللوحتين ، وكان هذا بالطبع مخجلاً لى . ففضلت أن ، أحطم رأسى ، ، وواصلت لجوئى النادر لطلب مساعدة ذلك الأستاذ الحير من مدينة جراتس .

وتحت إصرارى أخذت الخطوط تتضح لى أكثر فأكثر ، وإن يكن ببطء ، حتى خطوط اللوحة الثانية التى تعانى بعض أمانها من الصدأ . معاناة شديدة . فانفتحت لى بالتدريج رموزها المتأكلة تماماً من النظرة الأولى . وساعدتنى كثيراً فى بعض الحالات عين حادة فى تعرف رسم الخطوط ومتخصصة فى تطورها ، وأعنى بها عين زوجتى التى سهلت نقل ورسم صورة الأصل لأجل طبعه على الزنكوغراف . فلم تكن فى مطابعتنا الحروف السبئية بالطبع . ولقد خاطرنا وجددنا . بتحفظ بعض الحروف المسوحة تماماً . وبعد أن نشرت مقالتي عن خطوط اللوحتين قام خبير متخصص فى تجديد الآثار بتنظيف اللوحتين وظهرت بعض رموزها أكثر وضوحاً ، وأسعدنا أننا وجدنا أن افتراضاتنا وتجديداتنا للرموز كانت صحيحة .

وقويت ثققتى فى أصالة اللوحتين اللتين وقعتا فى أيدينا : ذلك لأنه لا يمكن أن يقوم بتزويرهما هكذا بمنتهى الدقة إلا خبير عظيم وعالم كبير ، وهو ما لا يمكن افتراض وجوده فى جنوب كل الجزيرة العربية . صحيح أنه قد بقى هناك احتمال آخر هو أنه يمكن أن تكون خطوط اللوحتين قد نقلت حديثاً من أصل قديم . لكن مثل هذا الأصل لم يعرف فى العلم حتى هذه اللحظة .

ومعنى هذا أنه حتى إذا كانت اللوحتان هما فى الحقيقة صورة عن الأصل فإنهما ما تزالان إذن منطويتين على أهميتهما العلمية .

وبالتدريج ، خطوة بعد خطوة ، عملت كل ما كان فى وسعى . وقررت أن أطلق سراح اللوحتين لحكم العلم الدولى . فنشرت صورتيهما مع دراستى لهما ، التى استطعت أن أقوم بها فى حدود قدرتى . وعملت كل هذا بخوف شديد . وكان يساورنى خوف ضئيل من أننى ربما أكون قد أخطأت فى قراءة أو تفسير

بعض التفصيلات الجزئية . وأردت أن أقوم أى عالم بتفسير ما بقى مشكوكا فيه لدى ، لكننى خفت أن يظهر فجأة أن اللوحتين مزيفتان . فأجاب لنفسى سمعة سيئة طول الحياة مثل أولئك الفرنسيين فى الآثار القديمة الذين لم يستطيعوا اكتشاف تزيف « تاج سايتافيرن » المشهور من مدينة أوديسا .

على أنه قد ظهر دليل آخر فى صالحى حتى قبل صدور مقالتي . فقد جرى فى معمل كيميائى تحليل للبرونز الذى صنعت منه اللوحتان . وأظهر التغير الذى طرأ عليهما أن اللوحتين استمرت فى الأرض ما لا يقل عن ألف عام . وهذا الواقع مرتبطاً مع الاعتبارات السابقة المتعلقة بنصوص اللوحتين حل المسألة من وجهة نظرى بصورة قاطعة . ومع هذا بقى عندى شىء من الخوف .

على أنه سرعان ما طار هذا الخوف تحت تأثير الاستجابات الأولى لشر اللوحتين . وأدت قلة المتخصصين إلى أن جميع المتخصصين فى الدراسات السبئية استجابوا لهذا الكشف الجديد بمختلف الوسائل . وأظهر هذا الكشف مرة أخرى كل دولة العلم فى مجال دراساتنا .

وبهذه المناسبة قام أكبر ممثلى هذا المجال وهو بلجيكي ، بكتابة مقالة خاصة عن خطوط اللوحتين . وأشار إلى بعض آثاره الخاصة فى تفسير بعض التفصيلات إلا أنه أقر صراحة بأصالة اللوحتين . وبعد عدة أعوام قام هذا العالم بتسجيل اللوحتين فى Répertoire (فهرس الخطوط الأثرية) لجنوب الجزيرة العربية الذى ألف بناء على طلب المجمع العلمى الفرنسى للخطوط الأثرية . وبهذا فإن هذا العالم وطد تماماً مكانة هاتين اللوحتين بفضل سمعة هذا الفهرس . وبعد ذلك صدر كتاب عن تحليل الأسماء السامية الجنوبية القديمة . وفيه ضمن هذا العالم هاتين اللوحتين . وقام عالم إيطالى فى كتابه المتعدد الأجزاء عن فكرة الاستغفار فى أديان كل العالم بإلقاء ضوء عميق على أهمية هاتين اللوحتين فى التاريخ الدينى . واستجاب لهاتين اللوحتين أيضاً ذلك البطل فى الدراسات السبئية فى ألمانيا البالغ من العمر ثمانين عاماً ، وكان قد ورث اهتمامه بهذه الدراسات عن والده الذى كان فى وقت ما من الرواد الأوائل فى هذا المجال .

وقد استطاع هذا البطل أن يجمع بين دراسته العميقة للشرق الأدنى ، وبين

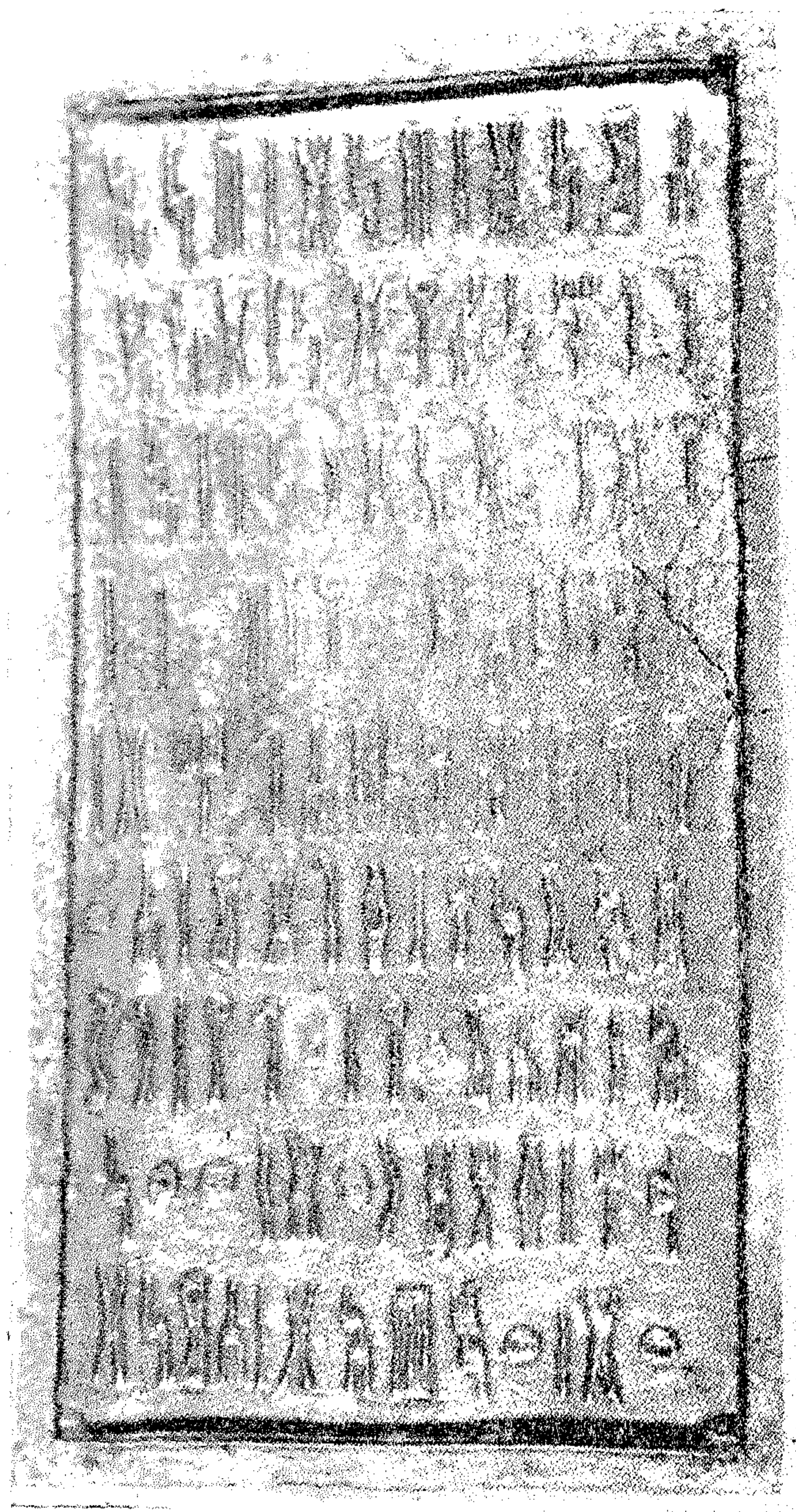
اهتمامه بجنوب الجزيرة العربية . وهو أيضاً لم يشك في الاعتراف بأصالة اللوحتين . وبفضل مقالتي التي نشرتها ، تعرفت مع العلماء الانجليز الناشئين في الدراسات السبئية الذين أخذوا يتوجهون إلى بأسئلة مختلفة ، غير عارفين أنني لست إلا ضيفاً طارئاً على هذا المجال العلمي . أما ذلك الزميل الدانماركي فقد تنلب على تشاؤمه الأول . وفي مقالته عن ثقافة جنوب الجزيرة العربية التي كتبها خصيصاً لجلتنا « أخبار التاريخ القديم » ، أشار إلى مقالتي دون أى تحفظ أو اعتراض . وهكذا فإن « إجماع الأمة » هذا بشككه الخاص في « جمهورية » العلم الدولي . هدأني تماماً وكان مكافأة لي على كل ما عانيت وقاسيت في تحليل هاتين اللوحتين . .

وكان لهذا الإجماع نتيجة عالمية ، أخرى . ذلك أنه عندما عقد المؤتمر الدولي للمستشرقين في لندن ١٩٣١ . اختيرت لجنة خاصة لبحث ونشر الآثار القديمة لجنوب الجزيرة العربية . كان ضمن هذه اللجنة ممثل بلادنا أيضاً . وهكذا بفضل علاقتنا المعاصرة مع اليمن وقعت لدينا بالصدفة لوحتان أثريتان من مملكة بلقيس الأسطورية ويمكن أن تستخدمنا لدينا في وقت ما كبداية متواضعة لتراث العلم السبئي .

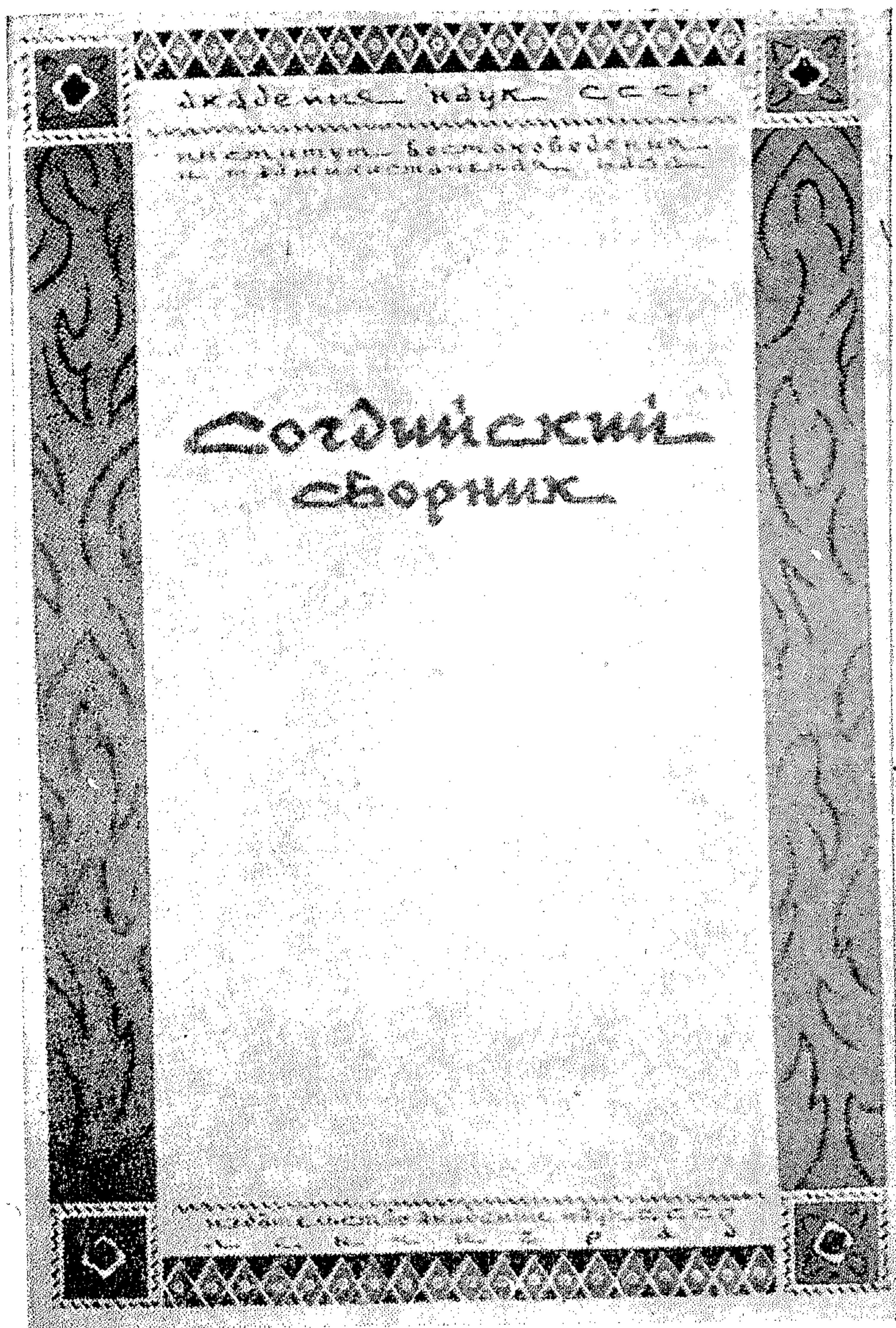
٢ — رسالة من بلاد الصغد

(١٩٣٤)

إن العالم السعيد هو الذي استطاع في عصره أن يراقب ميلاد وتطور فرع علمي جديد ، وهو الذي ظهرت أمام عيونه اكتشافات غير متوقعة ، وتطورت أمامه دراسة المواد المكتشفة . فخلقت بالتدرج صورة عظيمة بمجولة لأجيال الباحثين السابقين . هكذا كان الأمر في حياتي مع اللغة والثقافة الصغدية التي ازدهرت خلال عدة عصور في آسيا الوسطى ، بل وامتدت فروعا بعيداً خارج حدود بلادها . وعندما انهارت هذه الثقافة أمام ضغط العرب فإنها لم تفن تماماً بل انتقلت بطريقة طبيعية إلى مرحلة جديدة استمرت كخط واحد متصل في تطور ثقافة آسيا الوسطى .



لوحة برونزية من اليمن عليها كتابة سبئية .



مجموعة صفدية . القلاف . لينينغراد ، ١٩٤٣ .

ونظرت من جانبي كمتفرج على المحاولات التي لا تسكل ، وعلى السعادة التي يحس بها العلماء جيداً في اكتشافاتهم ، فيما قام به رفاقي الأكبر مني سناً في فسكهم بإصرار وخطوة بعد خطوة لرموز السطور المجهولة منذ وقت قريب ، هي سطور المخطوطات الصغدية التي كان يتوالى اكتشافها ، ولم أكن أفكر مطلقاً في أنني كمستعرب بعيد عن تاريخ آسيا الوسطى ، سيقدر لي أن أمارس بدوري هذا العمل .

ولم أكن أفكر مطلقاً أنه سيقع في يدي أثر عربي فريد من نوعه لا يقدر بشئ للعلم ، ويعكس بوضوح تلك اللحظة التراجيدية للصراع الأخير بين الصغديين والعرب . لكن هكذا أراد لي القدر . ففي لينينغراد وعلى إحدى المناضد استلقت المخطوطات الصغدية والعربية جنباً إلى جنب ، وجلس مستشرق في العريضة ومستشرق في الفارسية جنباً إلى جنب أيضاً ينظران باهتمام في الحروف شبه المدسوحة . وأنه لمن الصعب أن نحدد أيهما الذي تلاً أمامه أول شعاع كشف طريق الرشاد . إنه الشعاع الذي مس كليهما في آن واحد كأنه التيار الكهربائي .

ففي عام ١٩٣٢ في مدينة لينينغراد هاج المستشرقون في الفارسية على أثر إشاعة تقول أنه قد اكتشفت في تاجيكستان مخطوطات صغدية . ومن المعروف أنه لم تكن قد اكتشفت مطلقاً حتى تلك اللحظة أية مخطوطات صغدية في بلاد الصغد نفسها . وما اكتشف منها كان في المستعمرات الصغدية في تركستان الشرقية على أن الإشاعات تقوت ، وأخذ الناس يتحدثون عن آثار للمخطوطات اكتشفت على جبل موغ على الشاطئ الجنوبي لنهر الزرافشان . وأخيراً ، وفي خريف ١٩٣٢ أعدت بعثة صغيرة قامت هناك بحفريات منظمة . وتأكد كل ما قيل . فثروة المواد الصغدية التي اكتشفتها البعثة ، غطت بضوئها على كل الاكتشافات السابقة ، بل وأعجب من هذا ، أنه وجدت هناك عدا المخطوطات الصغدية بعض المخطوطات العربية ، والصينية ، كما لو كانت تعكس تماماً تلك الصورة السياسية المعقدة لآسيا الوسطى في ذلك العصر .

وأخذت أخبار المخطوطات العربية تهلل إلى لينينغراد قبل عودة البعثة . لكن هذه الأخبار حملتني على التشاؤم وقلما افترضت احتمال وجود اكتشافات

قيمة بين المخطوطات . وقيل أن هذه المخطوطات مكتوبة على الجلد . لكن
ما عرف من الوثائق العربية المكتوبة على الجلد في كل العالم حتى ذلك الحين
هي ست فقط . وكان من الصعب الافتراض بأنه في تاجيكستان بالذات . وليس
في البلاد العربية توجد زيادة لهذا العدد . وكان أسرع ما تخيلته هو أن هذه
الورقات هي من أوراق الرق التي كتب عليها القرآن ، وبالطبع قد يكون ذلك
شيئاً ناعماً ، لكنني لم أتصور وجود شيء ذي ندرة خاصة .

ودعمت هذه الفكرة رسالة من رئيس البعثة فريمان ، وهو رفيقي الأكبر
في سنوات الدراسة بالكلية ، أخبرني فيها فيما أخبرني ، أنه وجد من حفريات
البعثة قطعة جلدية صغيرة رقيقة ، عليها كلمة عربية واضحة هي « لا اله إلا الله » ويمكن
أن تكون جزءاً من الشهادة العادية للعقيدة الإسلامية . وحقيقة ، وصلت
إشاعات أن من شاهدوا هذه المخطوطات في آسيا الوسطى ، رأوا هناك اسم
طرخون وهو ما كان يسمى به أحد كبار الحكام الصفديين في عصر فتوح
العرب ، لكنني ملت إلى أن أعزو هذا إلى الوله المغتفر من الراغبين في ربط
المخطوطات المكتشفة بتاريخهم المحلي .

ومع هذا جذبني حب استطلاعي إلى هذا العمل . وحاولت أن أتسلم صورة
من المخطوط . لكن لم يمكن تحقيق ذلك في آسيا الوسطى لسبب ما . وتولد
صراع بين السلطات حول مسألة ملكية المخطوطات ، ومن الذي يجب اعتباره
مالكاً لها جميعاً ؟ وأين ستخزن بعد ذلك ؟ ولمن توكل دراستها ؟ ووصلت
المخطوطات لحسن الحظ آخر الأمر إلى لينينغراد . وهناك أيضاً كان بعض الأخذ
والرد فيما يتعلق بالمكان الذي تتم فيه دراستها . وعلى كل فقد عرفت في كانون
الثاني (يناير) ١٩٣٤ أن المخطوطات ستحفظ مؤقتاً في قسم المخطوطات بمسكبة
أكاديمية العلوم . وكنت مريضاً ودرجة حرارتي عالية ، إلا أنني لم أستطيع .

بالطبع أن أصبر أكثر من ذلك . وفي اليوم التالي توجهت إلى مبنى أكاديمية
العلوم سائراً في شارع الرصيف الجامعي الذي عرفته طيلة سنوات . ولم أذهب
بمفردي بل كانت معي زوجتي التي انغمست مدة العشر سنوات الأخيرة في أسرار
علم تطور المخطوط العربية وعلم خطوط الآثار القديمة ، لدرجة أنها تستطيع أن

تقرأ الخط الكوفي أحسن منى . وتذكرت معها ببشاشة كيف أنه منذ ربع قرن مضى كنا نشاهد مساجد القاهرة ، وبسؤالنا عن بعض الخطوط الأثرية هناك ، أجاب بعض العرب المتعلمين القائلين هناك بتعجب : « أن هذا بالخط الكوفي ومن المتعذر قراءته ! » ، والآن فإن موهبتها في فهم الخطوط وعينها الحادة ، قد ساعداني مراراً في فهم بعض الخطوط في المخطوطات التي كانت غير واضحة لي ، رغم كل دراستي للغة العربية التي أعطتني سنوات مديدة ، على ما يبدو ، حق التظاهر بمعرفتها .

في الطابق الأسفل للمكتبة ، في قسم المخطوطات ، وجدنا عند المنضدة الكبيرة البان (السيد) فريمان كما تعودنا أن نسميه منذ سنوات التلهذه بالجامعة . وكان غارقاً فيما حملته البعثة من الكتابة أو « العصى » الصغدية . وكان مغترباً بأفكاره وخياله مع المخطوطات الصغدية ، مع أنه كان يبدو عليه كالعادة هيئة الصرامة والجد بنظاراته الدائرية التي كان يرفعها إلى جبهته كل دقيقة . وكان قد أعد لنا مظروفاً فأخرج منه وثيقة راغباً في معرفة الانطباع الذي ستثيره فينا . ومن النظرة الأولى شعرت أنني قد صرعت تماماً .

ولست أدري أمن ارتفاع حرارتي أو من انفعالي ، غلى الدم في رأسي وعلت عيناى غشاوة ، بوهن في يدي ، أمسكت بقطعة الجلد البالية التي أكلها الدود . ولم أر من خلال الغشاوة الحمراء سوى حروف عربية متقطعة . ولم أستطع أن أميز أية كلمة عربية واحدة مرتبطة . وأخذ قلبي يذبض كأنما كان يريد أن يقفز من صدري . وكان أول شيء مرعب خرجت به ، هو « أنني لن أفهم أى شيء ! » . ولكن الخجل إعتراني . فحملت نفسي بشدة كبيرة على النظر مرة ثانية ، إلا أنى وجدت نفسي عاجزاً عن النظر بثبات . فقد ابتداءً يكسو عيني ضباب أحمر . وجمعت كل إرادتي بدفعات عصبية يتفق إيقاعها مع إيقاع نبضات الدم .

وأخذت أتطلع في هذا المكان أو ذاك من الوثيقة . إذ لم يعد في وسعي أن أثبت النظر على أى شيء لمدة طويلة . وتوالى الأفكار محومة عند كل دفعة . وبدون وعى همست : « نعم ، في السطر الأول بقايا صيغة الابتداء العادية « بالبسملة » : يعنى أن هذا بداية لشيء ما وليس مقطوعاً من الورقات الداخلية ...

ها أنه يوجد حقاً في الوسط اسم طرخون ... وإذن فهذا ليس قرآناً ... لكن ما هو إذن ؟ .

وأخذ يفكر يطرق في رأسى بعجز وألم ، والدم يذبض بعنف في الآذان .
« لعلها رسالة ؟ ها هو يرد في نهاية السطر الثانى بالضبط » من ... مولاه ...
لكن الاسم ... الاسم ؟ « ديوا » ، « ديوا » — ها هو يقف بوضوح اسم
« ديوا » مع « دى » ، « مدودة » و « د ا » ، « مدودة » ما هذا الهراء ؟ أى اسم هذا ؟ .

ثم يبتدىء السطر التالى بصورة أكثر سوءاً فمع أنه واضح أن الكلمة تقرأ
« ستي » ، لكن هذه الكلمة لا يمكن أن تكون باللغة الفصحى لأن كلمة « ستي »
لا تستخدم إلا في العامية ومعناها « سيدتى » . لآى شيء إذن يوجد هذا هنا ؟
في نهاية أحد السطور « ديوا » ، وفي بداية السطر الثانى « ستي » ... ، وفجأة ومن
جديد طرقت دقات النبض : « أليس من الممكن هنا أنهما لفظ لكلمة واحدة
بجزءة ؟ ! إن مثل هذه التجزئة توجد في كتابة أوراق البردى العربية الإسلامية
من مصر : ديواستى ... ديواستى ... لا يوجد مثل هذا الاسم ! ... ها هو
طرخون يذكّر في الكتب عن آسيا الوسطى ، ولا يوجد هناك أى ديواستى ...
ما العمل إذن بهذه الشيطنة ؟ .

لكن ما يوجد بوضوح هنا هى كلمة ديواستى ... ، وتوجهت صاحبتى
بالكلام إلى فريمان وقالت له متعجبة : « هل يوجد لديكم في الوثائق الصغدية
أى اسم ديواستى ؟ » . فارتعد فريمان ورفع نظارته على جبهته وقال لها في النهاية
بتعجب مجبول : « لا ... لكن ذكر في كل مكان اسم مشابه لكلمة « ديوانستيخ » ،
ولعلها كلمة مرتبطة بكلمة « ديوان » ، ولعلها لقب ... » وصحيت : « لكن هنا
لا يوجد في الكلمة العربية حرف « ن » ، فالكلمة ببساطة هكذا : ديواستى ! ... »
وفجأة لمعت لي فكرة جديدة : فقفزت من على الكرسي ، وهربت . وأثار ذلك
دهشة كبرى لدى جميع الجالسين على المنضدة ، ولدى المستشرق الناشئ في الدراسات
الفارسية ، الذى أتى إلى فريمان لسبب ما وكأنما هو قد تحجر من منظرى الجنون ،
ومن ذلك الحوار الغريب .

وهرولت على السلم الجانبي لآسرع إلى الطابق الثامن ، حيث يوجد معهد الاستشراق ، والقسم الاستعراي . وهناك على الرف يقوم إثناعشر جزءاً لمؤرخنا الأساسى الطبرى . وكان يزهو فى نفسى أمل ، فلعنى أجد فيه فجأة حل لغز ذلك الاسم الذى طفا . فقد كنت فى حالة لم أكن أستطيع معها أن أبين بوضوح ما حدث لى .

ووصلت إلى الرف المعروف لى جيداً وأنا الهث من الجرى ، وتناولت فهرس مجلدات الطبرى وأخذت أتصفحه محمواً بحثاً عن اسم مشابه لذلك الاسم . كان كل شيء يبدو فى عيني مزدوجاً ، إلا أننى نظرت بسرعة فى جميع الكلمات تحت حرف د د ، حتى نهاية الحرف . ولكن لم يكن لكلمة ديواستى وجود ، — وهبط قلبى حزينا . وفجأة وفى بعض السطور السفلى لمعت أمانى كلمة ديواشنى . فكدت أصرخ : ديا سلام ، الفرق فى النقط فقط ! أنهما شيء واحد ! ، لكننى لم أصدق نفسى . فأخذت أتصفح تاريخ الطبرى نفسه تحت رقم الصفحات التى أشار إليها الفهرس .

وهناك لم يكن أى احتمال للشك . فى تلك الصفحات يدور الحديث عن آسيا الوسطى ووصف حوادث بداية الأعوام المئوية الهجرية . على أننى لم أكن فى حالة تسمح لى بأن أدقق للنظر ، ولم يعد هناك أى تردد بعد ذلك ، وفى داخل نفسى كما لو كان كل شيء يتألا . وهرولت بسرعة متجهاً إلى أسفل ، ليتنى كنت أصغر بعشرين عاماً فأهبط السلم منزلقاً على درابزينه . وهبت كالزوبعة فى قسم المخطوطات ووقعت على الكرسي ، ولم أستطع إلا أن أهمس لفريمان الذى لم يفهم سبب هرولتى غير المنتظرة : د لقد وجدت ديواستى ! ، .

وقد كان ذلك غير متوقع إلى حد أن ، ثلاثة أزواج من العيون نظرت إلى بتعجب يشوبه خوف . وعندما هدأت قليلاً بينت عبارات متقطعة حقيقة الأمر ، فعمت البهجة الجميع وشعروا للتو أن هذا الاكتشاف قد اتضح وأنه وقع فى يدي خيط هاد .

وقد حدث لى رد فعل على الفور بعد كل تلك الانفعالات . فقد شعرت ،

بانهيار قوتي تماما ولم أستطع في ذلك الصباح أن أدرس الوثيقة أكثر من ذلك .
ولكنني صرت هادئاً ، وما يزال بانتظاري عمل طويل جداً وصعب جداً .
لكنني كنت أعرف تماماً أنني أقف على طريق الرشاد . وفي اليوم التالي وبمزاج
مختلف تماما بدأت بتسلسل في فك رموز هذه الرسالة وبالدراسة التفصيلية في
صفحات مؤرخنا الطبرى ، التي تتناسب مع هذه الرسالة .

ومنذ ذلك الحين فقط استطعت التطلع في هدوء إلى تلك الخطوط التي لم تعد
تخيفني ، وإذ ذاك فقط استطعت أن أقدر كل تقاسيم جمال الرسالة التي كتبها
خطاط الديوان الخبير . وكان كل يوم يحمل السعادة والحزن معاً ، وتداخلت
الاكتشافات الصغيرة مع خيبة الأمل . لكن كل هذا لم يكن شيئاً مرعباً لي .
ذلك أن قطعة الجلد التي انكشيت ، وظلت في الأرض مدة اثني عشر قرناً
لم تستطع أن تخفي أسرارها لدى التحليل الدقيق الذي قام به عالم في تطور
الخطوط الأثرية . ولم تستطع هذه القطعة الجلدية أن تصمت أمام شهادة العيان
للمؤرخ الذي حفظت أخباره في كتاب الطبرى الذي لا يقدر بشئ .

وفي الحق ، لقد كان اسم ديواستي مفتاحاً لكل شيء ، فهو لم يوضح هذا
الرسالة العربية فحسب ، بل ووضع أساساً ثابتاً لفهم الوثائق الصغدية . وظهر
أن الديواستي كان أميراً صغدياً ، وقعت بقايا محفوظاته في يد تلك البعثة على جبل
موغ . وأن لغز اسم ذلك الأمير العربي ، الذي وجه إليه الديواستي رسالته ،
أمكن حله بمجهود أقل .

وحمل هذا الاسم بدون انتظار تاريخ الوثيقة الدقيق وهو العام المشوى
الهجرى أى تقريباً ٧١٨ — ٧١٩ م . وحرفاً حرفاً أمكن تملك جميع حقائق الرسالة .
وأمكن بسرعة وضع قطعة الجلد المتآكلة — التي تحمل الصيغة الابتدائية للشهادة
الإسلامية — في مكانها من الوثيقة .

وكانت البعثة قد وجدت هذه القطعة الجلدية منفصلة عن الرسالة . بل وأمكن
بصورة أساسية إعادة بناء سطور الرسالة التي أكلها الدود الشره . والآن عندما
أنظر إلى الصورة الشمسية للرسالة المكتوبة على الجلد بعد أن سوى انكاشها

أعجب أنا نفسي لاستطاعتنا فهم تلك السطور التي بقي من كتابها حرف أو اثنان ، بل ولاستطاعتنا تصيد المعاني من الأما كن المتآكلة ، وشعرت بالفخر بعملنا وبطرقنا المضبوطة ، التي أمكن بها إيجاد أشياء كانت تبدو أحيانا من النظرة الأولى ، أنها هالكة بلا رجعة .

وبدأ لي أن الجميع شعروا مثل هذا الشعور حق المتخصصون في المجالات الأخرى المختلفة تماما ، الذين اجتمعوا بعد أسبوعين ، في شهر شباط (فبراير) في جلسة من دورة أكاديمية العلوم ، التي كانت بمناسبة حساب ما قامت به البعثة على جبل موع .

كان القراء يجلسون عادة فرادى في زوايا متفرقة من قاعة القراءة لمعهد استشراف . أما في ذلك الوقت فكانت هذه القاعة مكتظة ، ولم تكن جميع الأما كن مشغولة فحسب بل وجميع عماراتها تقريبا . ووصل الأمين الدائم لأكاديمية العلوم في منتصف الجلسة وما أن فتح الباب ، حتى تراجع عفويا إلى الوراء . فقد كان المنظر غير عادي إلى درجة كبيرة بالنسبة لهذا الشخص ، العارف بصورة الجلسات الدورية لطائفة المستشرقين . وفي الحق ، لقد كان ذلك احتفالا . انه احتفالا بالبعثة ، التي أغنت العلم بمواد كانت غير معروفة ، وهو احتفال بالعلم نفسه ، الذي يتحدث بصوت مسموع عن قوته . التي رفعت معرفتنا إلى درجة كبيرة أمام عيون الجميع .

وبالطبع لم تنته دراسة الوثائق بهذه الجلسة ، ولم تنته أيضاً بأن طبعت في تلك السنة « المجموعة الصفدية » ، بما فيها من وضوح للنتائج الأساسية العلمية والأبحاث المتسلسلة لهذه الرسالة العربية التي أذكرها الآن .

واتضح مع مرور الوقت أن اسم البطل الأساسي لهذه الرسالة يجب أن يقرأ ديواشتي لا ديواستي . وأمكن التأكد من اسم القلعة التي للنجأ إليها مع أصحابه الصفديين بعد قطع العلاقات نهائيا مع العرب . بل وأمكن أيضا تحديد نوع الماعز الذي كتبت الرسالة على جلده . ولعل كثيرا من التفاصيل تظهر عند بحث هذه الوثيقة في المستقبل ، وآمل أن يستطيع أحد قراءة الكلمات والحروف المتقطعة —

التي بقيت لنا لغزا — بصورة أحسن وأكمل مما فعلت . إلا أن هذه كلها أشياء جانبية . فقد انفتح الطريق الرشيد منذ تلك اللحظة التي لمع فيها لأول مرة اسم غريب ملغز هو اسم ديواستي . إنها لحظة الدفعة اللاشعورية للفكر ، لحظة الاكتشاف .

وكانت هذه اللحظة بداية لطريقة التحليل العلمي . وها هو ذلك الاسم يرن الآن ، بفضل هذه اللحظة ، رنيناً قريباً ومفهوماً لدى جميع المستشرقين في الفارسية وجميع مؤرخي آسيا الوسطى . وأن ذلك المسعرب ليشر فرحاً بأن الرسالة التي وقعت في يده من بلاد الصغد لم تكن أثراً مشهوراً ورائعاً لعلم تطور الخطوط الآثرية العربية نخسب ، بل ومصدراً تاريخياً من الطراز الأول .

وبعد هذا الاكتشاف على جبل موغ دخلت دراسة الثقافة الصغدية في مرحلة جديدة من تطورها . لكن قسوة القدر لم تمكن شخصين من القيام بدورهما في هذه الدراسة ، في حين أنهما كانا يملكان الحق في هذا أكثر من العلماء الآخرين جميعاً . أحدهما هو س. ف. أولدنبورغ الذي كان بنفسه في آسيا الوسطى وفي تركستان الشرقية والذي أغنى بنفسه العلم بما عثر عليه من المخطوطات الصغدية . وكان في طريق الموت بسبب المرض العضال الذي أصابه وسمع وهو على سرير الموت حكاياتنا عن النجاحات الأولى في فك رموز هذا الأثر الصغدي . فسكان سروره لا يقل عن سرورنا ، ورسم خطوطاً لعمل المستقبل ولبعثات المستقبل التي كان يعرف جيداً أنه لن يكون له مكان فيها . ولكنه كان يعمل طوال حياته من أجل العلم ومن أجل تنظيمه . وكان من البديهي له استمرار تطور العلم وديمومته . ولذلك فإنه هكذا بهدوء وببساطة ظل يتحدث عن المستقبل حتى فارق الحياة . ولهذا كان واجبنا نحوه أكثر من الآخرين هو أن نهدي إليه المجموعات الصغدية ، التي لم يقدر له أن يراها .

أما الثاني فهو ف. آ. روزنبرغ الذي امتد به الأجل ثلاثة شهور ، وكان مدة طويلة خازن المتحف الآسيوي والزميل المخلص لأولدنبورغ في إدارة هذه المؤسسة التي كانت في وقت ما ، المعهد ، الوحيد للإستشراق في أكاديمية العلوم . وفي عشرات الأعوام الأخيرة من حياته ، درس بنجاح كبير المواد الصغدية .

وفك بإصرار ، وتسلسل ، رموز حطام المؤلفات ، والمخطوطات الصغدية القليلة التي كانت مخزونة في مجموعتنا. ولما كان يملك قاعدة صلبة في الدراسات الفارسية ، فإنه سرعان ما صار واحداً من أوائل العارفين في العالم بالكتابة الصغدية . إلا أن دماغه قد تعب من مرضه الثقيل في أعوامه الأخيرة . ولم يصدق كل الصدق ما سمعه من الحكايات عن تلك الاكتشافات المتميزة العظيمة . ولعله كان من الصعب عليه أن يتقبل وهو الذي حلل طول حياته القطع والنسخ الوحيدة ، أنه قد اكتشفت الآن فجأة عدة عشرات من الوثائق التي أضاعت بوضوح جوانب لم تكن معروفة من الثقافة الصغدية المقربة إليه . وكان يشعر بتشاؤم وبصفة خاصة نحو المخطوطات التي كتبت على « العصي » ، التي لم تكن معروفة لأي شخص من قبل . ولعله كان يظن حتى آخر أيام حياته أنه قد يكون هناك شيء مخفي من سوء الفهم . وكان من المهدى لنا نوعاً ، ذلك التأكيد غير المنتظر ، للعظمة العلمية لهذا الاكتشاف ، الذي بدا لهذا المتخصص شيئاً مستحيلاً لا يمكن تصديقه وأنتى نفسى ، كثيراً ما أتمنى أن توجد في آسيا الوسطى في أى وقت ولو وثيقة عربية أخرى مماثلة لهذه الرسالة الصغدية التي اشتهرت في العلم .

٣ - قرآن كوفي و « جدة عربية »

(١٩٣٦)

يمثل القرآن الكوفي من القرنين الهجريين الأول والثاني ، شيئاً نادراً جداً في مجموعات المخطوطات . وتعتبر النسخ الكاملة منه أحادية في كل العالم . وكان زينة مكتبتنا العامة مدة طويلة ، القرآن الذي يعرف بالعثماني أو السمرقندي . وقد حمل إلى مدينتنا بأمر الجنرال فون كاوفمان كغنيمة حربية عند غزو آسيا الوسطى . ثم عاد من جديد إلى آسيا الوسطى بعد ثورة أكتوبر . وبالطبع فإنه لم يكن مطلقاً في يد الخليفة عثمان في اللحظة التي مات فيها ، مثله كمثل توائمه التي عرف منها في العالم ما لا يقل من ثلاث أو أربع نسخ .

ولكنها تنسب كلها أو ترجع إلى القرن الأول الهجري . فإن تلك النسخة الكاملة لم تبقى في لينينغراد . وكان الأمر هنا وفي البلاد الأخرى عادة ، أن القرآن

الكوفي في كل مكان ، يتمثل في أوراق ناقصة من الرق يختلف عددها باختلاف الأماكن . بل أن مارسيل المشهور مؤسس المطبعة العربية في مصر وقت حملة نابوليون ، والهاوى الكبير لفن الخطوط ولعلم تطور الخطوط الأثرية ، لم يستطع أن يحمل معه (من مصر) إلا أوراقاً منفردة وقع جزء منها في مكتبتنا العامة . ولقد شكلت أمريكا طيلة القرن الأخير وبفضل ملايينها ، مجموعات في مجالات مختلفة ، يكشف ضوءها أحياناً مجموعات العالم القديم . إلا أنها حتى الآن ليست أسعد من هذا العالم في المخطوطات الكوفية . وهي تقوم بنشاط بوصف وبحث الأوراق الجزئية المختلفة التي تقع لديها من وراء المحيط . إلا أن مثل هذه الأوراق الكوفية لم تكن تظهر بصورة كثيرة .

ولذلك يصبح من المفهوم كيف خفق قلبي عندما وقع في يدي ذات مرة . في خريف ١٩٣٦ ، بضع عشرات من الأوراق الرقية الكبيرة الرائعة بخط كوفي قديم . وكانت سيدة بمحولة قد حملت هذه الأوراق إلى معهد الاستشراف لتبيعها . وقالت أنها كانت قبل ذلك في المكتبة العامة ، إلا أنهم هنا لم يقبلوا على شراء هذه الأوراق عندما عرفوا أنها قرآن ، فمخطوط القرآن ليس نادراً . ولم يسعني إلا الابتسام لدى سماعي هذا ، فقد كان من الواضح لي أنه لا يوجد عندنا في أى مكان حتى ولو ورقة أو ورقتين بمثل شكل هذه الأوراق . في حين أن السيدة حملت إلينا بضع عشرات منها . وكانت حالة الأوراق عظيمة ويتميز شكلها عما يقابلها من النماذج العادية المعروفة بأن طولها أكبر من عرضها على عكس النماذج العادية المعروفة .

ويتميز الخط نفسه بميل عادي إلى اليمين في أعلى الحروف يشير إلى قدم ليس بالقليل . ولم أتكل على نفسي بل قمت فيما بعد بالتحقيق من هذه الأوراق بطرق مختلفة . فتوجهت إلى إثنين هما أحسن العارفين عندنا بعلم تطور الخطوط الأثرية العربية . أحدهما هو خازن قسم المخطوطات لمعهد الاستشراف والثاني هو أستاذ تاريخ الفن الإسلامى فى جامعتنا . توجهت إلى كل منهما بطلب إبداء رأيهما فى تاريخ هذه الأوراق .

وبالطبع فإننى أخفيت عن كليهما أننى سأوجه الآخر . واتفق جوابهما :

فكلاهما اعتبر إن هذه الأوراق ترجع إلى بداية القرن التاسع الميلادى أو ربما إلى نهاية القرن الثامن . ولم يكن عندى شك فى ضرورة إنقاذ هذا الأثر النادر ؛ وإنه لا يمكن أن يفلت هذا المخطوط من مجموعات الدولة .

أول سؤال يتولد عندما يبدأ المخطوط حياته الجديدة فى المجموعة العلمية ، هو عن تاريخ حياته والبيانات الخاصة به . ولم تكن ظاهرة على أوراقه أية ملاحظات أو آثار لأصحابه السابقين ، لكن هذا المخطوط لم يكن ليلكه أى صاحب طارىء يخزنه هكذا بعناية فى حالة جيدة . وقد كانت الأوراق مختلطة بالطبع ولعلها نزعَت من جلدِها ؛ إلا أنه لى تملك ويحافظ عليها فى الوقت القديم كان ينبغى أن يكون مالِكها أما ذا معرفة أو ذوق وأما أن يكون نفسه عربياً حتى يقدر فى هذه الأوراق آثاره القديمة .

على أن محاولتى فى أن أعرف من السيدة قصة المخطوط ، اصطدمت مع رغبتها فى إخفاء معالم آثاره . وكان هذا شيئاً عادياً . فكثيراً ما يحدث أن عارضى المخطوطات أو الكتب للبيع ، يخافون من مصادرتها ، أو من الكشف عن روابطهم بالملوك السابقين المكتبات الكبيرة أو جلب النحاس لأنفسهم إذا كشفوا عن علاقتهم مع أية عائلة مشهورة قبل الثورة .

وهذه السيدة سميت نفسها باسم روسى عادى إلا أنها قالت أنه كانت لديهم منذ وقد بعيد جدّة عربية توفيت لا تذكرها .

وذكرت أيضاً أنه قد بقى من آثار جدتها ، حقيقة بها بعض الأشياء القديمة التى رأت الآن أن تبيعها بسبب سفرها ، وأن هناك فى الحقيقة بعض الكتب العربية والفرنسية . وأردت أن أمسك بهذا الخيط . فسألتها عما إذا كان من الممكن إرسال مستخدمنا من أجل رؤية هذه الأشياء فقد يوجد هناك أى شيء آخر مهم أو ممتع بالنسبة لنا .

لكن السيدة قالت بسرعة وبخوف إن الشقة لديهم غير مرتبة كثيراً . وأنهم سيقومون بأنفسهم بالفحص ثم يحضرون ما يجدونه . ولحسن الحظ أضافت

إلى الإجابة على سؤالى قائلة أنه يبدو أنه توجد فى الحقيقة أوراق أخرى مشابهة. ووعدتنى بأن تحضرها لأننى قلت لها أن ذلك يرفع من ثمن هذه الأوراق. ولم يسعنى آنذاك ألا أطيعها لأنها لم تذكر لى عنوانها .

وبقيت الأوراق التى كانت معها عندنا . وكان هذا ممتعاً لى . على لى كُنت أشك فى قصتها عن الجدة العربية . فنحن حقيقة نعرف أنه كان فى عصر أمية فى أحد الضواحي الشرقية بقرطبة مائة وسبعون امرأة شهرن بخطهن الجميل فى نسخ القرآن .

أما أن توجد فى القرن التاسع عشر امرأة عربية تزوجت روسيا ثم يظهر أنها مالكة لهذه النسخة النادرة فانه كان شيئاً مشكوكاً فيه بالنسبة لى .

على أن السيدة ظهرت من جديد . بعد أسبوع ونصف . وكان مدعاة لسرورى أنها حملت مرة أخرى بعض أوراق القرآن . وبهذا جمع لدينا ما يقرب من ربع نسخة كاملة لا يوجد مثلها فى أى مكان فى لينينغراد . وبناء على قول السيدة لا توجد هناك أوراق أخرى أكثر من ذلك . وحملت أيضاً بعض الكتب . وظهر أن ما هو بالفرنسية من هذه الكتب هى كتب عادية لقراءة التسلية ، وهى حقاً ذات تجليد حسن . وما هو منها باللغة العربية كتب عليه عن الفقه الإسلامى المطبوع فى الشرق ولا يمكن مطلقاً أن تشير اهتمام أى جدة ، حتى ولو كانت عربية .

ومن جديد فكرت فى المالك السابق لهذا القرآن الكوفى . ولجأة عندما قلبت فى يدي آليا أحد الكتب التى حملتها ، رأيت على كعب الغلاف حرفين فرنسيين أعرفهما جيداً هما : ا . ن . . .

ولم أظهر للسيدة اننى فهمت اسم المالك وواصلت الحوار معها قائلاً :
« يعنى أن القرآن أيضاً من مكتبة ايرينى نوفل ؟ » ، فهمست خائفة وقد امتقع لونها :
« من أين عرفت ؟ » فأوضحت لها بصراحة حقيقة الأمر وكيف حملت اللغز .
لكنها لم تبد صراحة أكبر . وانتظرت بمشقة تسلم النقود التى وعدتها بها ،

وانصرفت بسرعة خائفة كما لو كان أحد سيقبض عليها . ولم أدر ما إذا كانت قد سافرت حقيقة أم استمر يؤلمها الخوف من كشفى عن اسم ايرينى نوفل — وعلى كل حال فلم تظهر السيدة فى المعهد بعد ذلك .

لكنى لم أقل أى شىء مخيف . وايرينى (أو بالعربى سليم) نوفل كان خلال مدة طريـلة أستاذ للغة العربية والفقه الإسلامى فى القسم التعليمى للغات الشرقية بوزارة الخارجية الروسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكغالبية المعلمين هناك شعر بأنه مستخدم إدارى أو دبلوماسى أكثر من كونه عالما . لكنه كان دبلوماسيا لامعا من الناحية الظاهرية ، ومثل وزارة الخارجية مرارا بل وأحيانا مثل الحكومة الروسية فى المؤتمرات العالمية للمستشرقين .

وهو ينتسب إلى عائلة عربية مسيحية مشهورة فى طرابلس الشام . وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة . وفى وطنه ، فى سنوات شبابه ، استطاع ككثير من العرب المساوين له من حيث وضعهم فى المجتمع أن يقسم وقته بين التجارة ، وتمثيل الدول الأجنبية ، وبين الاشتغال بالأدب الذى كان نوعا ما فى مرحلة من النهضة فى منتصف ذلك القرن . وقد كتب بعض المؤلفات والكتب التى لقيت نجاحا . ووجهت إليه وزارة الخارجية الروسية اهتمامها .

وكان الشيخ الطنطاوى يدرس فى القسم التعليمى لوزارة الخارجية ، فلما مرض مرضا لا أمل فى شفاؤه ، دعت الوزارة نوفل لأن يشغل مكانه . ووصل إلى روسيا حوالى عام ١٨٦٠ ، وصار روسيا لدرجة أن أولاده الذين لم يكونوا مطلقا فى وطن أبيهم ، نسوا اللغة العربية . .

وهو نفسه انصرف عن الاشتغال بالأدب لكنه نشر بعض الكتب فى الفقه الإسلامى باللغة الفرنسية . لكنها لم تسكن كتباً علمية بل أقرب إلى الكتب السياسية التى تحمل ظل ظله . فقد كان نوفل كالكثير من العرب المسيحيين لا يميل إلى الإسلام . وسمح مرارا لنفسه فى كتبه بالنيل من الرسول محمد ومن الإسلام . وقد احتج السفير التركى على ذلك وطلب مصادرة كتبه . وقد

حقق لنفسه في وزارة الخارجية الروسية درجة كبيرة من الوظيفة ، وتسلم كثيرا من الرتب والأوسمة .

وكان قد بقي لديه بقية من الذوق الأدبي . وكانت مكتبة جيدة في وقت ما . ولم تكن تحوى الكتب فحسب بل والمخطوطات أيضاً . وكانت منظمة كما يبدو من رموز كتبه التي كانت دائماً ذات طابع موحد . وكان نصيب المكتبة لسوء الحظ مؤسفاً . فأولاده نصف الروسيين ونصف الفرنسيين كانوا قد تلقوا تعليمهم في المدارس الخاصة بأولاد كبار الشخصيات . وكانوا من أولئك الأولاد ذوي الملاعق الذهبية ، الذين كانوا معروفين آنذاك . ولم يكونوا يهتمون لا بالعلم ولا بالأدب . ولم يبلغوا أية وظائف عالية . وعاشوا فقط على أموال أبيهم . وانتهى بهم الأمر تدريجياً إلى أنهم انتهزوا فرصة شيخوخة والدهم فأخذوا يبيعون الكتب المختلفة سرّاً ، إلى تجار الكتب القديمة . وبعد موت أبيهم صارت المكتبة هباءً منثوراً . ونادراً وعلى نحو غير متوقع ، كانت بعض الكتب تظهر في مخازن الكتب في شارع « ليتيني » ، أو في سوق الكسندروفسكي . وكانت أحياناً محتريات هذه الكتب غير عادية سواء كانت بالفرنسية أو العربية . وكانت أغلفتها أنيقة تحمل على كعبها الحرفين « ا . ن . » ، وبرموز مكتبية متماثلة على الأغلفة الداخلية لها . وهذه الكتب تتحدث عن صاحبها السابق الذي كان في وقته هاوياً للكتب ، والذي خزن بعناية ذلك القرآن الكوفي النادر . ولعل هذا القرآن لم يحفظ كاملاً بسبب أولاده أيضاً .

ولعل حفيده لم ترد أن تتذكر مساوئ والدها التي تكون معروفة لها . أو لعلها خافت أن تكشف عن جدها الذي كان مستخدماً كبيراً في وزارة الخارجية في زمن القيصرية . وبسبب هذا استبدلت « الجدة العربية » ، « بالجددة العربية » . ومن الصعب القول أي هذين الاحتمالين هو الأصح . وكان من الخير على كل حال أن اغتنت مجموعتنا بهذا القرآن الكوفي النادر بفضل هذه الحفيدة .

على أن الحرفين « ا . ن . » ، حملا قلبي على الخفكان مرة أخرى وفي موقف آخر عندما رأيتهما على كعب كتاب « وصف روسيا » ، وهو المسودة التي كتبها بخطه الشيخ الطنطاوي الذي كان سلفاً لنوفل في التدريس بالقسم التعليمي للغات

الشرقية . وبعد أعوام كثيرة عرفت ، مصادقة ، أن تخميني كان مضبوطاً وأنا
أثرتنا القرآن الكوفي حقيقة من حفيده نوفل .

٤ - المراقب الملازم لشامل في كالوجا

(١٩٢٨ - ١٩٤١)

إن تاريخ استعراينا معروف معرفة رديئة لدى المتخصصين ، وغير معروف
إطلاقاً في الدوائر العلمية الواسعة . أو فيما وراء حدود بلادنا ، في حين أن لهذا
التاريخ معالم ولحظات ممتعة ليست بالقليلة أعطته أحياناً شكله الخاص وأصالته التي
لا يوجد لها مثيل في الغرب . وينبغي أن لا يغيب عن البال أن استعراينا العلمي
أحدث من الاستعراي الغربي بقرنين وأن كثيراً من جوانبه انفتحت في الفترات
الآخيرة ، وكثيراً ما كان انفتاحها مصادقة تماماً .

ونحن لا نعرف حتى الآن إلا معرفة رديئة جداً المستعربين من الأوساط
العسكرية مع أنهم كانوا موجودين دون شك ، ولا يجوز اعتبارهم جميعاً مجموعة
من المترجمين في النواحي العملية . وبالطبع فإن وطننا كان يشعر دائماً بقلّة
العلاقات المباشرة مع البلاد العربية ، ولم ينشأ من الكتاب أو السياسيين مثل
لورنس أو فيلي . لكن علاقاتنا مع الشعوب التي استوعبت الثقافة العربية كانت
قوية . فكانت هذه الشعوب في كثير من الأحوال جيراناً لنا وكانت أحياناً
ضمن حدود بلادنا ودولتنا . وقد ساعدت آسيا الوسطى على خلق مستشرق عظيم
من « الكابتن تومانسكي » الذي احتفظ بهذا اللقب عندنا في الأوساط المختلفة
وفي الشرق ، مع أنه مات جنرالاً . وأن اهتمامه بدراسة تراث البابيين قد جعل
منه بالتدريج مستعرباً جدياً . واستطاع أن ينشر « كتابهم المقدس » الاسامي
المؤلف باللغة العربية . وتوطد اسمه في العلم إلى الأبد بكتاب المؤلف مجهول يعرف
باسم « مجهول تومانسكي » هو مخطوط بالفارسية يعكس بوضوح تطور علم
الجغرافيا العربي في القرنين التاسع والعاشر . وكان تومانسكي هو الذي اكتشفه .
وحتى الآن لم يوضح تاريخ استعراينا تماماً تلك الصورة التي كان مهادها

اللغة العربية في شمال القوقاز أى في داغستان وتشيتشيتيا . فقد كانت اللغة العربية هناك طيلة عدة قرون هي اللغة الفصحى الوحيدة لا للعلم فحسب بل لعلاقات الأعمال أيضا . وهذه اللغة تطور تراث له معالمة الخاصة ، خلق رجال الشريعة المحليين ، والمؤرخين والشعراء . وتولد هناك أدب كبير باللغة العربية الفصحى التي كانت تستعمل كوسيلة حية للعلاقات بين القبائل . إن مستعربى القرن التاسع عشر لم يتحدثوا مطلقاً بجدية عن هذه الصورة الممتعة والعظيمة في بابها . ولعلها ظلت مخفية عنى أيضا لو لم تحملنى المخطوطات على التفكير فيها .

ففى نهاية العقد الثالث من هذا القرن اشتريت بالمصادفة مخطوطاً لترجمة للقرآن من أحد الشخصيات غير المعروفة لدى . وينتسب المخطوط بملاحظات إلى الجنرال د . ن . بوغوسلافسكى ، كما يشير إليه الغلاف الأزرق للمخطوط . وهذا الاسم لم يوح إلى بآى بشىء آنذاك . بل أننى لم أستطع أن أنخن على الفور أن الاختصار الحرفى لكلمة « جنرال » المكتوب على الغلاف يعنى هذه الرتبة العسكرية بالضبط . وكان من الصعب على أن أتصور أن هذا العمل الجدى المعقد يرجع إلى رجل عسكرى المهنة . والانطباع الذى آثاره المخطوط بأجمعه ، هو أنه « مبيضة » كتبها المترجم بخط يده . والأوراق التى كتب عليها هي من نوع جيد ذات حجم كبير . والمقدمة مؤرخة فى عام ١٨٧١ وتشير إلى أن المؤلف زار استانبول . على أن النظرة العاجلة فى المخطوط ، والاستيضاحات المختلفة الطارئة مرتبطة مع اشتغالى بالقرآن ، سرعان ما أقنعتنى بأن الترجمة تمت على أساس الأصل العربى وبأن المترجم مستعرب واسع الاطلاع . لكن ما هو ؟ هذا ما لم أفكر فيه بسبب انشغالى بأعمال أخرى فى ذلك الوقت . ثم فتحت لى الصدفة الثانية عن هذا دون انتظار . وعلى الفور دخل هذا الموضوع إلى دائرة اهتماماتى العلمية الحديثة .

ففى بداية القرن العشرين ، فى شارع بتروزافودسكيا من حى المدينة البتروغرادى ، غير بعيد عن شارع غيسليروفسكى ، كان يقوم منزل ليس بالضخم مبنى من الحجر ، ذو ثلاثة طوابق ، وبشكل مقبض نوعا ما . ولم يكن المبنى يتميز عن باقى البيوت المجاورة بآى شىء خاص به من ناحية الشكل الخارجى .

بل لم يكن له . . . قول ، أية ناحية من فن العمارة . وكان الجيران يعرفون أن هذا البيت يقطنه صاحبه نفسه مع أسرته . ولم يكن أحد من الجيران بل والقليلون في مدينة بطرسنبورغ كلها من كان يظن أن كل البيت ، عدا بعض الحجرات السكنية ، ممتلئ بالمجموعات العلية النادرة ، وأن المنزل يمثل متحفاً كبيراً له شكله الخاص . ولقد ذكرنا عارفون من الناس أن مالك المنزل قد أنفق على جميع هذه المجموعات تركتين كبيرتين ورثهما بالإضافة إلى حالته المالية الممتازة التي تزعمت الآن . وكان من الصعب أن يحدد بكلمة واحدة طابع هذا المتحف الذي يعكس بوضوح ذوقاً واهتماماً واسعاً . بل ويعكس في الوقت نفسه حقيقة النظام والترتيب الذي يتمتع بهما صاحب هذه المجموعات .

وكان المؤرخ الروسي بحسب تخصصه المهني عارفاً كبيراً في الوقت نفسه بالثقافة البيزنطية ومتخصصاً كبيراً جداً في المواد الثانوية للتاريخ . وكان هذا المتحف يعكس جيداً تلك الآفاق الواسعة والمعارف الدقيقة الخبيرة لصاحب هذه المجموعات الذي يعرف جيداً تجار الآثار القديمة المشهورين في العالم . ولذلك فانه فيما بعد عندما انضم المتحف إلى أكاديمية العلوم كان من الصعب إيجاد تسمية صحيحة تليق بالمتحف . فسمى أولاً « متحف علم تطور الخطوط الأثرية » ، ثم بعد ذلك « معهد الكتاب ، والوثيقة ، والرسالة » ، وفي آخر الأمر تفرقت مجموعات المتحف بين مختلف مجموعات أكاديمية العلوم وغيرها من المؤسسات . أما الوحدة الحقيقية للمتحف فقد كانت موجودة فقط بفضل شخصية صاحبها الذي كانت له اهتمامات عديدة لن تتكرر بمثل هذه الصورة من اتساع الأفق .

ولقد كان المستشرق والمستغرب ، بصرف النظر عن اختصاصهما ، يجد كل منهما لنفسه مادة عليية في ذلك المتحف الممتع ، الموجود بدون لافتة في شارع بتروزافودسكايا . وكم هناك من أشياء فريدة لوحات بابلية قديمة ومراسم بابا روما ، وشاهدات قبور عربية من القرون الأولى للإسلام ووثائق بيزنطية ، ومراسم مدينة كريمونا الإيطالية ، وأوراق بردى عربية من مصر . . . ولم يكن المستغرب وحده هو الذي تزوج عيناه ، والواقع أن صاحب المتحف السخى كان يعرف كيف يجذبهم بثروته العلية التي كانت أحياناً ذات طابع غير منتظر إطلاقاً .

وفي بداية الحرب العالمية الأولى شغف بدراسة الجزء الذي كان في المتحف من محفوظات السائح الإيطالي المشهور في بداية القرن السابع عشر بييترو ديلا فاله . وفي هذه المحفوظات وجدت رسائل عربية من أهل عشيرة زوجته التي ولدت فيما بين النهرين بالعراق . وهذه الرسائل هي آثار ممتعة جداً عن أدب الرسائل العربية في ذلك الوقت . وهي مهمة جداً لتاريخ علم اللهجات العربية ، ولتاريخ حياة أحد الإنسانيين ورائد الاستشراق الإيطالي . وكان يلزمني لفهم هذه الرسائل بعض استفسارات في المحفوظات الإيطالية . وكان من الصعب الحصول عليها بسبب فترات انقطاع العلاقات مع إيطاليا . وبقيت كل هذه المواد جميعها غير منشورة حتى الآن . ولحسن الحظ لم تنشأ مثل هذه الصعوبات في الحالات الأخرى . ومن هذه المجموعات صدرت تلك التعويذة من جنوب الجزيرة العربية ، وتلك اللوحة النحاسية المغربية ، وخرجت طبعة ضخمة عن صور شواهد القبور العربية ، ووضعت دراسات أوراق البردي العربية على أرض ثابتة . على أن مجموعات المتحف التي جمعت في وقت ما من كل أنحاء العالم في منزل شارع بتروزافودسكايا ، تحتوي على كثير من الكنوز العلمية غير المعروفة لدى المستغرب .

و ذات مرة ، سنة ١٩٣٢ ، عندما كنت أنظر في فهرس معهد الكتاب والوثيقة والرسالة ، وجهت اهتمامي إلى رسالة لشامل مشار إليها في الفهرس . وقد ظهر أن هذه الرسالة هي حقيقة بامضاء شامل نفسه بل لعله كتبها بخط يده باللغة العربية بالطبع في السنوات الأخيرة من وجوده في روسيا قبل سفره إلى جزيرة العرب بوقت قليل . والرسالة معنونة باسم « الأمير الجنرال بوغوسلافسكي » وهنا تذكرت على الفور مترجم القرآن . ومع أنه توجد هنا كلمة « الأمير » إلا أن الاسم بدون شك هو لشخص واحد . ذلك لأن لقب « الأمير » كان يعتبره سكان القوقاز عائداً لجميع العسكريين أو المدنيين الكبار وأحسست بأني أفلتت من القدر هذه المرة وأنه يجب على أن أعمل على توضيح هذه الشخصية التي حملتني المخطوطات على الالتقاء بها للمرة الثانية .

وقد ظهر أن هذا ليس بالأمر الصعب . فقد وقع في يدي خيض « أريادنا » ثم أخذت الأمور بعد ذلك تسير من تلقاء نفسها ، واستسلمت « الوحوش » للصيد ، جماعات . وابتدأت التوضيحات تظهر من كلا الجانبين العربي ، والروسي . فقد وجد في المتحف الآسيوي مخطوط بخط صهر شامل عن ذكريات إقامتهما في روسيا . وقد أثنى مؤلف المخطوط بحرارة بالغة على السكولونيل بوغوسلافسكي الذي كان يعرف اللغة العربية ، فعين مراقباً ملازماً شاملاً في بطرسبورغ وفي الفترات الأولى من وجودهم في كالوغا . وقد أكدت الوثائق الروسية أنه كان أول مراقب ملازم لشامل ، ثم حل محله بعد ذلك كل من رونوفسكي وبرجيتسلافسكي . وكان هذان الأخيران معروفين في الأدب ، بحكم أنه قد طبع لهما كثير من ذكرياتهما ومقالاتهما عن شامل ، وبخاصة عن حياته في روسيا . هذا في حين أن بوغوسلافسكي لم يكتب أي شيء تقريباً عن حياة شامل ولعل ذلك يرجع إلى أسباب خاصة لديه . وكان هذا مما يدعو إلى الأسف ، ذلك لأن جميع المواد العربية التي ترتبط بشامل تمدح بوغوسلافسكي دائماً بأحسن النعمات .

ولعل ميل بوغوسلافسكي إلى الإيجاز كان سبباً في قلة المعلومات المطبوعة عنه . وكان لبوغوسلافسكي بثقافته الاستشرافية ارتباط ما مع جامعة بطرسبورغ . وفيما بعد ، أشار كاظم بك عميد كلية اللغات الشرقية المعروف في ذلك الوقت ، في إحدى مقالاته عن بعض المسائل الاستشرافية إلى بوغوسلافسكي ، كثال على ما يستطيع أن يحصله المستمع الحر — لا الطالب — من الاستفادة من محاضرات الجامعة . وعندما كتبت هذه المقالة كان بوغوسلافسكي يعمل في سفارتنا بالقسطنطينية . وظهرت مصادفة جديدة سمحت بالافتراض بأن اهتمامات بوغوسلافسكي ، خرجت في تلك الفترة بعيداً عن نطاق وظيفته كمحقق عسكري عادي . ففي إحدى مكاتبات لينينغراد توجد نسخة ممتعة من ديوان أشعار الصحفي العربي الذي كان لاجئاً في روسيا ، رزق الله حسونة مترجم كريلوف . وكانت هذه النسخة مهداة من المؤلف إلى بوغوسلافسكي مع إهداء شعري مؤثر جداً ، يتضمن تليحات الباعدة التي أبدأها له . والغالب أن بوغوسلافسكي ساعده في هربه من تركيا إلى روسيا .

وهناك في القسطنطينية أتم بوغوسلافسكى ترجمة القرآن التي وقعت في يدي .
وهي عمل يعطى كل الحق لهذا الجنرال في أن يحتل مكاناً في تاريخ استعرا بنا .
وطيلة القرنين التاسع عشر والعشرين كانت هذه هي المرة الثانية فقط التي ترجم
فيها القرآن إلى الروسية من الأصل العربي . وتدل الظواهر على أن هذه الترجمة
كانت من قبل معدة للنشر . وإذا كانت قد بقيت غير منشورة — فلهل السبب في
ذلك يرجع إلى أنه اتفق في ذلك الوقت ، من العقد الثامن من القرن الماضي ، أن
ظهرت في مدينة قازان ترجمة سابلوكوف الذي كان في وقت ما معلماً
لتشير نيشيفسكى (*) في مدينة ساراتوف . ويمكن القول بأن الترجمة كانت مهنة
لسابلوكوف وأنه أعطى من حياته لهذا العمل عشرات السنين . أما الشيء الممتع
فهو أنه في نهاية العقد العاشر عندما سالت أرملة بوغوسلافسكى ترجمته إلى أكاديمية
العلوم ، أشار المستعرب الكبير روزن في تقريره الذي اكتشف في محفظاته ،
إلى أن هذه الترجمة لا تقل في قيمتها عن ترجمة سابلوكوف . ومثل هذا التقييم من
جانب هذا المستعرب العظيم كبير الدلالة . وإذا نحن وزنا جميع الظروف الخاصة
بتطور ثقافتنا في منتصف القرن التاسع عشر فمن الممكن أن يؤدي ذلك إلى
الاعتراف بأن رفع هذا الجنرال إلى مثل هذه الدرجة من العلم كان أصعب من
رفع سابلوكوف الأستاذ بالأكاديمية الروحية .

لست أعرف ما إذا كان يوجد من الجيل التالي لبوغوسلافسكى أى تلميذ
أوتابع من بين أولئك الذي عرفوه ، واستطاعوا أن ينفذوا مباشرة إلى استيعاب
اهتماماته . إلا أنه بالنسبة لي ، فإن معرفتي بشخصيته كشفت لي تدريجياً وعلى
نحو غير ملحوظ عن صورة لم تكن مرئية من قبل قط ، هي صورة الأدب العربي
في القوقاز . وكما حدث مراراً عند تركيز الأفكار على موضوع جديد ،
توافرت العملية إلى حد لم يعد معه من داع للبحث عنها خصيصاً ، بل جاءت

* من أعظم الديمقراطيين الثوريين الروس وكاتب وعالم ناقد . (١٨٢٨ - ١٨٨٩) .

المواد بنفسها إلى يدي . ولقد اندهشت . صدقة ، كيف لم يستطع أحد ملاحظة هذه المواد من قبل .

إن خطاب شامل إلى بوغوسلافسكي جذب معه بعض الآثار المماثلة الخاصة بأدب الاتصال والرسائل . فقد أدت الترجمات الضعيفة لبعض المترجمين الطارئين إلى معرفة الأصول التي اكتشفت تدريجياً . وفي هذه الأصول ، معالم خاصة للأشكال المختلفة للحروف العربية ، التي كانت أحياناً علامات تشكيل لا تجدها في أي مكان آخر . وكان هذا يقف أحياناً للوهلة الأولى كسد مانع لفهمها . على أن الوثائق المختلفة كثيراً ما أحيت أشياء غريبة . ومن هذه الوثائق أمر شامل المكتوب على ورق شجرة البلوط الذي اكتشف في متحف مدينة روستوف . وهناك في المتحف الآسيوي ، ظهر مخطوط ، كان موجوداً فيه منذ وقت بعيد ومكتوب بخط صهر شامل عن ذكريات حياتهما في روسيا .

وقد أظهر هذا المخطوط مرة أخرى ، كيف أنه يجب النظر باحتراس ، حتى إلى ترجمات رونوفسكي المراقب الملازم لشامل ، التي اعتبرت مصدراً تاريخياً موثقاً . وفي تركة أحد أساتذة كلية اللغات الشرقية ، عثر على نسخة مفحوصة من قبل الرقابة ؛ وهذه النسخة هي عن تاريخ شامل ، وكان قد ألفها أحد أمنائه الأقربين . وهي في آخر صورة لها ، تتناول حتى السنين الأولى من القرن العشرين .

إن المهارة في استعمال اللغة العربية ، تتحدث عن الحيوية العظيمة لهذا التراث العربي في القوقاز فيما بعد أيضاً . ففي العقد الثالث من القرن العشرين ، أرسل إثنان من القوقازيين من الاينغوش لإكمال تعليمهما في معهد لينينغراد للغات الشرقية . وكانا لا يعرفان إلا لغتين : لغتهما الوطنية واللغة العربية . وكانا يتحدثان باللغة العربية بطلاقة تامة ، في مختلف الموضوعات عن السياسة العالمية والحياة المعاصرة . بل إن أحدهما كان ينظم بسهولة ، أشعاراً عربية على أساس أصول وقوانين الشعر العربي القديمة .

وفي العقد الرابع من هذا القرن أرسلت إلى من شمال القوقاز مجموعة أشعار

عربية لشعراء الفترة الأخيرة . وقد بلغ بي الأمر ، من شدة المفاجآت في أولى اللحظات ، أننى ظننت أن فى الأمر « مقلباً » مدبراً . ذلك لأننى ذهلت من المعرفة الواثقة لكل أشكال وألوان الشعر العربى القديم فى هذه المجرعة . لكن لم تكن هناك أية « مقالب » . فإن قوة تيار التراث العربى القديم فى القوقاز ، استطاعت أن تحمل حتى أيامنا ، اللغة العربية الفصحى التى لا تستخدم فى التخاطب العام فى موطنها فى البلاد العربية . أما فى شمال القوقاز فقد عاشت اللغة العربية حياة كاملة ، لا فى الكتابه فحسب ، بل وفى الحديث أيضاً .

وقد صبت عندى مواد هذا التراث ، واتسعت صورته ، واكتشفت بالتدريج منابعه التى تأخذنا أحياناً بعيداً وراء حدود تركيا ، لا إلى سوريا ومصر فحسب ، وإنما أيضاً إلى المملكة العربية السعودية واليمن . وقد قرأت بانفعال كبير قصة أحد اليميين من القرن الثامن عشر الذى سمع فى وطنه فى صنعاء أحد الداغستانيين الذى رحل إلى هناك والذى كان يتكلم بلسان عربى بليغ إلى درجة أن « اقشعر بدن » هذا اليمى على حد تعبيره . وها هو الآن بعد قول هذا العربى الخالص فى عروبتة ، صار من الواضح لى ذلك الانطباع الأول الذى أثارته لدى آثار الأدب العربى فى القوقاز أو الذى أثاره لدى ذلك الحوار العربى مع القوقازيين اللذين ظهرا بالصدقة فى لينينغراد .

وارتسم عالم جديد أمامى ، وانفتح امتداد تطور خاص كما لو كان فرعاً جانبياً من الأدب العربى ، والذى كان من الصعب أن نجد مقارناً له . ولقد كانت آثار هذا الأدب أكثر تنوعاً مما كان يبدو للوهلة الأولى ، وكانت مهمة لا للتاريخ المحلى فى القوقاز فحسب وإنما للاستعراب أيضاً ، وللتاريخ العام للأدب العربى .

وقد وجدت هذه الآثار الأدبية فى القوقاز قرية منا جداً ، وكان ما يدعو إلى العجب الشديد ، هو أن الاستعراب الجامعى لم ينبس ببنت

شفة عن هذه الآثار طيلة كل القرن التاسع عشر . إن علينا الاستعراي
ما زال ناشئاً تماماً ، ولم يتمكن من الإحاطة بكل المجالات . لكن لعله
لم يوجه اهتمامه نحو القوقاز تحت تأثير المزاج النفسى الذى يتردد مراراً .
بل وفى العلم أيضاً ، وهو « أن الشئ القريب مزهود فيه » . فلم
يقف ملاصقاً للأدب العربى فى القوقاز إلا المستعربون المترجمون من
العسكريين . وإن شخصية أول مراقب ملازم لشامل لتمييز من بينهم ،
وقد احتلت مكانها فى تاريخ علم الاستعراي . ومع مرور الوقت .
حين يحدد فصل الأدب العربى بالقوقاز مكانه الذى يستحقه فى التاريخ
العام للأدب العربى ، ينبغى لنا ألا ننسى أن المخطوطات المرتبطة باسم
الجنرال بوغوسلافسكى هى التى أعطت أول دفعة فى جيلنا نحو التعرف
على هذا الأدب .

٧ - ظل الأجداد

١ - « صريع الأدب العربى »

(١٩١٠)

فى الأدب العربى ، كثير من الكتب التى تتعلق بالعشق والعشاق مبنية على أسس مختلفة . بعضها منشور . وبعضها منظوم . إلا أنها تزخر بمختلف ألوان المشاعر الإنسانية . وتبدأ هذه المختارات بالقصص عن العذريين ، من قبيلة بنى عذرة ، الذين « صرعهم الحب » . وعن هذا تحدث كل من الشاعر الألمانى هينرخ هاينه فى أشعاره والموسيقى الروسى روبنشتين فى موسيقاه . وفى هذه المختارات إلى جانب ذلك ، بعض الفصول التى يمكن أن نضمها الآن فى مقالة عن الشذوذ أو حتى الأمراض النفسية .

يمكن غالباً العثور فى هذه المختارات على فصل عن أولئك الذين وقعوا فى هوى المحبوب من صورته . وقد أثار هذا الموضوع وكثيراً من المؤلفات فى الأدب العالمى ، بعضها بليغ وبعضها عادى . وهذا الشعور العاطفى الذى تولد عن الصورة المنقولة من الأصل ، معروف جيداً لدى جميع المشتغلين بالخطوط ، إذ غالباً ما يحدث فى جيلنا أن يعمل الإنسان على صورة شمسية من الخطوط . وهذا ما لم يعرفه أجدادنا . فقد كانوا يعملون دائماً على أصول الخطوط أو على نسخ منها مكتوبة باليد . ولكن هذه النسخ لم يكن فى وسعها ، حتى مع مهارة نساخها ، أن تعكس التفاصيل الكثيرة . وعبر هذه النسخ كان يمكن الدخول إلى المضمون فقط ، دون الشعور « بحيوية » الخطوط وبذاتية خطوطه ، التى لا توجد إلا فى الأصل . وبالطبع فإن الصورة الشمسية للخطوط أيضاً ، تترك العالم لاهول له ولا قوة أمام المسائل المعقدة الخاصة بتحليل كتابه الخطوط . لكن كما أن صورة الإنسان السالف منذ زمن بعيد ، تعطى إمكانية للشعور به ، فإن الصورة الشمسية للخطوط ، تعطى إمكانية لتصور من كتب أصله . ومع أن الصورة الشمسية تسجيلية ، وبدون حيوية ، وعلى مادة أخرى ، وبألوان أخرى ، إلا أنها أدق

بدرجة لا تقارن من يد الإنسان ، مهما بلغت من المهارة ؛ فهي تعكس جميع الملاحظات ، والتصحيحات . ولا يندر أن تظهر بوضوح عبر هذه الوثيقة ، الثانوية ، شخصية من اشتغل على المخطوط نفسه ، وشخصية من درسه ، شخصية لم يرها ذلك الخلف العجول بوضوح عندما أمسك في يده بهذا الأثر العلى .

في آخر شتاء لى في بيروت في ١٩٠٩ — ١٩١٠ ، انتهى معلمى الأستاذ العربى لويس شيخو من عمله مدة سنوات طويلة على نشر ديوان أشعار من القرن التاسع للبحترى . وكان هذا الديوان مجموعة أشعار من نوح آخر . فهو لا يتناول العشق والعشاق إنما يتناول جزء منه أشعار « الحماسة » التى أخذ منها الديوان اسمه ، والتى تتشابه مع أشعار معاصره ومنافسه أبى تمام ، ويتناول الآخر شتى المبادئ الخلقية التى تصور بوضوح المثل العليا للعصور الأولى لازدهار الثقافة العربية .

وكان مصير هذه المجموعة غريباً . فأسدب ما لم تتمتع عند العرب بشعبية وشهرة . ولم يعرفها إلا القليل منهم . بل إن عبد القادر البغدادى (فى القرن السابع عشر) الشارح المفسر المدقق الذى أمضى الجزء الأكبر من حياته فى القاهرة ، وزار أدرنة وإستانبول ، والذى تتضمن مجموعته الضخمة « خزانة الأدب » كثيراً من الاقتباسات من المؤلفات المفقودة وهو ما لا يقدر بثمن بالنسبة لنا ، قد اعترف ، مع كل هذا ، بأنه لم يسمع بديوان « الحماسة » للبحترى . على أن الأقدار قد سخرت منه . ففى القرن السابع عشر نفسه ، ابتداء « الفرنجة » يحتكون عن كتب بخزائن الآداب الشرقية وبدأوا بانتظام فى جمع المخطوطات . وكان من بينهم الممثل الديبلوماسى الهولندى فى تركيا ، الخريج الجدير من مدرسة المستعربين المعروفة فى ليدن والذى أهدي جامعته العزيزة «مجموعة وارنر» «Legatum warnerianum» وهى مجموعة مخطوطات غنية كان من بينها مخطوط ديوان « الحماسة » الذى حمّله من استانبول . وهذا المخطوط يعتبر فريداً حتى أيامنا هذه . وعلى أساسه أعد شيخو نشره للمخطوط . وكان قد قام بنسخ صورة خطية لنفسه من المخطوط فى ليدن فى العقد العاشر من القرن الماضى .

وكنّت فى ذلك الوقت ألتقى معه كل يوم تقريباً فى المحاضرات أو فى المكتبة

الشرقية المريحة في جامعة القديس يوسف . وكنت على معرفة بسير العمل في المخطوط . وأحياناً كنت أنظر لنسخ تجارب الطبع . وعند الوداع أعطاني شيخو بعض الملازم المطبوعة . واستطعت أن أدرسها وأنا على الباخرة في طريق إلى أوديسا . وكانت الطبعة قد أعدت كلها بعد أن رجعت إلى روسيا في النصف الثاني من عام ١٩١٠ . وقبل ذلك بتقليل كانت قد ظهرت في ليدن طبعة فوتوغرافية رائعة للمخطوط الفريد . وهكذا أصبح لدى إمكانية لأن أتمثل الأصل الجليل للطبعة بيروت ، وأن أتحقق من صحة هذه الطبعة عند اللزوم بطريقة مضبوطة تماماً .

وعندما كنت غارقاً في ديوان الحماسة ، تحت تأثير انطباع حي من دراساتي اللبنانية القريبة العهد ، فإنني سرعان ما لاحظت أن على هامش المخطوط ، كثيراً من الملاحظات التي كتبت بيد أخرى غير التي كتب بها الأصل . وغالبية هذه الملاحظات باللغة العربية . لكن بينها ملاحظات باللغة اللاتينية ، ترجع بحسب رأيي إلى الشخصية نفسها التي كتبت الملاحظات العربية . وقد أدهشني أن كلا من الناشر البيروتي والناشر الليدني لم يوجه أي اهتمام إلى هذه الملاحظات . فقد اعتبرها شيخو ملاحظات عادية إما لنسخا شرقي أو لقاريء ما . وعلى هذا استخدمها شيخو آلياً في فحص النص ونقله . غير أن شيخو لم يلتفت إلى سمات الخط الأوروبي الذي كتبت به هذه الملاحظات كما لم يلتفت إلى الملاحظات اللاتينية . ولم يشر محرر طبعة ليدن إلى هذه الملاحظات أيضاً . لكن لا يمكن أن يكون كاتب هذه الملاحظات قارئاً عادياً بسيطاً . ففي أغلب الأحوال كانت هذه الملاحظات تصحيحات سليمة للنص . وكثيراً ما كانت الملاحظات أيضاً صوراً نصية مباينة من مصادر أخرى .

وقد أشير ، عادة ، إلى هذه الصور المباشرة في الاقتباسات الموجودة باللغة اللاتينية . ومن هذه الملاحظات أمكن الإحساس بسهولة بأن مؤلفها كان على معرفة بكل ما طبع من المخطوطات حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وبما يوجد في مجموعة مخطوطات ليدن ، وهو أمر من السهل التحقق منه حالياً بفضل المطبوعات التي ظهرت طيلة القرنين الأخيرين . وإذن فلا يمكن أن يكون صاحب هذه الملاحظات إلا عارفاً كبيراً ذا معرفة واسعة وذا كرة عظيمة . وهذه الملاحظات

تحدث عن اهتدائه بطلاقة إلى الطريق ، وسط ألف ونصف من القطع الشعرية - القصيرة عادة الموجودة في ديوان « الحماسة » ، وذلك دون أن يستعين بالمصادر الميسرة لنا من الفهارس أو الدلائل .

فمن ترى يكون صاحب هذه الملاحظات ؟ أهو وارنر صاحب مجموعة المخطوطات نفسه ؟ لكن الاقتباسات تشير أحياناً إلى مطبوعات القرن الثامن عشر ، وعدا هذا فإن وارنر كان قلما يهتم بالموضوعات الأدبية البحتة . أهو أى شخص من الهولنديين من القرن الثامن عشر ؟ إن الاحتمال الوحيد هو أن يكون ينحولتنس الأكبر ، مؤسس العائلة الاستعرايية التي شغلت كرسي الاستعراب ثلاثة أرباع قرن ، وهو وحده الذى كان يعرف هذه المواد العلمية بكاملها . لكن الاستعراب كان بالنسبة له بالأحرى « كخادم لعلم اللاهوت المسيحي » ، ومن غير المعقول أن يكون على هذه الدرجة من الانجذاب ، فيغرق نفسه في دراسة ومقارنة النصوص الشعرية . ومعنى هذا إذن ، أنه يجب أن يبحث عن مؤلف الملاحظات بين العلماء الذين سافروا إلى هولندا في تلك الفترة . وهذه المسألة سرعان ما حلها نهائياً اتفاق المصادفات . فعندما كنت استعد للحاضرات عن تاريخ الاستعراب ، اتجهت إلى ترجمة حياة ذاتية تراجيدية لأحد العلماء الألمان من القرن الثامن عشر . ووقفت أمام عيني وبحروف ملتهبة إحدى صفحاتها الأولى التي يتحدث فيها عن رغبته في التوجه إلى ليدن في عام ١٧٣٨ عندما كان عمره ٢٢ عاماً :

« لقد أصابني الضر من هذا . كان على أن أدفع ثمن حماقتي غالباً بل وغالباً جداً ، لقد أصبحت صريع الأدب العربي . ياليت ظمئى الملتهب آنذاك إلى هذا الأدب ، هذا الظمأ الذى لم يجلب على إلا التعاسة لأنه أصابني في وقت جد مبكر ، في وقت لم يكن أحد محتاجاً إليه وبالأحرى لم يكن أحد يقدر ذلك أو يشجعه أو يكافئه عليه ؛ أقول ليت هذا الظمأ يهتدى إلى نفس تستطيع في وقت ما أن تحيا في أزمنة أكثر سعادة ! وإذا جاءت هذه الأزمنة في وقت ما ، — وإن كان ليس هناك أمل في هذا ، — فعندئذ يقدر الأدب العربي ، ويدرس باهتمام أكثر مما هو الآن ، .

هكذا كتب «ريسكره الفند» — كما سماه ت. مومزين المشهور — بأسلوبه العادى شديد العصبية . وريسكره هذا يعتبر الآن أكبر مستعرب ومتخصص فى الدراسات الهلينية فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر . وكان من الصواب أن تبقى صفته «صريع الأدب العربى» كما لقب نفسه فى آخر حياته . ولم يكن هذا اللقب مجرد عبارة . فمئذ تلك اللحظة التى كان فيها تلميذاً فى عامه السابع عشر فى مدينة ليزينغ ، حيث وصل إليها من بيت يتيم فى مدينة هاله ، شعر على حد قوله «برغبة ملحة غامضة مجهولة لدراسة اللغة العربية» . وحتى آخر أيام حياته «ذاق تماماً معنى مرارة الفقر» كما كتب بكآبة مؤلف ترجمة حياته . وإلى جانب هذا تذكر كلمات معاصر آخر عظيم ، استطاع أن يقدره ، هو ك. نيبور الذى لعب دوراً علمياً هاماً فى عصره ، برحلته إلى جزيرة العرب . وقد نقل هذه الكلمات عنه ابنه المؤرخ فى التاريخ القديم والتى يقول فيها : «إذا كان أى إنسان من قومنا قد ذاق تعاسة الكمال المطرد فانه هو ريسكره ... الذى كان يكافح الجوع بكل معنى الكلمة ، الأمر الذى عرفته كل ألمانيا» . وبهذا الأسلوب الحزين لنغمة موسيقية تراجيدية تدق عبارات مؤلفى ترجمة حياته باللغة اللاتينية تارة وبالألمانية القديمة تارة أخرى . وحتى الآن وبعد ما يقرب من قرنين من الزمان ، فإنه لم تضعف هذه النغمت الضاغطة الحزينة لتلك العبارات .

وقد وصل ريسكره إلى ليدن سائراً على قدميه بالطبع . وهناك أمضى ثمانية أعوام من شبابه فى ظروف معدمة «مزىلا الجوع» — على حد تعبيره — بالأطباق الغنية من مجموعة مخطوطات وارنر . ولم يكتف بالقراءة فقط ، بل نسخ مكتبة كبيرة من المخطوطات التاريخية والشعرية ومن بينها كانت «حماسة البحترى» التى انتهى استنساخها فى ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٧٤٠ ، ولقد بقيت آثار دراسته لهذا المخطوط فى ملاحظاته على مخطوط ليدن والتى نقلتها إلى الصورة الشمسية للمخطوط التى أرتنى الطريق إلى الشخصية الرائعة ، لجدنا التعس الحظ فى العلم .

لقد جاء حقاً قبل أوانه . فى العصر الذى سيطرت فيه نظرية أن الاستعراب

يجب أن يقتصر على خدمة « علم اللاهوت المسيحي » ، جرؤ على أن يعلن : « أن اللغة العربية يمكن أن تكون مفيدة جداً للتاريخ والشعر وهذا ما يقوى رغبتي في أن تكون اللغة العربية عندنا أكثر شهرة وذيوعاً . ولا يهمني أن ما يسمى « بعلم اللغة المقدسة » ، يمكن أن يبنى على أساسها ... وإذا أردنا أن تساعد اللغة العربية ، فإنه ينبغي ألا تدرس كما يدرس علم اللاهوت . فبمساعدة اللغة العربية يجب العمل على تفسير واغناء التاريخ والجغرافيا والرياضيات والفيزياء والطب . وهكذا يمكن أن يعتبر ريسكه أول من نادى عن وعى وسعة بأن يكون للاستعراب دوراً مستقلاً في الاستشراق وفي العلم بصفة عامة . إلا أنه لم يستطع أن يحدد في نفسه من يشاركونه الشعور في نظريته ، وكانوا ينظرون إليه في أحسن الأحوال كالأحوال كان « إنساناً بالغ الغرابة يحترم دراسته الشرقية فوق كل شيء » ، وبمثل هذا تحدثوا عندنا (في روسيا) في القرن الثامن عشر نفسه عن مستشرق آخر غير مفهوم هو « دكر » صاحب المشروع المنسي لتأسيس « مجمع علمي أسيوى أو جمعية العلوم واللغات الشرقية » في روسيا وهو المشروع الذي فكر فيه لومونوسوف أيضاً .

وأن السعادة الوحيدة التي وجدها ريسكه هي في المخطوطات . ومن الصعب الآن أن نقرأ دون تأثر تلك السطور التي توجه بها إلى المخطوطات منتهياً من كتابة ترجمة حياته : « ليس عندي أولاد . فأولادى يتامى بدون أب أعنى المخطوطات . لقد ربيتهم بنفسي جد حزين حتى بلغوا رشدهم ، وخرجوا إلى النور . لكن ماذا سيكون من أمرهم بعد موتى ؟ ومن الذي سيتبناهم ؟ هل سيجدون قلباً وفيها أمينا سامى التفكير ؟ فليرعاهم الرب ! لقد عملت لهم كل ما استطعت من جانبي بل ولن أكف عن مساعدتهم بكل ما أطيق حتى آخر رمق في الحياة » .

وقد كان القدر ، لحسن الحظ ، رحيماً بالمخطوطات أكثر من رحمته بصاحبها العالم . فبعد موته وقعت في يد ليسدينغ المشهور مؤلف « ناتان الحكيم » ، وهو واحد من القليلين الذين استطاعوا أن يقدروا ريسكه في حياته . وبعد ذلك وصلت المخطوطات إلى مكتبة كوينهاجن . ورأى النور بعض من هذه المخطوطات . أحدها هو تاريخ أبي الفدا المنشور في خمسة أجزاء ، والذي لا غنى عنه حتى الآن لجميع

المؤرخين . وكان ريسكه هو الذى أعد هذه الأجزاء لنشرها . أما المخطوطات الأخرى ففى تعبر حتى أيامنا عن جهود « صريع الأدب العربى » التى لم تعرف الكلل . ولعل أخبار ريسكه قد وصلت حتى روسيا . فقد كتبت أولغا فورش فى روايتها « خميرة اليعاقبة » أنه عند وداع راديشيف والطلبة الروس فى عودتهم من ليزينغ « وصل يعقوب ريسكه العالم العجوز مؤسس علم اللغة الاستعرائية الذى لم يثق مطلقاً فى الحصول على غذاء غده » . ولعله لا توجد فى هذه العبارة حقيقة تاريخية مضبوطة لكنها تعكس تماماً حقيقة فنية وحياتية .

ولندع مستعربينا يتذكرون أن الوقت الذى حلم به — بتشاورم وعدم ثقة — أحد صريعى العلم « وهو الوقت الذى يقدر فيه الأدب العربى ويدرس باهتمام أكثر » نقول لندع مستعربينا يتذكرون أن هذا الوقت قد جاء ، وأن هذا يفرض واجبات كثيرة . وهناك منذ وقت بعيد يزين جدارن مكتب اللغة العربية بمعهد الاستشراق ، اقتباس من تاريخ حياة هذا العالم الذى لم يعترف به فى حياته . وعند النظر إلى هذا الاقتباس ، فإن الإنسان يتذكر عفواً . أية ظروف كان يعمل فيها أحياناً ، أجدادنا فى الاستعراب ، وأية قدوة عظيمة خلفوها لنا .

٢ — كركاس « الوديع »

(١٩٠١ — ١٩٤١)

فى شتاء ١٩٠٧ عندما كنت أدرس ذات مرة فى المساء عند البارون ف. ر. روزن ، وفى فترة الاستراحة عند تحليل بيتين من شعر الأخطل ، تذكرت وفاة كركاس منذ عشرين عاماً . وسألت روزن عن السبب فى أنه لا يعرف إلا الشيء القليل . ففكر البارون المعروف بحيويته المعهودة ثم تحدث بطريقة أبطأ من طريقته العادية قائلاً : « ولكن ماذا أقول عنه ؟ لقد كان رجلاً وديعاً ولم يكن يجب أن يتحدث عن نفسه أو يتحدث عنه الآخرون . لقد علمنى كلمات أيقور « عش مخفياً » . كان يخاف أن يشير غضب قدره إن

رآه الناس . وحتى في المحاورات البسيطة لم يكن ينسى دائماً : « الإستدراك » العربي فكان يقول دائماً : « سأتى لايكم في المساء إن شاء الله » . كان كركاس إنساناً مريضاً ، وقد عانى كثيراً ، وكان يعرف أنه لن يعيش طويلاً ، وكان يعمل في هدوء وانتظام دون أن يشعر به أحد . أجل ، كان فلاديمير فيدوروفيتش كركاس وديعاً لين العريكة ولكن إلى حد معين فقط لم يستطع أحد زحزحته إلى أبعد منه . لقد كد طول حياته ، وعندما شعر بأن نهايته تقترب ، انعزل جانباً ، ومات في هدوء كما كان في حياته بعيداً عن الجميع . وإن بعض الأشخاص لا يعرفون حتى الآن تاريخ موته بالضبط . على أنهم لم يكونوا عبثاً يلقبونه بالوديع ... لقد عمل كثيراً وبهدوء ودون أن يشعر الآخرون . وهانحن بكل عجلتنا وتسرعنا لم نستطع طيلة عشرين عاماً أن ننهي ما بدأه ... ، واستغرق البارون في التفكير . ولم استطع بالطبع أن أخمن المعنى الذي قصده بتليجه ، لكن كان من الواضح أن نموذج المعلم « الوديع » للبارون وصديقه قد أثار في نفسه ذكريات الماضي . إلا أن البارون لم يرد أن يتحدث عن ذلك لأن كركاس ذاته لم يكن يحب أن يتحدث عن نفسه .

وفي الحق لقد عمل كركاس كثيراً . وفي وقت تلميذتي في بداية هذا القرن ، والآن أيضاً بعد ٦٠ عاماً من وفاته ، أحاطت كتبه بطلاب الجامعة من بداية دراستهم حتى نهايتها . وفي السنة الأولى بالجامعة ظهر في أيدينا قبل كل شيء « كتاب القراءة للصف الأول » الذي أعده كركاس وروزن . ولم يكن لنا حاجة آنذاك إلى كتاب مطبوع في النحو . فقد كان يكفينا كشكول المحاضرات الذي كنا نسجل فيه ما كان يقوله المعلم . وفي السنة الثانية التقينا بكتاب القراءة الكبير لهاتين الشخصيتين بالذات ، وقد الحق به قاموس كبير أعده كركاس وحده . وظللنا نلزم هذه الكتب حتى نهاية الجامعة بل وأبعد من ذلك . وحتى الآن وبعد ٦٥ عاماً من ظهور القاموس العربي الروسي لكركاس ، لم يظهر مثل هذا المعجم الأصيل للغة العربية القديمة . وقد ظهر التفكير منذ بداية هذا القرن في إعادة طبع المعجم . لكن من الصعب جداً أن يتقرر ذلك ، خوفاً من أن تخرج هذه الطبعة أقل جودة من طبعة كركاس الأولى . وفي السنة الثالثة أضيف

إلى المصادر الاعتيادية ، طبعة كركاس لتاريخ القرن التاسع الميلادي لأبي حنيفة الدينوري ، وأضيف أيضاً كتاب الفقه الإسلامي ترجمة كركاس عن اللغة الهولندية . وقد استعبدنا للامتحانات النهائية بالجامعة في تاريخ الأدب العربي بناء على كتابه الذي نشره بالزنگراف .

وهكذا كانت نحيط بنا كتب كركاس دائماً . ومع أنه لم يكن قد مضى على وفاته انذاك ، سوى ما يقرب من ١٥ عاماً ، إلا أنه كان يتمثل لنا في صورة أسطورية بدأ يكسوها الخيال ، مثلاً عن انتساب مولده إلى الشرق . (وهو في حقيقة الأمر بيلوروسى — ليتوانى) . ولم أكن أظن في تلك السنين أن المخطوطات في هذه الحالة أيضاً ، ستفتح لى فيما بعد ، كثيراً من الجوانب التي إن لم تكن تتعلق بشخصية كركاس فإنها تتعلق بحياته الكادحة التي لم يكن يعرف عنها إلا أناس قلائل ، ولم أكن أفكر أن بعضاً من أعماله ستظل تصحبنى حتى أيامى الأخيرة .

في نهاية عام ١٩٠٧ ، والحديث يدور عن سفرى إلى سوريا ، أعطاني وزن ذات مرة دفترًا عادياً صغيراً مكتوب بخط كركاس بطريقة دقيقة جميلة ويتضمن ما يقرب من ٥٠٠ مثل شعبي . من المحتمل أنه جمعها في وقت وجوده في سورية ومصر في بداية العقد السابع من القرن الماضي . كانت أهمية هذه الأمثال تلخص بصورة رئيسية في أنها لا تعكس اللغة العربية الفصحى بل لهجة التخاطب العامية التي لم يفكر العلم الأوروبي في ذلك الوقت في دراستها دراسة منظمة . كشف هذا الدفتر الصغير عن عمل كركاس في هذا المجال الذي لم يعد إليه فيما بعد .

وأحسست فيه سلفاً لى مهتماً باللغة العامية ، وفهمت مدى أهمية نشر هذه المجموعة حتى في تلك الأيام وبعد مرور عشرين سنة على وفاته . وكان يجب التحقق من صحة هذه المجموعة في المكان الذي أخذت منه ، لكننى لم أخاطر بأخذ الدفتر في أول سفرة لى إلى الشرق في سورية ولبنان مع أنى كنت مراراً في تلك الأماكن التي زارها كركاس . وكان ذلك من سوء الحظ ، ذلك لأنه لم يتيسر لى مرة أخرى أن أزور العرب في وطنهم . ولم أستطع أن أتتحقق كاملاً

من صحة تسجيلات كركاس عن طريق لغة التخاطب العامة الحية . وظلت مجموعة كركاس الصغيرة غير مطبوعة مع أنه تجمع عندي غير القليل من المواد المماثلة لهذه المجموعة . ولم يصدر إلا جزء صغير طبع في كتاب القراءة الذي أعده احد تلاميذي .

على أني كثيراً ما تذكرت كركاس هناك في الشرق وأنا أقوم بعمل آخر في أحد الأوقات . فعندما كنت في فترات التلمذة بالجامعة وفي محاضرات الأستاذ ن . ا . مدنيكوف ، درست تاريخ أبي حنيفة الدينوري . وكنت دائماً أنظر إلى العبارة الفرنسية على جلد النص العربي لهذا الكتاب كما لو كانت لغزاً . وهذه العبارة تقول: «La préface et les index paraîtront plus tard» (دستشر المقدمة والفهارس فيما بعد) . وكانت حركة العلم والحياة تبدو لي بحكم الشباب أسهل بكثير من وجودها في واقع الأمر . وتحيّرت في سر امتداد « فيما بعد » منذ أن ظهرت الطبعة في عام ١٨٨٨ حتى القرن العشرين . إلا أنني مع الوقت عرفت كل قصة الطبعة وهي قصة لها دلالاتها من ناحية سمات العلاقة بين كركاس وروزن .

كان مخطوط الدينوري يعتبر انذاك مخطوطاً فريداً . وكان إحدى لآلى مجموعة القسم التعليمي لوزارة الخارجية التي انتقلت بعد الثورة إلى معهد الاستشراق . وقد وصل هذا المخطوط إلى هناك مع مجموعة «ايتالينسكي» ، سفيرنا السابق في استانبول وروما ، الذي لم يكن أميراً كما قد يخيّل من اسمه ، ولكنه خريج الأكاديمية الروحية في كييف ، ودكتور في الطب من جامعة لندن . وعندما كان في الستين من العمر تعلم اللغة العربية في تركيا ، وأصبح مولعاً بمجمع المخطوطات ، بل كان أحياناً يضارب في شرائها النساوي المشهور هامير . على أن البارون روزن عندما كان يعد فهرسه ، اكتشف حقيقة مخطوط تاريخ الدينوري . وكا روزن أول من قدر الأهمية الرائعة لهذا الأثر . ونقل منه نسخة كاملة عازماً على نشره . إلا أن أعمالاً أخرى جذبت إليه ، وفي العقد التاسع (من القرن الماضي) عدل عن فكرة نشره وأعطى نسخته لكركاس . وهذا أعد طبعة المخطوطات بعد مقابلته مع صورة أخرى له كانت قد وصلت في ذلك الوقت إلى مكتبة ليدن . وكانت قد كتب بخط المؤرخ والخطاط والديبلوماسي المشهور

في عصر الغزو المنغولي ، ابن العديم الحلبي . على أن كركاس لم يقدر له أن يرى المخطوط مطبوعاً فأكمل وزن طبعتها . وعند ذاك ظهرت على الغلاف تلك العبارة التي تتعلق بالمقدمة والفهارس . ولعل هذا ما كان يقصده وزن بتلييحه في إجابته على السؤال الذي وجهته إليه عن كركاس . ولم أرد أن أسأله عن هذا مباشرة . على أنه بعد موت وزن ، وعندما توجهت إلى الشرق ، أخذت معي دون أي غرض خاص نسخة من طبعة كركاس .

وهناك في رحلتي طيلة عامين . غالباً ما كانت تصيبني فترات من توتر المزاج لم أكن أرغب فيها مقابلة الناس . ووجدت لنفسى انقذاً وسلوى في أي عمل مع المخطوطات أو الكتب . هكذا حدث في صيف ١٩٠٩ . وعندما تذكرت عمل كركاس غير المنتهى بدأت من ١٥ حزيران (يونيو) في إعداد فهارس تاريخ الدينوري . وكان ذلك في ناحية طرابلس القريبة من البحر في مدينة صغيرة هادئة هي الميناء حيث عشت في حجرة من الطابق الثاني من منزل صغير ولها نافذة تطل على فناء صغير نظيف مرصوف به بستان صغير . وكانت تنمو في الفناء شجرة « دفل » كبيرة تمتد فروعها المزهرة إلى شباك حجرتي مباشرة . وقال أصحاب المنزل أن رائحة هذه الشجرة تطرد البعوض . على أن مناظر الطبيعة لم تعطيني من الهدوء إلا قليلاً . ولم أجد ما يلهيني إلا في العمل على الفهارس . وانتهيت منها بعد شهرين في ٢٢ آب (أغسطس) في « أميون » ببلدان إلى الجنوب الشرقي من طرابلس .

وهناك في « أميون » كنت أسكن أيضاً غرفة رحة في الطابق الثاني تطل على أشجار الكرم في سفح جبل لبنان . وهناك كانت الطبيعة جذابة رائعة ، لكنها كانت ذات نغمات نشاز غير متوقعة . فقد عدت مرة في المساء واستطعت بالكاد أن أرى ثعباناً ملتفماً على سريري . ومرة أخرى كنت شاهداً عن غير قصد لحالة ثار من معلم مدرسة طعن بالسكاكين بعد أن تربص له أحدهم في الظلام . وقد زحف بصعوبة حتى باب حجرتي وظل أسابيع طويلة ممدداً فيها . هذا بينما كان عملي يسير بدقة ، وشغلت الفهارس أكثر من ألفي بطاقة ربطتها باهتمام . وفي صيف العام التالي حملتها معي إلى روسيا .

كان العام الخامس والعشرون على يوم وفاة كركاس يقترب . وكنت جد
راغب في أن أشير إلى ذلك بأية طريقة . وفي بداية عام ١٩١١ كتبت إلى دار
« بريل » للطبع والنشر في ليدن المعروفة بين مستعربي العالم كله ، ما إذا كانت
ترغب في الوفاء بالوعد الموجود على غلاف تاريخ الدينوري فتنشر الفهارس التي
أعددتها له . وكانت دهشتي عظيمة عندما تسلمت في أقل من أسبوعين رداً على
رسالتي ولم يكن هذا الرد رسالة فقط ، بل ومعه أوراق مطبوعة للفهارس مع
طلب فحصها . واتضح من رسالة الدار أن هذه الفهارس أعدها تلاميذ روزن
منذ العقد العاشر ، وأن روزن قد حررها بنفسه وتم طبعها في ١٩٠٤ ثم تعطل
الطبع من أجل المقدمة التي لم يرسلها روزن إلى دار بريل بالرغم من تذكيره .
وقد خفت تحت تأثير الانطباع الأول من أن يكون عملي قد ذهب بدون
جدوى . إلا أن الألفي بطاقة لم تذهب هباء منثورا . فقد أظهر لي فحص لفهارس
روزن أنها أعدت بنظام يختلف عما عندي . و أعطتني هذه البطاقات إمكانية لضبطها
والتحقق من صحتها بمقابلة كل منها بالآخرى . وإلى جانب ذلك كانت لك الفهارس
لا تحتوي على بعض الأقسام التي كانت موجودة عندي والتي كنت قد أعدتها .
وكان من السهل آنشد إكمال الطبعة . واقترحت على بريل إعداد المقدمة الناقصة
مع تحليل للمخطوطات التي استخدمت أساساً في طبعة كركاس . ومع وصف المواد
التي تجمعت منذ تلك الفترة . ومع اختصار لمعلومات عن تاريخ حياة المؤلف ،
واستعراض لمؤلفاته وبخاصة التاريخ الذي يمثل إحدى المحاولات المبكرة في الكتابة
العربية للعرض العملي . ولم تكن هناك أية مسودات عن موضوع هذه المقدمة
في أوراق روزن التي كانت محفوظة آنذاك عند تلميذه الأكبر ف.ا. جوكوفسكي
المستشرق في الفارسية . وكان قد تجمع عندي طيلة السنين الأخيرة كثير من
المواد اللازمة ولم يكن من الصعب طلب إرسال مخطوط ليدن إلى بطرسبورغ
في نفس ذلك القسم التعليمي لوزارة الخارجية حيث كانت تحفظ مخطوطتنا
الفريدة سابقاً .

وانتهيت من عملي في مستهل خريف عام ١٩١١ . ووصلتني بسرعة الملازم
للمطبوعة في ليدن . واستغرقت مراجعة طبعها الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩١٢ .
واتفق أن ظهرت المقدمة والفهارس بعد انتظار طويل وبالضبط قبيل مرور ٢٥

عاماً على وفاة كركاس ناشر الطبعة . وقد اهديت هذا العمل لذكرى أولئك العلماء .
الثلاثة الذين كان لهم الفضل الخاص في الكشف عن نص تاريخ الدينوري وطبعه .
إثنان منهم روسيان هما روزن و كركاس والثالث هو الهولندي دي جوييه . وقد
لقي هذا العمل تجاوباً في المشاعر من العلماء العرب والغربيين . وتذكر العلامة
أخرى اسم « الوديع » كركاس معترف له بالجميل .

على أنني أدركت أننا لم نوف تماماً ديننا قبل ذكرى كركاس . وقد كانت
تذكرني به ظروف متباينة . فقد كانت في مكتبة الجامعة أجزاء « كتاب الأغاني »
وهو كتاب أشعار لا يتدر بشئ من القرن العاشر . وكان كركاس قد أعد
فهارس هذه الأجزاء في مجلد ضخيم اشتركا منه في ذلك العمل السري الكبير .
ولم يظهر هذا المجلد مطبوعاً إلا عام ١٩٠٠ . وبقي حتى الآن إحدى « التوسعات »
الرائعة لعملنا . ومن جديد استطعت أن أرى من نسخة المكتبة مدى القيمة التي
أعد بها كركاس طبعة هذا المجلد الضخم للفهارس . وهذه النسخة هي من طبعة
بولاق وكتاب الأغاني . وقد كتب كركاس على هامشها بخط عرب وبنبروف
منظومة صغيرة . وهناك عند أحد تجار الكتب القديمة ، وجدت بالمصادفة بعض
كتب كركاس ، ومن بينها كشكول مسودة كبيرة كتبها كعادته بخطه البنيق
دقيق ، فيها اقتباسات وتعليقات وملاحظات عن تاريخ الأدب العربي . وقد تضمن
كتابه المنشور بالزنكوغراف أقل من نصف هذه المسودة . الأمر الذي يظهر
مدى جدية كركاس في عمله في الفترة التمهيدية ومدى قدرته في جعل مادة المسودة
خاضعة لمطالب البناء العام للكتب . وقد نظرت طيلة هذه السنوات كذلك في
تلك المخطوطات العربية القليلة التي وصلت منه إلى مكتبة الجامعة . كما فتحت هذه
المخطوطات أمامي جوانب مختلفة من اهتماماته وجهوده .

ومنذ عام ١٩١٧ صرت أقرب إلى فهم ومعرفة كركاس . فقد كنت في ذلك
الوقت الأمين العلمي للكلية . وكانت تعد في ذلك الوقت كتابة تاريخ كرسى اللغة
العربية هذا التاريخ الذي لم ير النور . ولهذا السبب كان يلزمي أن أتوجه مراراً
إلى الأرشيفات ، الأمر الذي كان يجمعني مراراً بكركاس . وكان تقريره عن
السنوات الثلاث التي قضاها في الشرق ، والمحزون في محفوظات الكلية ، قد سبق

انطباعاتي الخاصة التي نلتها أنا بعد ٥٠ عاماً . وهكذا شعرت في المؤلف سلفاً أخيراً
لى من جامعة بطرسبورغ . لقد سبقنى في الاهتمام بالشرق العربى الحى بلهجاته
وبأدبه الحديث الذى كان قد ولد لتوه آنذاك . ثم رأيت وقد نهض نهضة كبيرة .
كان كل شىء يجذبني نحو كركاس . وقد أردت من جديد ، بمناسبة مرور أربعين
عاماً على وفاته ، أن أنوه به فى مقالة خاصة و ، بكلمات وديعة طيبة ، . وبعد ذلك
بوقت قليل ، قمت بمثل هذا فى كتابي الخاص الذى يتعلق بأحد أسلاف كركاس
هو الشيخ الطنطاوى المصرى .

وقد جمعت بعناية ، كل ما استطعت عن تاريخ حياة كركاس العلية ، وجهوده
غير المرئية . ومن خلال هذا وحده أمكن الإحساس بشخصيته . لكن المادة
التي تصور شخصيته لم تكن كافية لتمسكه بدقة بمبدأه عش مخفياً ، . على أن إحنى
الصور الشمسية القديمة احتفظت لنا مصادفة بوجهه المريض . وبطابعة البياوروسى ،
وبعينيه الهادئتين المفكرتين ، ولحيته الدائرية الصغيرة . ويشير شعره الطويل
إلى أنه لم يكن ممثلاً عادياً للموظفين الإداريين المهنيين فى عصر الإصلاحات ،
للقيصر الكسندر .

وظهر بعد مقالتي أحد المصادر الذى يعكس دائماً طبيعة الرجل أحسن مما
تعكسه أعماله المطبوعة أو أوراقه الرسمية . أعنى بهذا المصدر رسائل كركاس
وأخته إلى رومن . وكان كركاس قد قضى مع أخته الأعوام الأخيرة من حياة
عزوبته ، والآب وبعد انقضاء عشرات الأعوام أمكن الاستفادة من هذه
المراسلات . لكن يداً خيرة دقيقة مهمة هى وحدها التي تستطيع أن تلتشل من
هناك حقائق قليلة غير معروفة بعد ، عن تاريخ حياة كركاس العامة . وكان الشىء
الاهم هو أن يستخلص منها العديد من السمات الصغيرة لتصوير شخصية ، الوديع
فلاديمير فيدوروفيتش كركاس ، . وقد أمكن الشعور من هذه المراسلات بتدفق
وداعته . وقد كتب هذه المراسلات بخط دقيق ، دائم الانتظام ، فى ترن بنعمة
هادئة من أخ أكبر إلى أخ أصغر أو أحياناً إلى صديق ، قلق ، ذى ميول علمية
منظمة لا تعرف السكلل . وقد قدر كركاس فى صديقه هذه الميول عالياً ، ومبكراً ،
استجاب لها كركاس بطيبة خاطر منذ العقد الثامن .

وحتى الآن لم نف بدیننا قبل ذكرى كركاس وليس فيما يتعاقب مراسلاته

فحسب . ونحن أنفسنا مذبذبون في هذا التباطؤ وإن لم يكن دائماً . وإذا كانت مجموعة الأمثال التي جمعها لم تنشر حتى الآن . فإن ما أعاق ذلك هو المبدأ القديم « الأحسن عدو الحسن » أي السعي من أجل إيجاد ما يناسب الأمثال التي جمعها كركاس من المطبوعات المختلفة التي ظهرت منذ زمنه . على أن العمل سنين طويلة أظهر أنه لا يمكن استنفاد الشيء كله . وأنه من الأفضل أن ينشر ولو الصلب الرئيسي في ذلك الشكل الذي تركه عليه كركاس .

على أن ثمة عملاً أكبر من سابقه ، هو إتمام عمل أجيال العلماء الروس في دراسة تاريخ الدينوري الذي كشفه روزن ونشره كركاس . وكان يلزم العلماء الروس القيام بترجمة علمية انتقادية لتاريخ الدينوري . وكانوا ينتظرون هذه الترجمة منذ مدة طويلة . بل أن روزن فكر فيها في وقته وأعطى أحياناً لتلاميذه أجزاء منفصلة منها . ثم ظهر التفكير في هذا العمل من جديد في نهاية العقد الرابع واتخذت هذه الأفكار شكل عمل مشترك . وقد اقترب هذا العمل من نهايته في مستهل عام ١٩٤١ ، وكان هناك مترجمون جديون لترجمة جميع أجزاء تاريخ الدينوري . وكان هناك أيضاً أمين نشيط موهوب « للجنة الدينوري » وهو أمر مهم بصفة خاصة . وكان من الممكن إذن التفكير في تحرير الترجمة نهائياً ، إلا أن حصار لينينغراد في ذلك الوقت أهلك الأمين وبعض المترجمين ... وحفظت المواد ولكنه كان من الصعب العمل على إنهاء الترجمة بقوة ضعيفة ضائعة . ولعل الأجيال القادمة تقوم بأداء هذا الواجب .

ولقد كتبت هذه السطور آملاً في أن تقع في يد واحد من أولئك الذين سيسلمهم القدر مشعل الاستمرار في استعرا بنا . فليحاولوا ما أمكنهم — كما حاولت أنا في وقتي — أن يحيوا تلك الذكرى ويواصلوا ذلك العمل الجدير لتلك الشخص الذي لقبه المعاصرون بكركاس « الوديع » .

٣ - نصف قرن في دراسة مخطوط واحد

(١٩٠٣ - ١٩٢٨)

ثمّة مخطوطات تشعّر بنفسك أمامها كأنك تلبّذ أسطوري لساحر استحضّر
الأرواح ثم لم يستطع تسخيرها. فما أن تتذكر هذه المخطوطات أو تهتم بالحديث
عنها، حتى تهب على الفور سلسلة من الأشخاص من القرون البعيدة الماضية، ومن
الأعوام القريبة من حياتك الخاصة، وإذا الأمر يقتضي أن تكتب عن هذا
إما رواية وإما كتاباً كاملاً. ولكن لما كانت حياتنا هي على رأى القائل «عمر
الفأر فرار» فمن لا تسمح بإعطاء كثير من الوقت لموضوع واحد. وتراك بقوة
الإرادة تطرد ما يقف أمامك من الأفكار لا سيما عن تلك المخطوطات بالذات
التي هي عزيزة عليك بصفة خاصة والتي تتعاش معها. لكن المخطوطات تكون
أحياناً عنيدة وتجمّد نفسك عاجزاً عندما تسألك بقوة وتحكم: «من ذا سيتحدث
بعدك عن هذا؟ أترى أعطيناك الحق في أن تطوى هذا بانطوائك؟» إن أوامر
العالم الخالد على مدى القرون أوامر جدية، وسوف تتحنّ لها إرادتك الذاتية
في آخر الأمر.

قليلاً ما تمر في ذاكرتي المخطوطات القديمة المرتبطة بعالم معاصر بتلك الدرجة
التي ارتبط بها مخطوط لينينغراد «ديوان الأخطل» - صديق يوحنا الدمشقي -
مع ناشره العالم البيروقي الصالحاني العربي من دمشق. ولقد جاء اسم هذا الشاعر
في ذكرياتي منذ وقت بعيد عندما كنت في الصف الثاني بالجامعة عام ١٩٠٣.

وعندما كنت أتنقل بعجز تام عبر صفحات كتاب القراءة الضخم لكراس
وروزن، وصلت بالمصادفة آنذاك إلى ثلاثة أبيات أدهشتني. وقصة هذه الأبيات
هي أن الخليفة اقترح على الأخطل المسيحي أن يعتنق الإسلام فأجابه الأخطل
منشدّاً بارتجال إما ساخراً وإما تحت تأثير الخمر قائلاً:

«ولست بصائم رمضان طوعاً	ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بقمائم أبداً أنادى	كثّل العير: حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً	وأسجد عند منبج الصباح»

على أن الشاعر لم يعاقب على هذا الهجوم لتجريم الإسلام الخمر . والصوم والخج والآذان . وقد هدأ غضب الخليفة بيتان ليسا أقل دعاية ، وفيهما صور الشاعر حالته تحت تأثير الخمر .

أعطتني هذه الآليات القدرة على فهم العلاقات الداخلية للخلافة بصورة أكبر مما أعطتني إياه بعض الصفحات عن « تاريخ الإسلام » للعالم ميولر الذي قرأته أكثر من مرة . وبالطبع فإن هذه الأشعار متجاسرة . ولذلك فإنها عندما ظهرت مطبوعة لأول مرة في بيروت في العقد العاشر من القرن الماضي ، كان من غير الممكن أن تمر من رقابة المطبوعات التركية إلا بواسطة وضع نقطة على كلمة « العير » التي وصف بها الشاعر المؤذن ، فصارت كلمة لا تؤلم المسلمين هي كلمة « الغير » . وهكذا كانت رقابة المطبوعات التركية في القرن ١٩ أكثر تشبهاً من خليفة دمشق في القرن الثامن . على أن الناشر الماكر فلت من الرقابة في شيء آخر هو أنه حافظ بدون تغيير على كلمة « العير » في النسخ الأخرى المخصص إرسالها إلى أوروبا .

وكنت قد سمعت التفاصيل عن هذا الناشر لأول مرة من البارون روزن ، عندما اقترح على في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٦ عند تخرجي من الجامعة أن تتدارس كل ديوان الأخطل . وكان هذا بالنسبة لي عيدين . فمن جديد عاد إلى الشاعر الذي التقيت معه صدفة في كتاب القراءة ، والشئ الثاني أنني أستطيع أن أعرف عن قرب إلى مخطوط أشعار مشهور عندنا كان أساساً للطبعة .

وكان هذا المخطوط قد وجد آنذاك في القسم التعليمي بوزارة الخارجية ودخل إليه ضمن مجموعة ايتاليينسكي نفسه . خريج المدرسة الدينية ، الطبيب ، السفير . العالم في الآثار القديمة ، الذي حفظ لنا أيضاً مخطوط تاريخ الدينوي . وعلى حد تعبير روزن فإن المخطوط كان أحسن مازين مكتبة ايتاليينسكي ، وصار درة مجموعة القسم التعليمي . واستطاع العارفون « الشامون » أن يجدوا هذا المخطوط . وفي عام ١٨٦٧ نقل منه نسخة لنفسه رزق الله حسون المهاجر العربي ومترجم كريلوف والذي عاش آنذاك في بطرسبورغ ووقعت هذه النسخة بعد عشرين عاماً في بيروت وأعطت الدفعة الأولى لطبع المخطوط .

وقبل هذا الوقت فكر المستعرب الانكليزي ف. رايت في نشر مخطوطنا .
ولكن ، تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن ، كما قال الشاعر العربي . فإن رايت
يستطيع تنفيذ خطته لانتهاه طريق حياته في عام ١٨٨٩ . على أن روزن في
الحقيقة هو الذى كشف عن هذا المخطوط في فهرسه . لكن قبل ذلك أيضاً كان
مؤرخونا الروسيون يعرفون أنه توجد عند الأخطل إشارة إلى الصقالبة تكاد
تكون أقدم إشارة معروفة عند العرب . وفيها يقول :

« عوادل عرجا عن أناس كانوا يرين بهم جمع الصقالبة الصهب ،

وقد اتفق أنه في السنة التى مات فيها « رايت » وقعت نسخة حسون في
بيروت . ويمكن القول بأنها غيرت هناك مجرى حياة عالم ليس بشاب هو أنطون
صالحاني . وقد كتب هو نفسه فيما بعد يقول : « فلما قرأنا هذه الصفحات الحية
بنفس الشعر المحض قد عزمنا على أنه لا يجب أن نترك هذا الكنز مغلقاً إلى أبعد
من ذلك » . وكان الصالحاني قبل ذلك قد اشتهر في العلم كعالم لغوى يعتد به
ذى معرفة دقيقة بآثار أدبه القومى . فقد أصدر طبعة من خمسة أجزاء (لآلف
لميلة و لميلة) وهى الطبعة الوحيدة الصالحة للانتشار الواسع . وأعد بدقة ونجاح
كتاب المنتخبات من (كتاب الأغاني) الضخم . والآن تحول كل اهتمامه تقريباً
إلى دراسة واحد من أهل وطنه الأقدمين هو الأخطل .

على أن الصعوبات لم تكن بالقليلة لاسيما الصعوبات الفنية . فقد كان من غير
الممكن في ذلك الوقت أن يرسل مخطوطنا إلى بيروت ، والصور الشمسية لم تكن
شائعة آنذاك . وهنا اقترح روزن حلاً للخروج من هذه المسألة . وبناء على هذا
أعد الصالحاني طبعة المخطوط حسب نسخة حسون ، وأرسل مسودة الطبع إلى
بطرسيبورغ حيث قام روزن بمقارنتها مقارنة كاملة مع أصل المخطوط وأضاف
إليها جميع الملاحظات والتعليقات التكميلية . وخرجت الطبعة بسرعة في بيروت .
وكان قد بدأ طبعها في عام ١٨٩٩ . وبعد عام انتهى طبع أربعة أجزاء تضمنت
كل مخطوطنا مع تعليقات تفصيلية دقيقة . وبدأ العمل في إعداد الفهارس وتصحيح
النص الإضافي وجمع الاقتباسات من مختلف المصادر . وكما يحدث في العلم مراراً

أخذت تظهر . عند توجيه كامل الاهتمام ، مواد جديدة كما قيل في المثل « من سار على الدرب وصل » . فقد وجد مخطوط في بغداد وبعد ذلك وجد آخر في اليمن . وكلاهما في الحقيقة ناقص ومعيب ، ويتألف من أوراق غير كاملة في تسلسلها ، لكنهما حملا كثيراً من التفسيرات والتوضيحات الجديدة . وقد نشرهما الصالحاني كليهما في عامي ١٩٠٥ و ١٩٠٧ مستفيداً من تقدم خدمات فن الطباعة الفوتوغرافية .

وقد اتفق ظهور هاتين الطبعتين مع بداية دراستي عند روزن . فأراد أن يرجع من جديد إلى الشاعر الذي أهداه منذ ١٥ عاماً ما ليس بالقليل من الوقت والعمل . وقد كان الصالحاني يحب روزن ويحترمه .. وبناء على طلب الأخير سرعان ما أرسل إلى طبعاته ، وعند ذلك شعرت بشيء من الفخر . لحداثتي في العلم ، ذلك أن الفرصة السعيدة سمحت لي بالدراسة في كتب أملكها . إن مثل هذه المدرسة لدراسة التحليل النصي استناداً إلى تلك المخطوطات الثلاثة والكتاب المطبوع أقول أن مثل هذه المدرسة كانت صعبة لي في الفترات الأولى غير أنها كانت مفيدة جداً . وأخذنا عاماً كاملاً ندرس . باجتهاد ، القصائد البدوية الأصيلة من أشعار « حذاء الإبل » ، « لمطرب بني أمية » . هذه القصائد التي تعكس بوضوح حياة الخلافة في القرن السابع والثامن ، وتعرف جيداً بتقاليد الجاهلية القديمة برمتها .

وكانت المراسلات بين روزن والصالحاني لإحدى الأسباب التي جعلتني أنوجه إلى سورية في رحلتي إلى الشرق . وعندما سافرت إلى بيروت في صيف عام ١٩٠٨ وجدت في اليوم التالي الصالحاني ناشر الأخطل في جامعة القديس يوسف . وفي حجرة صغيرة ليس فيها إلا الأثاث الضروري جداً ، ظهر أمامي شيخ عجوز (كان آنذاك قد تجاوز الستين من عمره) إلى جوار منضدة غارقاً في الكتب وتجارب الطبع . وهذا الشيخ نحيف ، قصير القامة ، له عيون ثاقبة ، ولحية كبيرة بيضاء ومنظر خارجي أنجيلي صرف .

وكان يبدو عليه اتزان دقيق في علاقاته العامة لكنني شعرت أن ذكرى روزن — الذي لم يره الصالحاني مطلقاً — كانت بالنسبة له ذكرى مقدسة .

وقام من أول خطواتى هناك بالرعاية اللازمة لا لأمورى العلمية فحسب بل ولتنظيم حياتى المعيشية . وقد ألزمت كبر سنه بترك العمل الذى شغله مدة طويلة فى تحرير جريدة الجامعة ، والانقطاع عن التدريس فى المدرسة الثانوية . ولم يستطع أيضاً أن يقوم بالتدريس فى الجامعة . لكن هذا لم يمنعنى من الحديث معه أكثر من الحديث مع أساتذتى . وإذا كان فرق العمر بيننا ظاهراً وواضحاً فإنه سرعان ما قرب الأختل بيننا .

وفى ذلك الوقت كان الصالحانى يعد الجزء الخامس من طبعته للأختل مع جميع الإضافات والتعليقات الخاصة بنقد النص بصفة رئيسية . وكبر حجم هذا الجزء إلى درجة أن رأتى تقسيمه إلى قسمين يخصص ثانيهما للفهارس ، وكان من الممتع لى تتبع كل نظام العمل الذى كان على أعلى درجة من الدقة . وبلغ من دقة الصالحانى أنه كان يرى أوراق تجارب الطبع ما بين ١٠ إلى ١٥ مرة رغم دقة فن الطباعة البيروتية . وساعدت الصالحانى فى قراءة تجارب الطبع بارتياح كبير ربما يعود على بالنفع الكبير . وقد صدر القسم الأول من الجزء الخامس فى حزيران (يونيو) ١٩٠٩ . وبها العمل على الفهارس الذى اشتركت فيه أيضاً . وعندما فارقت الصالحانى فى صيف ١٩١٠ لم أكن أظن أن خروج هذا القسم الثانى سيؤجل إلى أعوام طويلة .

وكان الصالحانى يعمل دون كلل ، لكن الأختل وضع أمامه الجديد من المشكلات الواحدة تلو الأخرى وجذبه أبعد وأبعد بالمخطوطات الجديدة . وفى عام ١٩١٤ سافر هذا الناشر الجدير إلى استانبول خصيصاً من أجل الدراسة المباشرة لديوان أشعار هجرية موجودة هناك للأختل ولعاصره جرير . لكن اشتغال الحرب عطل كل خطته مدة طويلة ، وأثر تأثيراً كبيراً على الجامعة ودار الطباعة . ولم يبتدىء العمل من جديد إلا فى مستهل العقد الثالث ، واستطاع الصالحانى فى عام ١٩٢٢ أن يخرج طبعة عن مجموعة ديوان استانبول . وظهر فى النهاية بعد ثلاثة أعوام ، القسم الثانى من الجزء الخامس مع الإضافات والفهارس . لكن لم ينته بهذا عمل الصالحانى عن الأختل . ففى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥ قام بطبع منتخبات صغيرة من قصائد الأختل التى كانت حتى ذلك الوقت فى صورة

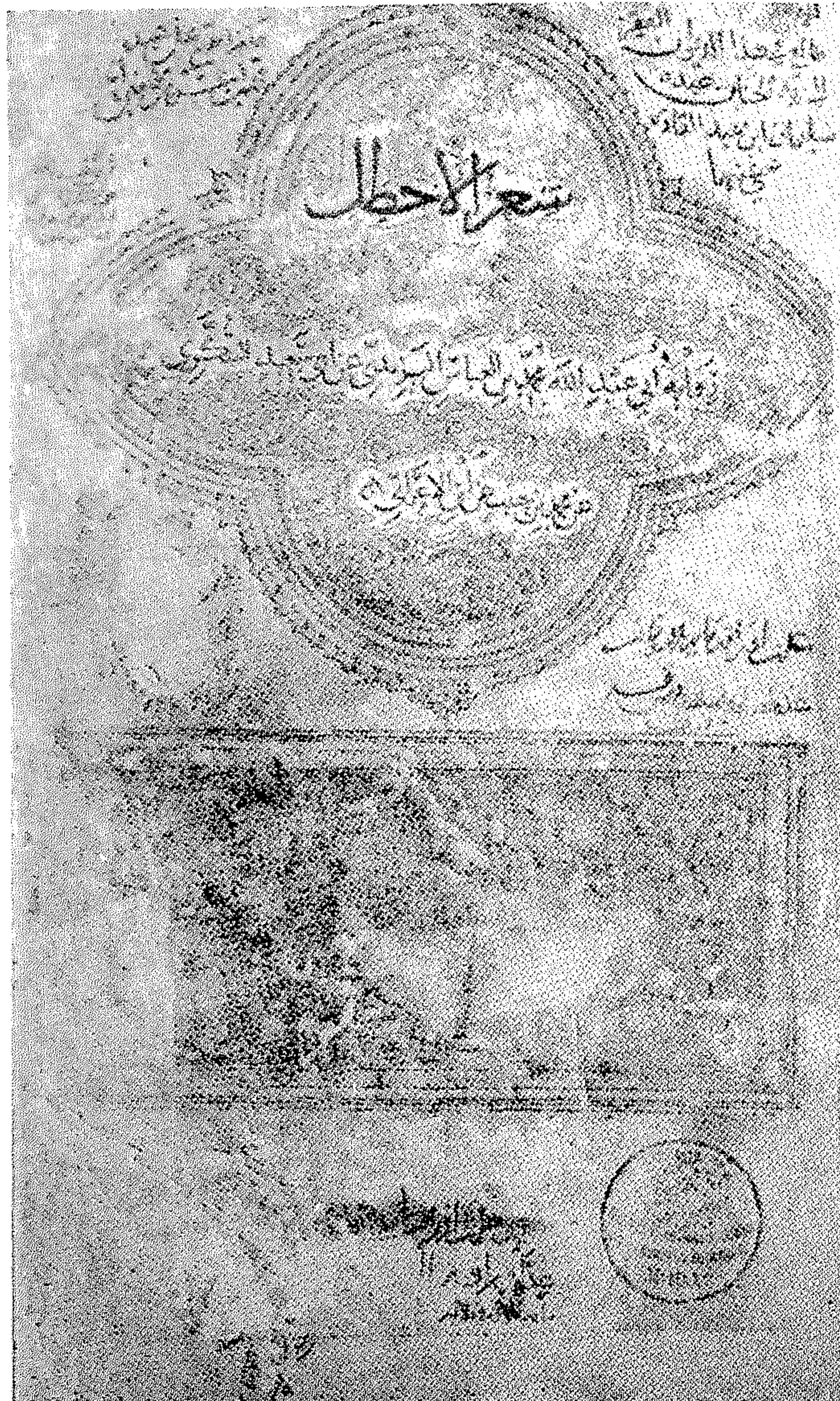
فوتوغرافية من مخطوطي النين وبوداد . وبالطبع لم يكن من السهل على الجميع أن يحصلوا على هذه النسخ .

وعندما انتهى من كتابة مقدمة هذه المنتخبات أشار إليها على أنها آخر طبعاته عن الأخطل . وبقيناً أن لهذا الرأي أساساً يقوم عليه من ناحية الحياة الإنسانية . ذلك أنه مرت خمسة وثلاثون عاماً على دراسته لمخطوطنا . واقترب عمره من الثمانين . وهو العمر الذي يكون فيه من الصعب على الإنسان أن يرسم خطة له عن أعمال بعيدة مقبلة .

لكن المخطوطات غالباً ما تسرق أقدار الناس على نحو غير متوقع ، وتوجههم حسب إرادتها ورغبتها . ومن الصعب جداً على الإنسان الذي تعايش معها ، أن يخرج من تحت سلطانها . وهذه المرة أيضاً لم تنقطع الصداقة بين الأخطل والصالحاني بطبعه لهذه المنتخبات في ١٩٢٥ . وفضلاً عن ذلك حدث لي أيضاً أنني لعبت بعض الدور في اكتشاف جديد ولم افترق أيضاً عن شاعري المقرب إلى .

ذلك أنه عندما كنت أعود إلى الشاعر من حين إلى حين بمناسبة مطبوعات الصالحاني بصفة خاصة ، شعرت بتضايق مامن أنايتي العلمية . فقد درست الأخطل أعزاًما كثيرة لكنني لم أكتب عنه أي شيء مع أن الموضوعات الصغيرة المختلفة والمواد العلمية عن الأخطل تجمعت عندي بكميات كبيرة . وكانت الفرصة المناسبة في عام ١٩٣١ عندما تسلمت دعوة للاشتراك بكتابة مقالة لمجموعة المقالات الدولية تذكراً لجورج يعقوب . ولقد قدرت على التقدير أعماله الرائعة في مجال الشعر العربي وبخاصة أبحاثه التي لا تداني في دراسته للحياة البدوية المبكرة على أساس تحليل الشعر الجاهلي .

وأردت أن أتبع في الموازيات المقارنة لأبحاث جورج يعقوب كيف تنعكس ألحان الخمر في أشعار الأخطل من الناحية الثقافية والتاريخية والأسلوبية . وأشرت في مقالي بطريقة عابرة إلى مخطوط آخر لأشعار الأخطل اكتشفه في طهران رفيقي الأصغر أ. روماسكيفيتش المستشرق في الفارسية الذي مات ميتة مؤلمة وقت محاصرة لينينغراد في ١٩٤٢ . وخرجت مجموعة المقالات التذكارية في عام ١٩٣٢



شعر الاخطل . عنوان مخطوطة من مجموعة ايتالينسكى . لينينغراد ، معهد شعوب
آسيا لدى اكااديمية العلوم السوفيتية .

مقبيل مرور سبعين عاما على هذا المستشرق المبجل . وأرسلت أول نسخة من مقالتي في هذه المجموعة إلى صديقي ومعلمي العجوز في بيروت حتى يرى كيف أن حبيبه الأخطل يعيش في فكرنا نحن أيضا .

وبعد شهر تسلمت رسالة من الصالحاني الذي فضل أن يكتبها بالقلم بدلا من الريشة وتحمل هذه الرسالة خطه الخاص الذي ألفته منذ عام ١٩٠٦ وها هو الآن عمره ٨٥ عاما ! كان يطلب مني أن أخبره عن بعض التفاصيل المتعلقة بهذا المخطوط الجديد ، وحاولت تلبية طلبه بمساعدة روماسكيفيتش الذي شاهد المخطوط في مكانه هناك في طهران .

وإلى هذا الحد انقطعت مراسلاتي مع الصالحاني . ولما كانت هناك صعوبة في العلاقات مع الشرق في ذلك الوقت فإني كثيراً ما فكرت فيما إذا كان معلمي البيروتي الأخير ما يزال على قيد الحياة أم لا . فلقد كان أكبر من كثير من الراحلين وقاسى طول سنياته من حمى مزمنة . وفي نهاية عام ١٩٣٨ تسلمت على غير انتظار مؤلفه الكبير الجديد عن تحليل مخطوط طهران مع إهدائه بخطه الشخصي وبكلمات رقيقة مؤثرة . وظهر أن جامعة بيروت بدأت بعد رسالتي في مفاوضات مع المالك الطهراني للمخطوط من أجل شرائه منه . واستمرت المفاوضات حول ثمن المخطوط أكثر من أربع سنوات . وفي آخر الأمر رحل المخطوط من طهران إلى بيروت في أيار (مايو) ١٩٣٧ . وفي آب (أغسطس) من هذا العام نفسه أتم الصالحاني من العمر تسعين عاما ، ومع هذا غرق في دراسة هذا المخطوط دراسة تفصيلية .

وبعد عام كانت في يدي نتيجة جهوده في طبعة منسقة مطبوعة بدقة ومحررة بطريقة ممتازة مع لوحات جميلة . وفي هذه الطبعة أشار الصالحاني في السطر الأول إلى مخطوطنا في بطرسبورغ الذي بدأ العمل فيه سنة ١٨٩١ ، وتناول الحديث في الصفحة الثانية عن ظروف اكتشاف مخطوط طهران الذي عثر عليه المستشرق الروسي . وفي الحق لقد كان مخطوط طهران يستحق الاهتمام . وتصورت مدى السرور الذي تمتع به الصالحاني — وهو في مغرب أيامه — في العمل على دراسة هذا المخطوط . ذلك السرور الذي كان أشبه بمكافأة له على أعماله مدة طويلة وتحية جديدة من شاعره الحبيب . وقد ظهر أن مخطوط طهران هو أقدم المخطوطات

المعروفة عن أشعار الأخطل وهو مؤرخ بالضبط في عام ١١٠٥ م . وهو ، بالمقارنة بباقي المخطوطات « أكمل منها ، وقد حوفظ عليه بطريقة أحسن منها .

ولم أتمالك نفسي من العجب من توافق غريب عرفته من الكتاب الجديد للصالحاني . ذلك أن هذا المخطوط الطهراني بالذات كان قد درسه التبريزي العالم اللغوي نفسه عندما كان عمره ٨٠ عاما . هذا التبريزي الذي سافر والمعجم على ظهره ليدرس عند أبي العلاء الشاعر الضرير « رهين الحبسين » . والتقيت من جديد مع التبريزي هنا في هذا الكتاب . وهكذا ظهر أن العالم ضيق بالناس الذين تلتقى معهم على نحو غير متوقع وفي مكان غير متظر ، وإذا عشت مع المخطوطات طويلا فإنك غالبا ما تلاقى — لدى التعريف الجديد — الصديق القديم في موقف جديد .

وبعد الحرب العالمية الثانية فقط وصلتني أخبار عن الصالحاني بأنه أنهى حياته التي قاربت المائة عام في ١٠ آب (أغسطس) سنة ١٩٤١ . والصالحاني الآن ، كما عبر لي كاتب الرسالة « ينام نومته الأخيرة تحت الأرض في جونه » . ولقد أهدى معلى البيروتي ما يزيد على نصف حياته إلى ابن وطنه الأخطل . « مطرب بني أمية » وإلى مخطوط أشعاره الموجودة عندنا في لينينغراد .

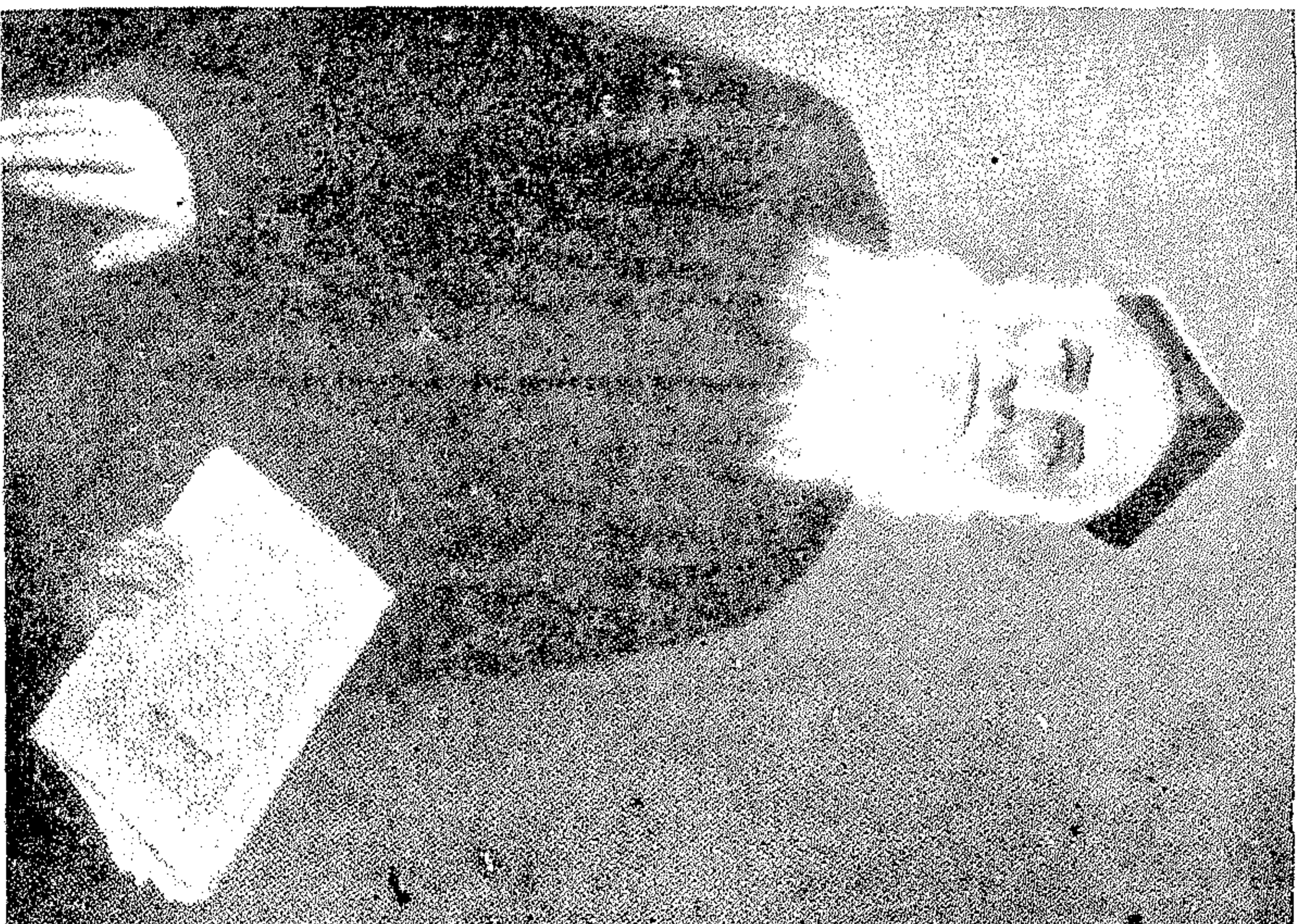


ف. ه. كركس (١٨٢٥ - ١٨٨٧)

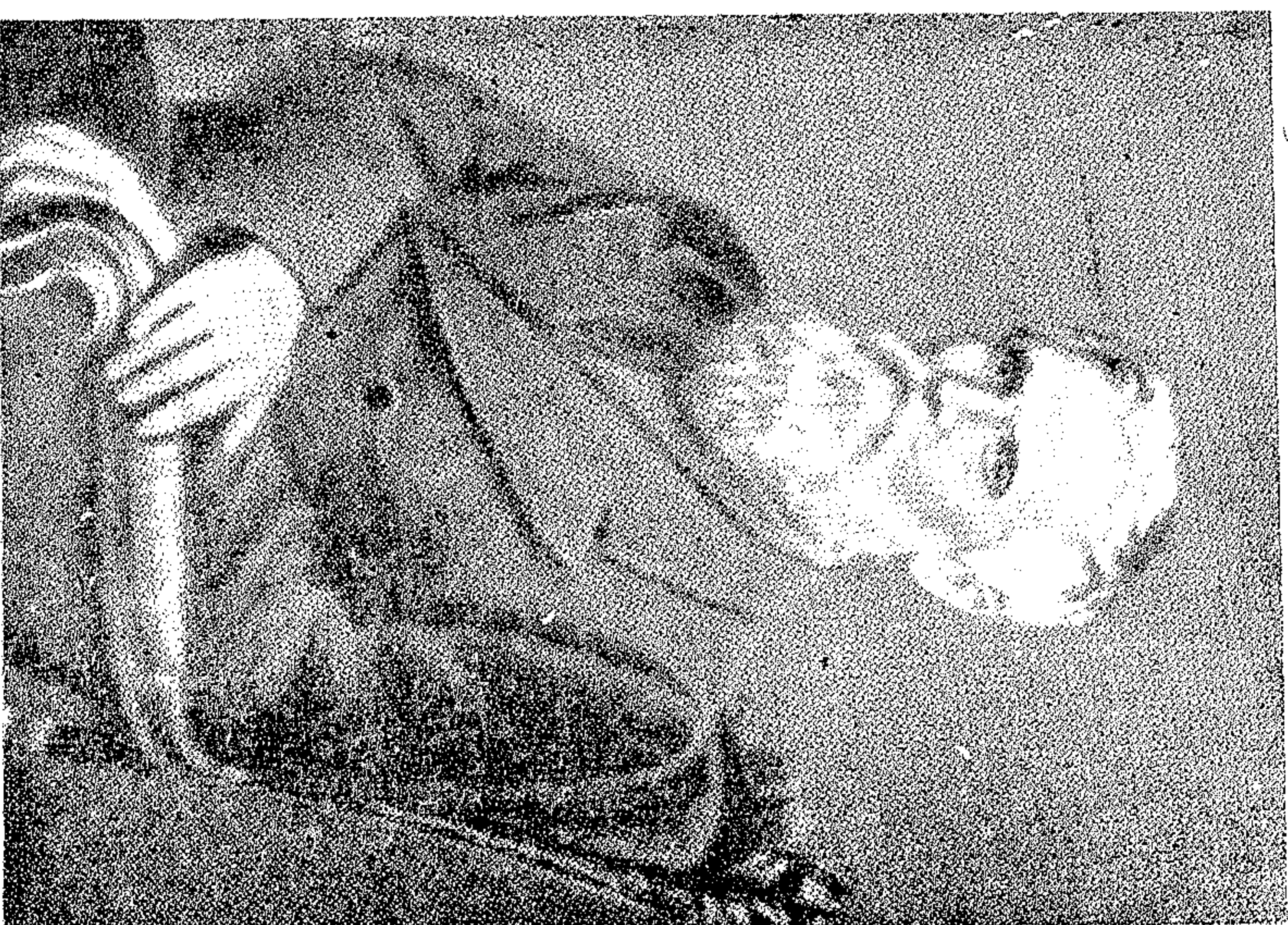


أ. ه. رستم (١٧١٦ - ١٧٧٤)

(۱۳۷۱ - ۱۳۷۱) انطون صالحاني



(۱۹۱۱ - ۱۸۶۷) س. س. سابلوگوف



خاتمة وترحم

REQUIEM AETERNAM...

إن روحى فردوس الظلال

ظلال صامته وضاعة رائعة .

تيوتشيف

... تتوالى أمامى صور الماضى الواحدة تلو الأخرى بخط لانهاى يلتف
بعيداً بعيداً فى ذكراتى . وليس فى مقدورى بل ولا أريد أن أوقف توالى
هذه الصور . إن كل مخطوط أتذكره الآن سواء أكان قديماً أو جديداً ، فى
البلاد العربية أم فى روسيا ، قد دخل إلى حياتى بسلطان فبدلها بطريقة ووسع
رحابها . ولو لم تكن هذه المخطوطات لما استطعت أن أعرض هذا الماضى ولما
استطعت أنا نفسى أن أرى أولئك الناس الذين كتبوا هذه المخطوطات ولأولئك
الذين كتبت عنهم المخطوطات ، ولبقى تاريخ علمنا الاستعرابى صامتاً لى ، ولرنت
جافة بدون حياة أسماء أسلافنا العظام والمتواضعين العاملين فى الاستعراب .

على أن المخطوطات قد مكنتنى أحياناً من رؤيتهم بصورة أوضح مما لو كانوا
فى حياتهم ، وقادتنى إلى فردوس عظيم هو فردوس « الظلال الصامته الوضاعة
الرائعة » . وتلاأت هذه الظلال فى عيني بكل ألوان الحياة . وعندها أرى أسلافاً
ومدلين ورفاقاً .

وهناك إلى جانب عمالقة علمنا الاستعرابى أمثال فرين وروزن ، كان عاملون
متواضعون خلقوا قاعدة تدريسنا الاستعرابى أمثال بولديريف مؤسس الاستشراق
فى موسكو الذى تدمرت حياته لتصريحه بطبع « رساله فلسفيه » لنشأدايف ،
وأمثال كركاس ضحية السل الذى مرض به سوريا ، وإلى جانب البارون اللامع
برامبيوس وهو المستعرب سنكوفسكى الذى قرأت له كل روسيا ، يقف رجلان
اشتهر كل منهما بكتاب واحد أولهما سابلوكوف المعلم المحبوب لتشيرنيشيفسكى

وثانیهما مدنیکوف . وکلاهما لا یعرفهما الآن إلا العلماء . وإلى جانب اثروس
یقف عربیان عملاً فی روسيا . أولهما الشیخ الطنطاوی المصری وثانیهما مرقص
الدمشق . وبین الشخصیات المدنیة تقف شخصیة الجنرال بوغوسلافسکی الذی
تصادق معه الشیخ شامل . وسار بعضهم بثبات علی الطریق حتی النهایة وآخرون
سقطوا تحت ظلم القدر القاسی دون أن یکملوا ما کان مقدراً علیهم أن
یکملوه .

إن قلبی ینعصر . وإن ظل المعلمین لا یحجب ظل التلامیذ الراحلین قبلنا .
وأراهم کثیرین ... حربان عظیمتان أهلسکما زهرات فی الشباب قبل الأوان .
وقدر قاس لم یهمل ذلک الریعان . وجميعهم احتکوا عن قرب بالعلم الاستعرابی
وجميعهم سحروا به وفتنوا . وکما تحدثت المخطوطات معی فإنها أیضاً تحدثت
معهم وبلسان حی مبین . وغالباً ما حمل إلى أصدقاء شباب کنوزاً اکشفوها
بأیدیهم وعیونهم . وسررنا معاً ، وحزننا معاً ، وتحملنا معاً کثیراً من السنین
القاسیة عندما ساعد حماسهم « المتدفق » حیوتی المتهاویة .

إن « فردوس الظلال » واسع ... فهناک أجيال الشیوخ وأجيال الشباب فی
استعرابنا مدة قرنین . وعندما تبدأ تعدهم أو تحسبهم تراهم یظهر منهم الجدید
والجدید مثلهم مثل عدک أو حسابک للنجوم فی السماء . ولقد عملوا کثیراً من أجل
المخطوطات والکتب . والکتاب هو وحده الذی یمکن أن یحفظ ذکراهم . وقد
مضى أكثر من ثلاثین عاماً منذ بداية إعداد مثل هذا الکتاب . ویأتی إلى هذا
الکتاب من المحفوظات والمخطوطات والمطبوعات ، کل جدید وجدید من الأسماء ،
وکل جدید من معالم حیاة العامین فی الاستعراب أو الذین ارتبطوا مصادفة به .
إن هذا الکتاب سیکون دقیقاً وجافاً وموجزاً ولکن سیفهمه مؤرخو العلم
ومؤرخو ثقافتنا . ولعل فی الصور التی تقف الآن فی کتاب « مع المخطوطات
العربیة » . تلعب شخصیات أسلافنا فی الاستعراب حیاة أكثر مما فی ذلک الکتاب .
ولعل « ظل الراحلین » یضیء بشعاع رقیق من الذکریات . ولندع کل من یقرأه
یتمنی Requiem aeternam ، الرحمة والهدوء الأبدي والذکری الحامدة الشاکرة
لکل من یرتبط ذکرهم بصفحات هذا الکتاب .

ملحق .

لزوم ما لا يلزم

للشاعر أبي العلاء الذى ظهر اسمه أكثر من مرة على صفحات هذا الكتاب ، ديوان أشعار تحت عنوان غريب « لزوم ما لا يلزم » . وفى هذا العنوان يرون عادة تليحاً إلى القافية الثنائية المعقدة الموجودة فى جميع أشعاره مع أن الشعراء لا يستخدمونها إلا نادراً جداً من أجل إظهار براعتهم فى قطع صغيرة . ولا شك أن هذا هو المعنى الأول — الظاهرى إلى حد معين — لهذا العنوان . لكن من يعرف منهج أبي العلاء يمكن أن يتأكد من أنه أعطى لهذا العنوان معنى آخر ، خفياً ، فهو يريد أن يقول إن أفكاره والاستنتاجات الناجمة عنها والتي عرضها فى أشعاره ، يمكن أن تكون غير ملزمة الآخرين . لكنها ملزمة له نفسه ، وأنه لا يستطيع أن يحيا بدونها . وهكذا أيضاً علماء اللغة ، من الصعب عليهم أن يقلعوا عن عاداتهم التي تبدو زائدة للقارىء العادى . وهم لا يشعرون بالرضا إلا عندما تقف إلى جوار « النص » الأساسى ، ملحقات الشروح وتعليقات على الشروح وأيضاً عندما توجد فى « هذه الملاحق » الملاحظات والفهارس ومعجم المفردات . وكل هذا « ما لا يلزم » للكتاب ، لكن العلماء هم « أناس مفسودون ، فإن « لزوم » مثل هذه الملحقات « غير اللازمة » أصبح لهم طبيعة ثانية لا يمكن تغييرها .

وعندما كتبت أقسام هذا الكتاب فإن مثل هذه الأفكار لم ترد فى رأسى ، لكن عندما بدأ الكتاب يتخذ شكله النهائى رأيت من الضرورى ، إضافة ملحقاتنا « العلمية » العادية . وعن هذا حدثتني باجماع وإصرار ملاحظات أولئك الأشخاص الذين اطلعوا مصادفة على فصول هذا الكتاب وأشاروا بصفة خاصة إلى إيجاز الفصل الأول حيث كانت هناك أشياء كثيرة لا يفهمها غير المتخصصين بدون تفسير أو اطناب . وحاولت ألا أنجذب « بالنزعات العلمية » وحددت نفسى بالاجوبة على تلك الأسئلة التي توجهوا بها إلى . وكان من غير الممكن إدخال التذييلات أو التعقيبات إلى النص الأصيل نفسه حتى لا يفسد سير العرض .

وكان من الأسهل جعل جميع مواد الملاحق في النهاية حتى يكون في إمكان من لا يهتم بهذه الملاحق أو لا يحتاج إليها ، ألا ينظر إليها .

وكان من اللازم قبل كل شيء أن تضاف قليلا كلمات تمهيدية عن أهم سبب استدعى ظهور هذا الكتاب . وعندما كنت أعمل في تاريخ العلم وفي إعداد معجم تراجم حياة مستعربينا ومؤلفاتهم ، عرقل عملي دائما كون العلماء نادرا ما يتحدثون عن أنفسهم وعن تطورهم الداخلي وعمما عاشوه في هذا العمل أو ذاك ، وعن طريقة وصولهم إلى هذا الاكتشاف أو ذاك . وبالطبع فإن اللحظات الجزئية لكل هذا تنعكس أحيانا فيما يترجم لهم الآخرون من تاريخ حياتهم أو فيما يترجمونه هم أنفسهم من هذا التاريخ ، ولكن هذه الانعكاسات تكون دائما في صورة إشارات عارضة سريعة . ودائما ينشر حاصل نتائجهم العلمية في مؤلفات خاصة . لكن مثل هذه التراجم لتاريخ الحياة الداخلية للعالم لا مكان لها في هذه المؤلفات بحكم طبيعتها وأسلوبها وطريقتها .

والمعروف لدى من جميع كتب تاريخ الاستعراب هو كتاب واحد لعالم ألماني من الدرجة الثانية يذكر فيه بحبوية وحدة ذكاء كيف درس اللغة العربية (هو كتاب Martin Thilo : Was die Araber sagen. Bonn, 1939.) . ولإن علماء العلوم الطبيعية في هذه الناحية هم أسعد حظا منا نحن علماء اللغة . فلهيهم كتاب رائع لـ ألكسندر فيرسمان هو ، ذكرياتهم عن حجر ، (موسكو — لينينغراد . طبعة أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي ، ١٩٤٥) . وأن أهمية هذا الكتاب لعظيمة . يتبين هذا لا من إعادة طبعاته فحسب بل ومن الصدى الحى الذى أثاره في جميع أطراف بلادنا وقد أسهم هذا الكتاب في دعاية واسعة للعلم ودعم دعما عاليا الحماسة العلمية لدى أولئك الأشخاص الذين احتكوا بهذا الكتاب . وكانت المخطوطات — وهى المصدر الأساسى والمادة الأساسية فى عملنا — تقف دائما فى فمكرى بمكان الحجر من هذا الكتاب . وهكذا منذ زمن بعيد صار واضحا لى محور كتابى هذا .

وعندهما أخذت الأفكار والصور البشرية تسعى باصرار إلى عرضها على الورق ، فإن الدفعة المباشرة لهذا كانت الاحتفال التذكاري لإيفان بيتشكوف الذى كان مدة طويلة أميناً لقسم المخطوطات بالمكتبة العامة المعروفة باسم سالتيكوف — شيدرين فى لينينغراد . وقد احتفل بهذه الذكرى بحرارة فى بداية عام ١٩٤١ . وعند ذاك تولدت عندى فكرة استرجاع ذكرى تلك المخطوطات العربية التى تسلمتها من يده طيلة بضع عشرات من السنين من أجل أعمالى المختلفة . وهكذا تولد الفصل الأول من هذا الكتاب من خمسة أجزاء مع تمهيد وخلاصة وهو أول شيء فى الكتاب انتهى كاملاً .

أما الفصول التالية فقد كتبها بطريقة تختلف بعض الاختلاف وبجزم آخر . وكتبها بصورة رئيسية فى عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ عندما حملتى الحرب الوطنية الكبرى على ترك لينينغراد مؤقتاً . وعندما وجدت نفسى ، لأول مرة خلال عملى الطويل ، بعيداً عن المكتبات التى ألفتها ، فإننى حزنت حزناً شديداً على المخطوطات ، ووجد فى كتابة ذكرياتى عنها سلوى لنفسى . وانضمت بالتدرج إلى هذه الفصول الثلاثة أقسام تمهيدية أخرى يغلب عليها طابع الذكريات الشخصية . وبما أن الفصول الجزئية لم تولد بذلك النظام المتتابع الذى تتخذ فيه الفصول الموجودة حالياً فى هذا الكتاب فإننى أشرت فى الملاحق إلى تاريخ الانتهاء من كل فصل . وقد تعللت من عملى فى تاريخ العلم الاستعرابى بأنه يحدث أحياناً الأسف بسبب غياب التواريخ ، ولذلك عندما كان يحدث ارتباط الحوادث بالضبط مع سنينها أشرت إلى هذه السنين تحت العناوين .

أما الملاحظات الخاصة بالكتاب فقد ظهرت الحاجة إليها بصورة رئيسية من اعتبارين برزا عند قراءة بعض القطع الجزئية من الكتاب على نمطين مختلفين تماماً فى تخصصاتهم . فقد ظهر أن المستمعين يميلون أحياناً إلى قبول أقاصيص الكتاب على أنها نوع من الخيال الأدبى الذى لا يوجد له أى أساس حقيقى محدد . وكان يجب على الرد بأن الأمر على العكس من هذا : فكل أقصوصة ، تعبر عن حادث حقيقى مع المخطوطات التى وقعت فى يدي ، وأنه لا يوجد مطلقاً أى خيال فى صلب الموضوع . وبالطبع فإننى نسيت بعض التواريخ فى تذكري

لماض ينتشر فيما يزيد على أربعين عاما ، وأننى غيرت بعض التفاصيل وتحدثت عن بعض الحوارات بصورة ليست مطابقة تماما للصورة التى تمت بها فى الواقع ، وأكثر من هذا أننى ، لم استطع أن أجد الاستفسارات الضرورية حتى فى كتيب الخاصة . لكن كل الصور لا تعكس إلا حقائق واقعية وشعورى الذى عشته آنذاك . ولربما أن هناك تحريفا فى تصوير هذا الشعور بسبب مرور السنين ، إلا أن نفس الحقائق صورت دون أى تغيير فيها .

ومن أجل هذا سمحت لنفسى فى ملاحظات للكتاب بأن يتضمن كل جزء تقريبا ، اشارات إلى أعمالى التى تتحدث عن نفس تلك المخطوطات ، أو التى تدل ببعض المعلومات عنها من الناحية العلمية الخالصة ، وآمل أن تكون هذه الاشارات مفيدة أيضا لأولئك الذين يريدون أن يحصلوا على معلومات أكثر تفصيلا عن المصادر التى أشير إليها ، أو من أجل فك رموز أى تليحة طارئة فى الكتاب ، وذلك بناء على الرغبات التى أظهرها أولئك المستمعون ، وخاصة فيما يتعلق بالفصل الأول . وبالطبع لم استطع أن أقوم بتفصيل كل هذا بل ولم أرغب فيه ، ذلك لأن مثل هذا العمل قد يحرنى بعيدا جداً وعندها قد يصل حجم هذه الملاحظات إلى حجم النص نفسه . وحاولت أن أكون مختصرا وألا أعطى إلا الخيط الرئيسى الذى يساعد من يرغب فى توسيع تعرفه بالموضوعات الأساسية التى لمسها الكتاب . ولذلك حددت نفسى بالإشارة إلى أعمالى الخاصة وإلى أرقامها فى قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى ، المطبوعة فى دار الطبع والنشر لاكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى . وعند كتابة الأسماء والعناوين فى هذا الكتاب ، فإننى بسطت ترجمة رموزها الصوتية العلمية العادية . ولنفس هذا الغرض وضحت بعض الأسماء الشخصية أو أسماء الكلمات العربية أى مجرد تعليقات مختصرة لأولئك الأشخاص الذين يلزمهم هذا .

على أننى أفهم جيدا أن كل هذا لا يمثل ضرورة فى كتاب من هذا النوع ، وإن كل هذا من الأمور التى سماها أبو العلاء ، لزوم ما لا يلزم ، . لكن لعل فى هذا الملحق إفادة ما ، فإن العرب يقولون : زيادة الخير خيرين . أما أولئك القراء الذين لا يحتاجون إلى ذلك ، فعليهم ألا يلومونى فهم يستطيعون ألا ينظروا إلى هذا الملحق .

ملاحظات

١ - د في قسم المخطوطات ،

١ - د كتاب قديم ، . انظر د قصة من الانجيل في مخطوط عربي (٨٨٥-٨٨٦ م) ، . د التاريخ البيزنطي ، ، ع-د د رقم ١٤ ، ١٩٠٧ - ١٩٠٩ ، ص ٢٤٦ - ٢٧٥ (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١٠) .^٥

٢ - د مترجم كريلوف ، . انظر د رزق الله حسون (١٨٢٥-١٨٨٠) ، مترجم أشعار كريلوف إلى العربية ، . المجموعة الشرقية - لينينغراد . طبعة المكتبة الحكومية العامة باسم سالتيكوف - شيدرين ، عام ١٩٢٦ ، ص ١٣ - ٢٦ . (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢١٢) .

٣ - د معاصر هولاكو ، . انظر "Angebliche Autographe des Geschichtsschreibers Kamal ad-din Ibn al-Adim in Leningrad", Der Islam, (باللغة الألمانية) ، العدد ١٥ ، ١٩٢٦ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٦ . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢١٧) . في هذه الملاحظة إشارة إلى الكتب السابقة عن هذا المخطوط .

٤ - د رهن المحبسين ، . قارنه مع د نحو تاريخ ونقد د الرسالة الفلاحية ، د لابي العلامة ، في مجلة د أخبار القسم الشرقى لرابطة علماء الآثار الروسية ، المجلد ٢١ . (١٩١١ - ١٩١٢) ، ١٩١٣ ، ص ١٣١ - ١٣٧ . (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٥٢) .

٥ - د من صقلية إلى بطرسبورغ عبر إيران ، . الوصف العلمى لمخطوط الادريسي الجغرافى المحفوظ فى المكتبة العامة ، لم يظهر مطبوعا بعد .

* راجع هنا وما يليها : اغنائى يوليونوفيتش كراتشكوفسكى . موسكو - لينينغراد

(مواد حول مؤلفات العلماء السوفييتيين) .

قارن هذا مع كتاب "Idrisi. La Finlande. Edition critique par O. J. Tallgren-Tuulio et A. M. Tallgren" (Studia Orientalia, III, Helsingforsiae, ١٩٣٠، ص ١٦ . ملاحظة رقم ٢ (باللغة الفرنسية) .

٢ — « جولات في الشرق »

١ — « الكتب والناس » . كتبت في موسكو في ١٦ — ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٢ . عن دراساتي في جامعة القديس يوسف . انظر « الكلية الشرقية بجامعة القديس يوسف في بيروت . من تقرير عن المأمورية الرسمية » . مجلة وزارة المعارف العامة (باللغة الروسية) . شباط (فبراير) ١٩١٠ ، « الأحداث المعاصرة » ، ص ٤٩ — ٨٧ . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٣) .

٢ — « أمقالة نحوية أم رسالة الحادية ؟ » كتبت في مصحة « سوسنوف في بور » (« أجمة الصنوبر ») في قرية بولشيفو قرب موسكو في ١١، ١٣، ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٢ . انظر « أبو العلاء المعري — رسالة الملائكة . النص والترجمة والتعليقات » . أعمال معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية . مجلد ٣ . لينينغراد ، ١٩٢٢ . (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٨١) .

٣ — « رسالة ماجيستير غير مكتوبة » . كتبت في مصحة « سوسنوف في بور » في ٨ — ٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٢ . انظر المخطوطات العربية لمكتبة المجلس البلدي بالاسكندرية . وديوان عمر المحار ، مجلة « أخبار القسم الشرقي لرابطة علماء الآثار الروسية » . مجلد ٢٢ (١٩١٣ — ١٩١٤) ١٩١٥ . ص ٥ — ٧ (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٦٥) .

٤ — « مخطوطات بطيركين أم نبوءة تحققت » . كتبت في مصحة « سوسنوف في بور » ، في ١٨ — ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٢ . انظر « مخطوطات عربية من مجموعة غريغوريوس الرابع بطيرك أنطاكية . وصف موجز » . مجلة « أخبار المعهد القوقازي للتاريخ والآثار » . مجلد ٢ . (١٩١٧ — ١٩٢٥) ١٩٢٧ . ص ١ — ٢٠ . (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ١٣٩) .

٣ — « كتاب عرب ومستعرب روسي »

١ — « فيلسوف وادى الفريكة » . كتبت في لينينغراد في ١٩ آب (أغسطس) ١٩٤٥ . انظر « أمين الريحاني — مؤلفات مختارة . ترجمة وتعليقات ا . يو . كراتشكوفسكي » ، بتروغراد . دار « أوغني » ، (الذيران) للطبع والنشر ١٩١٧ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٩١) . « أمين الريحاني . أشعار منشورة . ترجمة ا . يو . كراتشكوفسكي » ، في مجموعة « فوستوك » ، (الشرق) . مجلد ١ ، ١٩٢٢ . ص ٤٨ — ٥٤ (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ١١٠) .

٢ — « ارستو قراطي القاهرة — « الفلاح » » . كتبت في لينينغراد في ٢٩ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٤٥

٣ — « طالب المدرسة الدينية في بولتافا » . كتبت في لينينغراد في ٦ - ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥ . انظر: "Michail Na'imah's Autobiographie" Die Welt des Islams. مجلد ١٣ ، ١٩٣١ ، ص ١٠٤ — ١١٠ (باللغة الألمانية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٧٩) . وانظر « تقرير كتاب ميخائيل نعيمة عن جبران » ، في مجلة « الاستشراق السوفييتي » ، مجلد ٢ ، ١٩٤١ ، ص ٢٩١ — ٢٩٣ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٣٧٢) .

٤ — « في المتحف الاسيوي »

١ — « مقدمة لأسطورة » . كتبت في موسكو في ٢١ - ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ . عن تاريخ المتحف الاسيوي حتى ١٩١٩ انظر « المتحف الاسيوي التابع لأكاديمية العلوم الروسية (١٨١٨ - ١٩١٨) . تذكرة قصيرة » ، بتروغراد ، ١٩٢٠ ، دار الطبع والنشر لأكاديمية العلوم السوفييتية (باللغة الروسية) . قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ١٠٢) . وانظر « عن ف . ا . روزنبرغ » ، مقالة تأبين في مجلة « أخبار أكاديمية العلوم السوفييتية » ، قسم العلوم الاجتماعية . ١٩٣٥ ، ص ٨٩٥ - ٩١١ . (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي

تحت رقم ٣٤٠) . في نهاية هذا الفصل إشارة إلى إسطورة عن المتحف الآسيوي ألفت على نمط قصص البطولة الفرنسية القديمة لأحد المستشرقين الروس في الدراسات الصينية في بداية العقد الثالث من القرن العشرين. وأبطال هذه الأسطورة كانوا مستخدمين في المتحف الآسيوي في ذلك الوقت .

٢ — « مخطوط وحيد وعلماء اثنتى عشرة لغة » . كتبت في مصححة « سوسنوفى بور » ، وفي موسكو فى الفترة بين ٢٤ أيلول (سبتمبر) و ١١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٩ . عن ابن قزمان انظر فصلا فى كتاب « الشعر العربى فى أسبانيا » فى مجموعة « الثقافة الأسبانية » ، طبعة أكاديمية العلوم السوفيتية ١٩٤٠ ، ص ١١١—١١٢ مع فهرس للكتب فى ص ١١٦ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٦٦) . عن مجموعة روسو فى المتحف الآسيوى انظر مقالة (مؤلف مجهول بخط الأمير السورى أسامة) فى مجلة « أخبار رابطة المستشرقين للمتحف الآسيوى التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية » ، مجلد ١ ، ١٩٢٥ ، ص ١٦ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١٨١) .

٣ — « معاصر أول غزوة صليبية » . كتبت فى موسكو فى ١٦—١٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٢ . انظر « مؤلف مجهول بخط الأمير السورى أسامة » فى المصدر السابق ، مجلد ١ ، ١٩٢٥ ، ص ١—١٨ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١٨١) . قارن هذا مع كتاب « أسامة بن منقذ . كتاب الاعتبار » ، ترجمة م. ا. ساليه . بتروغراد - موسكو ، دار الطبع والنشر « الأدب العالمى » ، ١٩٢٢ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١١٢) .

٤ — « ربان فاسكو دى جاما » . كتبت فى موسكو فى ٢٩ - ٣٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٢ . ملاحظة قصيرة عن المخطوط مع صورة الصفحة الأولى فى مقالة « الرحالة والجغرافيون العرب » فى مجلة « أخبار الرابطة الجغرافية ، الحكومية » ، مجلد ٦٩ ، الجزء الخامس ، ١٩٣٧ ، ص ٧٥٨ — ٧٦٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٥٢) .

٥ — « في المكتبة الجامعية »

١ — « المكتبة وامناؤها » . كتبت في موسكو في ٢٥ — ٢٨ آيار (مايو) ١٩٤٣ .

٢ — « معارض رسالة ماجستير لأول مرة » . كتبت في مصحة « اوزكويه » قرب موسكو في ٦ — ٨ تموز (يوليو) ١٩٤٣ . انظر « أحد مصادر تاريخ حياة الشعرائى » فى مجلة « أخبار القسم الشرقى لرابطة علماء الآثار الروسية » . مجلد ٢٢ ، ١٩١٥ ، ص ٢٨٣ — ٢٩٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٧٢) ، قارن هذا مع تقرير كتاب (١ . ١ . شيدت . عبد الوهاب الشعرائى وكتابه « الدر المنثور » ، بطرسبورغ ، ١٩١٤ ، فى مجلة وزارة المعارف العمومية ، نيسان (أبريل) ١٩١٥ ، ص ٣٨٨ — ٤٠٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٧٥) .

٣ — « من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو فى بطرسبورغ » . كتبت فى مصحة « اوزكويه » فى ٩ — ١١ تموز (يوليو) ١٩٤٣ . انظر « الشيخ الطنطاوى استاذ جامعة سانت — بطرسبورغ (١٨١٠ — ١٨٦١) » ، فى مجلة « أعمال لجنة تاريخ المعرفة » ، عدد ٨ . لينينجراد ، ١٩٢٩ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٦٦) . قارن هذا مع « الاستعراب وتاريخ الشعوب السوفيتية » فى مجلة (أخبار أكاديمية العلوم السوفيتية) ، عدد ٥ ، ص ٥٩ — ٦٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٦٠) .

٤ — (الأندلس ولينينجراد) . كتبت فى مصحة (اوزكويه) فى ١٣ — ١٦ تموز (يوليو) ١٩٤٣ . انظر (استعراب الاسبانى فى نصف قرن) فى مجلة (أخبار رابطة المستشرقين للمتحف الآسيوى التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية) ، مجلد ٤ ، ١٩٣٠ ، ص ١ — ٣٢ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٦٨) . وعن د . ك . بتروف انظر (د . ك . بتروف — المستعرب) فى المصدر السابق ، مجلد ٢ ، ١٩٢٦ ، ص ١٦٣ — ١٧٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢١٥) .

٦ — من سار على الدرب وصل

١ — « لوحات برونزية صغيرة من بلاد ملوك سبأ » كتبت في مصحة « اوزكويه » في ٢٤ — ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٤٣ . انظر (لوحات خطوط أثرية من جنوب جزيرة العرب في لينينغراد) في مجلة (أخبار أكاديمية العلوم السوفيتية) قسم العلوم الاجتماعية ، ١٩٣١ ، ص ٤٢٧ — ٤٥٣ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٧٧) .

٢ — « رسالة من بلاد الصغد » كتبت في مصحة « اوزكويه » في ١٩ — ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٤٣ انظر « أقدم وثيقة عربية من آسيا الوسطى » في « المجموعة الصغدية » ، لينينغراد ، ١٩٣٤ ، طبعة أكاديمية العلوم السوفيتية ، ص ٥٢ — ٩٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣١٢) .

٣ — « قرآن كوفي و « جدة عربية » . كتبت في لينينغراد في ٨ آذار (مارس) ١٩٤٢ . عن ا . غ . نوفل انظر « مخطوط جديد عن وصف روسيا للشيخ الطنطاوى » في « خطب أكاديمية العلوم السوفيتية ، سلسلة الاستشراق » . لينينغراد ، ١٩٢٨ ، ص ٣٠٢ ، ملاحظة رقم ٢ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٥١) .

٤ — « المراقب الملازم لشامل في كالوغا » . كتبت في مصحة « اوزكويه » في ٢٨ — ٢٩ تموز (يوليو) ١٩٤٣ . انظر « رسالة غير مطبوعة لشامل » في مجلة « أخبار معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم السوفيتية » ، مجلد ٢ ، ١٩٢٣ ، ص ١ — ٧ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٩٢) . « ترجمة القرآن . د . ن . بوغوسلافسكى » في مجلة « الاستشراق السوفيتي » ، مجلد ٣ ، ١٩٤٥ ، ص ٢٩٣ — ٣٠١ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٤٠٢) . وانظر « تشيرنيشيفسكى والمستشرق سابلوكوف » . وانظر « ن . غ . تشيرنيشيفسكى (١٨٨٩ — ١٩٣٩) » ، من أعمال الدورة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاته . لينينغراد ، ١٩٤١ ، ص ٣٤ — ٤٥ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٧٨) .

وانظر « الإستعراب وتاريخ الشعوب السوفيتية » ، في مجلة « أخبار أكاديمية العلوم السوفيتية » ، عدد ٥ ، ١٩٣٨ ، ص ٥٧ — ٥٦ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٦٠) .

٧ — « ظل الأجداد » ،

١ — « صريع الأدب العربى » . كتبت في لينينغراد في أول آب (أغسطس) ١٩٤٥ . انظر « حماسة البحترى وأول باحث لها في أوربا » ، في مجلة « أخبار القسم الشرقى لرابطة علماء الآثار الروسية » ، مجلد ٢١ ، (١٩١١ — ١٩١٢) ، ١٩١٢ ، ٢٢ — ٣٣ . (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٤٩) .

٢ — « كركاس » الوديع » . كتبت في لينينغراد في ٥ آب (أغسطس) ١٩٤٥ . انظر « ف . ف . كركاس . بمناسبة ذكرى الأربعين لوفاته » ، في مجلة « أخبار رابطة المستشرقين للمتخف الأسيوى » ، مجلد ٣ ، ١٩٢٨ ، ص ٦٤ — ٩٠ . (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٣٨) .

٣ — « نصف قرن على مخطوط واحد » . كتبت في لينينغراد في ٩ — ١٠ آب (أغسطس) ١٩٤٥ . انظر « السككية الشرقية بجامعة القديس يوسف في بيروت » ، في مجلة وزارة المعارف العامة (الروسية) شباط (فبراير) ١٩١٠ في « الأحداث المعاصرة » ، ص ٧٧ — ٧٨ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٣) .

نحو قصة الكتاب

في جلسة قسم الاستعراب بمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي في ١٣ أيار (مايو) ١٩٤١ ، قرىء لأول مرة الفصل الأول من هذا الكتاب . وكان هذا الفصل يحمل في ذلك الوقت طابعاً مستقلاً بذاته . وقرئت لأول مرة فصول أخرى في جلسة لجنة طبع الكتب العلمية الشعبية لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي في ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٣ . وأول إشارة إلى إعداد الكتاب وقراءة بعض قطعة كانت في مجلة (أخبار أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي ، عدد ٧-٨ ، ١٩٤٣ ، ص ١٢٦ . وأول طبعة للكتاب نشرت في ١٩٤٥ والثانية في ١٩٤٦ . وبعض الفصول طبعت في سلسلة مكتبة «أوغونيك» ، (د الشعلة ») في ١٩٤٨ ، العددان الثامن والتاسع .

الترجمات

ترجم نقلا عن الصورة الخطية إلى اللغة العربية فصل « من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو في بطرسبورغ » ، ونشر في مجلة « المستمع العربي » (المجلد الخامس ١٩٤٤ . العدد ١٥ ، ص ٤-٥ ، والعدد ١٦ ، ص ٦-٧ ، والعدد ١٧ ، ٦٠-٧٠) ٩ و ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) و ٩ كانون الأول (ديسمبر) مع الصور .

وفي مجلة "International Literature" (العدد ٩ . ١٩٤٥ ، ص ص ٤٥ . ٤٥-٤٦ ، ٤٦-٤٨ ، ٤٨-٥٠) نشرت باللغة الإنكليزية ترجمة موجزة للفصلين التاليين ، نقلا عن الطبعة الروسية الأولى : « الكتب والبشر » ، و « أمقالة نحوية أم رسالة الحادية ؟ » ، و ترجمة أوسع للفصلين التاليين : « رسالة ماجيستير غير مكتوبة » ، و « رسالة من بلاد الصغد » . و ترجمت الفصول نفسها إلى اللغة الفرنسية في مجلة "La littérature soviétique" ١٩٤٦ ، ص ص ٤٤-٤٥ ، ٤٥-٤٦ ، ٤٦-٤٨ . ٤٨-٥١ ؛ وإلى اللغة العربية في مجلة « الوطن » ، العدد ٢ ، ١٩٤٦ ، ص ص ١٠-١١ و ١١-١٢ ، والعدد ٢٥ ، ص ص ١٦-١٩ ، والعدد ٢٦ ، ص ص ١٥-١٨ (١٥) و ٢٦ كانون الثاني (يناير) و ٢ شباط (فبراير) ، ترجمة قطان) وفي مجلة « الكاتب المصري » ، المجلد الرابع ، العدد ١٣ ، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٦ ، ص ص ١٥٠-١٦١ (ترجمة سعدو) . ونشرت ترجمة مجلة « الوطن » ، بشكل كراس على حدة تحت عنوان « الدراسات العربية في الاتحاد السوفيتي » ، بغداد ، مطبعة المعري . ١٩٤٦ ، ص ص ٣٧-٣٩ ، ٣٩-٤٤ ، ٤٤-٥٤ ، ٥٤-٦٨ .

وفي مجلة "Revue Africaine" (العدد ٤٠٦-٤٠٩ ، ١٩٤٥ ، ص ص ١٣٠-١٣٩ ، ترجمة كانار) نشرت باللغة الفرنسية ، نقلا عن الطبعة الروسية الثانية ترجمة فصل « ارستقراطي القاهرة — « الفلاح » ، ونشرت في مجلة "Literatura sovietica" (العدد ١٢ ، ١٩٤٦ ، ص ص ٥٣-٥٥ و ٦٣ ، ترجمة اتشيفاريا) باللغة الأسبانية ترجمة فصل « مخطوط وحيد وعلماء » اثنتي عشرة لغة .

وقد صدرت حتى أيامنا هذه الترجمات التالية لكل الكتاب :

I. J. Kratschkovski. Über arabische Handschriften gebeugt. Erinnerungen an Bücher und Menschen. Aus dem Russischen von Dr. Oscar P. Trautmann, Leipzig, 1949.

Ignacy Kraczkowski. Nad arabskimi rekopisami. Kartki ze wspomnien o ksiegach i ludziach. Przelozy oraz wstepem i przypisami opatrzy Ananiasz Zajackowski. Warszawa, 1952.

Among Arabic Manuscripts, Memories of Libraries and Men by I. Y. Kratchkovsky. Translated from the Russian by Tatiana Minorsky, Leiden, 1953.

Avec les manuscrits arabes. (Souvenirs sur les livres et les hommes) par I. Kratchkovsky. Traduit du russe par M. Canard. Alger, 1954. (Publications de l'Institut d'Etudes Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger, XIV).

ونقله إلى العربية في دمشق الأستاذ سامي الدهان(*)؛ وإلى التشكية في براغ؛
الدكتور هرييك (Hrbek).

التقـارـيـظ

الطبعة الروسية الأولى

ن. ف. بيغوليفسكايا . مجموعة « أخبار أكاديمية العلوم السوفيتية » ، العدد ٣ ، ١٩٤٥ ، ص ص ١١٣-١١٤ (باللغة الروسية) .

س. ريسير . مجلة « زفيزدا » ، العدد ٤ ، ١٩٤٥ . ص ص ١٠٠-١٠١ (باللغة الروسية) .

م. ف. تشوراكوف . كتاب ممتع . جريدة « لينينغرادسكايا برافدا » ، العدد ٢٠٩ (٩٢٤٤) ١٩٤٥ ص ٣ (باللغة الروسية) .

Moscow News, XV Year, N 78, 29 September, 1945, 4.

مجلة « نوفى مير » ، العدد ٨ ، ١٩٤٥ ، ص ص ١٣٤-١٣٥ (باللغة الروسية) .

سيرغي ماركوف. كتاب الدر المثلثون « ليتيراتورنايا غازيتا » ، العدد ٩٤ ،
(٢٢٦٠) ١٩٤٥ ص ٣ (باللغة الروسية) .

ب. ن. زاخودر. السكتب والبشر . مجموعة « أخبار أكاديمية العلوم
السوفيتية » - سلسلة التاريخ والفلسفة . المجلد الثاني . العدد ٥ ، ١٩٤٥ ، ص ص
٣٩١-٣٩٢ (باللغة الروسية) .

International Literature, N 9, 1945, 45.

ف. م. شتين. حديث في إذاعة لينينغراد . بداية حزيران (يونيو) ١٩٤٥
(باللغة الروسية) .

ف. سيمينوف . النشرة التوجيهية لمكتبة لينين . الإذاعة . ٦ أيلول
(سبتمبر) ١٩٤٥ (باللغة الروسية) .

١. سادوفسكي. حياة العالم . جريدة «فيتشيرني لينتغراد» . العدد ٧٥/٩١ ،
١٩٤٦ ، ص ٢ (باللغة الروسية) .

البروفسور ن. سميرنوف. مجلة « سوفيتسكايا كنيغا » ، العدد ٢ ، ١٩٤٦ ،
ص ص ٨٩-٩٢ (باللغة الروسية) .

ميخائيل نعيمه. مجلة « الطريق » . السنة ٥ . العدد ٣ . ١٩٤٦ ص ص ٥-٧ .

F. Gabrieli. L'autobiografia scientifica di Ignatio Krac-
kovskij. Oriente Moderno. XXVI, N 1-6, 1946, 37-41.

La littérature soviétique, N 2, 1946, 44.

١. قطان. مجلة « الوطن » ، العدد ٢٤ ، ١٩٤٦ ، ص ١٠ .

الطبعتان الأولى والثانية

١. بيلاييف. أعمال معهد الاستشراق في موسكو ، العدد ٤ ، ١٩٤٧ ، ص ص
١٠٥-١١٥ (باللغة الروسية) .

الطبعة الثانية

M. Canard. Quarante ans sur les manuscrits arabes. Revue Africaine, N 406-409, 1945, 118-119.

ى. سكر-جنسكايَا. مجلة « أخبار أكاديمية العلوم السوفيتية » . العدد ١٠ ، ١٩٤٦ ، ص ص ١٢٩-١٣٣ (باللغة الروسية) .

S. Kara-Murza. Memorias del Academico Ignati Kratchkovski. Literatura sovietica, N 12, 1946, 62-63.

I. Mecerian, Mélanges de l'Université Saint Joseph, XXVI, Beyrouth, 1944-1946, 138-139.

ك. غريغوريان. كتاب عن عمل العالم ، جريدة « كومسومولسكايَا برافدا » ، العدد ٧٤/٦٧٠٦ ، ١٩٤٧ (باللغة الروسية) .

ك. غريغوريان. كتاب عن فرحة العالم الكبيرى . مجلة « أخبار أكاديمية العلوم الأرمنية » — العلوم الاجتماعية . العدد ٥ ، ١٩٤٧ ص ص ٩٥-٩٨ (باللغة الروسية) .

ب. ب. ي. —. مجلة حول « العالم » . العدد ٦ ، ١٩٤٧ ، ص ص ٦٣-٦٤ (باللغة الروسية) .

س. ماركوف . ربان فاسكو دى غاما . مجلة « حول العالم » ، العدد ١٢ ، ١٩٤٧ ، على الغلاف . (باللغة الروسية) .

محتويات الكتاب

صفحة	
٣	مقدمة المترجم
٦	مقدمة الطبعة العربية الأولى
١١	مقدمة الطبعة الروسية الثالثة
١٣	مقدمة الطبعة الروسية الثانية
١٥	إفتتاحية
١٧	١ - فى قسم المخطوطات
١٧	تمهيد (١٩٠١)
١٩	١ - كتاب قديم (١٩٠٦)
٢٠	٢ - مترجم كريلاف (١٩٢٢)
٢١	٣ - معاصر هولاغو (١٩١١)
٢٣	٤ - « رهين الحبسين » (١٩١٢)
٢٥	٥ - من صقلية إلى بطرسبورغ عبر إيران (١٩٢٩)
٢٦	خلاصة (١٩٤١)
٢٨	٢ - جولات فى الشرق
٢٨	١ - الكتب والبشر (١٩٠٨-١٩١٠)
٤٠	٢ - مقالة نحوية أم رسالة الحادية ؟ (١٩٣٢ - ١٩٤٠)
٤٦	٣ - رسالة ماجيستير غير مكتوبة (١٩١٠)
٥١	٤ - مخطوطات بطيركين أم نبوءة تحققت (١٩٢٧ - ١٩٠٠)
٦١	٣ - كتاب عرب ومستعرب روسى
٦١	١ - « فيلسوف وادى الفريكة » (١٩٤٠-١٩٤٠)
٦٧	٢ - ارستقراطى القاهرة - « الفلاح »
٧٥	٣ - طالب المدرسة الدينية فى بولتافا

٨٤	٤ - في المتحف الآسيوى
٨٤	١ - مقدمة لأسطورة (١٩٠٣ - ١٩٣٤)
٩٧	٢ - مخطوط وحيد وعلماء اثنتى عشرة لغة
١٠٣	٣ - معاصر أول غزوة صليبية (١٩١٩ - ١٩٢١)
١٠٩	٤ - ريان فاسكو دى جاما
١١٦	٥ - في المكتبة الجامعية
١١٦	١ - المكتبة وأمنائها (١٩٠١ - ١٩٣٠)
١٢٢	٢ - معارض رسالة ماجستير لأول مرة (١٩١٤)
١٤٣	٣ - من القاهرة حتى مقبرة فواكوفو في بطرسبورغ (١٩١٦ - ١٩٣٠)
١٥٢	٤ - الأندلس ولينينجراد (١٩٠٥ - ١٩٤٢)
١٦٤	٦ - من سار على الدرب وصل
١٦٤	١ - لوحات برونزية صغيرة من بلاد ملسكة سبأ (١٩٣٦)
١٧٤	٢ - رسالة من بلاد الصغد (١٩٣٤)
١٨٣	٣ - قرآن كوفي و « جدة عربية » (١٩٣٦)
١٨٩	٤ - المراقب الملازم لشامل في كالوغا (١٩٢٨ - ١٩٤١)
١٩٨	٧ - ظل الأجداد
١٩٨	١ - « صريع الأدب العربى » (١٩١٠)
٢٠٤	٢ - كركاس « الوديع » (١٩٠١ - ١٩٤١)
٢١٣	٣ - نصف قرن في دراسة مخطوط واحد ١٩٠٣ - ١٩٣٨
٢٢١	خاتمة Requiem alternam (١٩٤٣)
٢٢٣	ملحق - لزوم ما لا يلزم
٢٢٧	ملاحظات
٢٣٤	« نحو قصة الكتاب »
٢٣٥	الترجمات
٢٣٦	التقاريط

